تاريخ الشرق القديم

(٢)

بلاد مابين النهرين

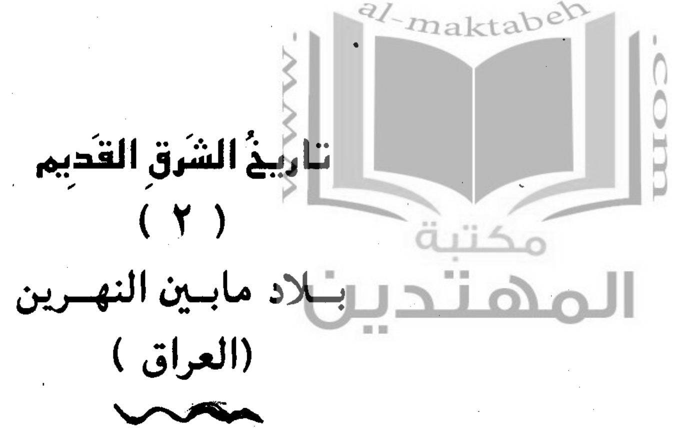
(العراق)

الدكتور أحمد ارحيّم هبّو



دار الحكمة اليمانية
للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان
صنعاء / الجمهورية اليمنية

مكتبة المهتدين الإسلامية



تاريخُ الشَرقِ القَدِيم

(٢)

بلاد مابين النهرين

(العراق)

http://www.al-maktabeh.com



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م



دار الحكمة اليمانية
للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان

ج. ي - صنعاء
شارع القصر الجمهوري
هاتف: ٢٧٢٤٧٤ -
ص.ب. ١١٠٤١ - برقياً: حكمة
ص. ب. ٨٠٣ - ٢١ فاكس: ٢٧٢٤٣٣

مكتبة المهتدين الإسلامية



http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

الإهداء

إلى صديقة الحياة ورفيقة الدرب

إلى سيدة العطاء وباعثة الأمل

إلى أم هديل وفراس وفادي

إلى بسمة العمر الغالية غالية .

http://www.al-maktabeh.com

المقدمة

بدأ التاريخ في الشرق الأدنى القديم ، في بلاد مابين النهرين، وفي سورية، وفي مصر. وظهرت الحضارة الإنسانية في هذه المنطقة من العالم القديم في أبهى مظاهرها وأولى إنجازاتها، فكانت مهد الحضارة التي ولدت فيها، وترعرت على أيدي شعوبٍ ، إن تباينت أحياناً أصولها العرقية، ولغاتها، ودياناتها، وعاداتها، فإن ثمة رابطاً يجمع بينها، وهي البيئة التي ظهرت فيها حضارتها الأولى ثم ازدهرت، وتطورت فيها، وتشابكت مع بعضها، ولكنها اتسمت بطابع أصيل واحد، هو الطابع الشرقي الذي مازها من الحضارات الأخرى اللاحقة، فضلاً عن سبقها للحضارات الأخرى، وظهورها تلقائياً بمعزل عن أي تأثر خارجي أو احتكاك بالأمم الأخرى.

ولعل ديناميكية التاريخ السياسي في بلاد مابين النهرين سمة واضحة تبرز أكثر من السمات الأخرى التي يتنبه إليها المؤرخ وهو يطالع هذا التاريخ. وتعود هذه الديناميكية إلى تنوع الشعوب التي تحكمت في مصير المنطقة : من سومريين، إلى ساميين، إلى شعوب جبلية، وشعوب وافدة في أوقات مختلفة، مثل الحوريين والكاشيين. وقد كان لهذا التنوع أثر في حفز الإنسان العراقي القديم على التطور والخلق والإبداع. فهو وإن كان صاحب المبادرة الأول، ومتسلحاً بأمضى أسلحة الحضارة، إلا أن تعرضه للهزات بعد الحين والآخر من جهات خارجية كان له فعل إيجابي في نفسه، وفي استمرارية الخلق الحضاري. فالحضارة حضارته التي ابتكرها بنفسه، والأجنبي الوافد كان لايلبث أن يتقمص حضارة البلد، فيتحدث لغتها، ويتأثر بديانتها، ويتخذ أسماء أبنائها وألقاب ملوكها، كما فعل معظم حكام الجوتيين، والكاشيين ليضمنوا لأنفسهم الشرعية وولاء الناس. فكان أولئك الوافدون لايعرفون من الحضارة شيئاً، أو يفتقرون كلية إلى أسبابها الأساسية، فيشعرون بالنقص والضعف أمام ما يلمسون من تفوق أهل البلاد الحضاري.

وتسبب في هذه الديناميكية تتابع دور السكان القدماء السياسي والحضاري معاً. فعندما بادر السومريون إلى أخذ زمام المبادرة السياسية، وأنشأوا دول المدن

مكتبة المهتدين الإسلامية

الأولى، رافقهم الساميون، ولكن نصيبهم كان أقل. ثم تزايد دورهم فاستلموا زمام المبادرة.، وابتدعوا نظاماً جديداً، هو نظام الدولة الحقيقية وأنهوا نظام دول المدن المحدودة، ووحّدوا الجنوب والشمال، واحتكوا مع الجوار، ونشروا حضارتهم الرافدية، وسيطروا على الطرق التجارية.

ثم عاد السومريون في عصر الإحياء إلى المقدمة، ولكنهم اختفوا بعده، وانصهروا في بوتقة الساميين، الأكديين والبابليين والأموريين.

ولم تكن حضارة بلاد مابين النهرين حضارة السومريين وحدهم، أو حضارة الأكديين، بل كانت حضارة واحدة للجميع، اختلطت فيها العناصر اللغوية، والدينية، والقانونية، والمعمارية، والفنية بعامة. وبقيت كذلك حتى أواخر حكم الآشوريين والكلدانيين وامبراطوريتهم. واستمر تأثير الحضارة العراقية القديمة بمنجزاتها العلمية، من اختراع الكتابة المسمارية، إلى العلوم الرياضية، ونظامها الستيني، إلى علم الفلك الذي برزوا فيه، إلى التشريعات التي كانوا روادها، وإلى الآداب وملاحمها التي كانت مصدر إلهام لكثير من الملاحم الشعرية في الغرب، ولاسيما ملحمة جلجا مش، على سبيل المثال، وغيرها من الإنجازات الحضارية الرائدة التي بهرت الإغريق في العصر السلوقي، ومنذ العصر الفارسي عندما شاهد هيرودوت معالم عمارتها المتأخرة، وأساليب الري والزراعة ، كما انبهروا عند مشاهدة مؤرخيهم المتجولين معالم الحضارة المصرية القديمة، واعتبروا بعضها من عجائب الدنيا.

ومن اللافت في تاريخ بلاد مابين النهرين كثرة الحروب التي خاضها البابليون، والآشوريون بخاصة، وقساوة الآشوريين في التعامل مع الشعوب المجاورة، وحتى مع أشقائهم البابليين أحياناً. أما كثرة الحروب فهذا أمره عائد إلى العصر الذي ظهرت فيه قوى متعددة، ومتنافسة على السيطرة الاقتصادية، لأن هدف الحروب الحقيقي كان اقتصادياً في المقام الأول، وإن ظهر بعض الملوك الذين كانوا يحاربون لتمجيد ذاتهم، وإشباع رغبة جامحة عندهم للسيادة والاستبداد بمقدرات شعوبهم، فقد كان بينهم ملوك طيبون يسعون بإخلاص لإسعاد شعبهم،

http://www.al-maktabeh.com

وتأمين الرفاه له . والأمثلة متوافرة على هؤلاء، وعلى أولئك في تاريخ الدولة الحديثة في مصر، وفي غيرها من الدول. وأما قسوة الملوك الآشوريين فلعلها تعود إلى طباعهم الشخصية، ولكن العامل الذي تسبب في تلك القسوة الظاهرة إنما يعود إلى أن آشور كانت في الأصل بلداً صغيراً، محدود الإمكانات البشرية والمادية، ووجدت نفسها قوية في عصر عزّ فيه الأقوياء، فقد غابت مصر، وغاب الحثيون، وضعفت عيلام، العدو التقليدي لدول بلاد مابين النهرين كلها، إذ أنها بلغت دور الشيخوخة، فتوسعت خارج حدودها، بل وبالغ ملوكها، السرجونيون بخاصة ، في مد سيادتهم على بقاع نائية. فأنّى للآشوريين الاحتفاظ بتلك المساحات الشاسعة وإمكاناتهم محدودة؟ فلم يجدوا حلاً لمشكلتهم غير اتباع أساليب الإرهاب والقمع لكل من يتمرد عليهم، أو ينضم للمتمردين، أو يحرضهم على العصيان.

ولما كان تاريخ بلاد مابين النهرين متشابكاً مع تاريخ سورية القديم فإن الفائدة التي يجنيها المؤرخ كبيرة في سد الثغرات التاريخية التي تظهر في تاريخ المنطقتين اللتين تختلفان في تسميتهما، ولكنهما تتفقان في جغرافيتهما وفي تكوينهما الإثني، وفي الوحدة الحضارية، كما نوهنا، وكانت سورية إضافة لهذا صلة الوصل بمصر لعلاقتها الوثيقة بها منذ أقدم العصور.

يجد القارئ غير المتخصص أحياناً اختلافاً في التواريخ بين المؤرخين في مجال التاريخ القديم. ومردّ ذلك إلى أن الاتفاق لم يتم بعد بين الباحثين على تواريخ مطلقة الصحة. ليس لأنهم لايبغون الاتفاق، وإنما طبيعة التاريخ القديم الذي لم يعرف التقاويم الموحدة، أو طرقاً واحدة للتأريخ، وكثرة الثغرات التاريخية المظلمة التي لاتتوافر فيها المصادر من آثار، ونقوش وغيرها من المصادر الثانوية، هي التي تحول دون الاتفاق. وثمة ثلاث مدارس تأريخية اهتمت بهذه المشكلة. وقد أخذنا برأي "المدرسة الوسطى» من بينها لكتابنا وهي التي يمثلها العالم سميث S. Smith، وزميله سيدرسكي M. Sidersky. وتحدد هذه نهاية الأسرة البابلية الأولى في عام ١٥٩٥ق.م، وحكم حمورابي بين ١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م، وتضع بداية للعصر الأكدي في عام ٢٣٤٠ق.م. أما مدرسة التاريخ القصير، ويمثلها العالمان ألبرايت W. F. Albright، وكورنيليوس F. Cornelius فتنقص تواريخ أعوامها بمقدار ٦٤سنة.

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

الشرق الأدنى القديم، وترفد معلوماته. وعسى أن نوفق في المستقبل إلى الكتابة عن حضارة الشرق الأدنى القديم، ليتكامل العمل، وتتم الفائدة أكثر، والله ولي التوفيق.

وأتقدم أخيراً بالشكر لكل من مد يد العون والمساعدة في إنجاز هذا الكتاب، وأخص بالذكر الزميلين الدكتور غسان طه، والدكتور عبدالله الشيبة، اللذين زوداني بعدد من المراجع من مكتبتيهما الخاصة. وخالص الشكر والامتنان للسيدة غالية ارحيم على الجهد الذي بذلته لإخراج المؤلَّف بكامله إلى النور.

صنعاء ، صيف عام ١٩٩٦م

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

الباب الأول

المدخل إلى تاريخ بلاد ما بين النهرين

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الأول

بلاد مابين النهرين - بلاد الرافدين

(العراق القديم)

المفهوم الجغرافي والحضاري والزمني :

أطلق الباحثون الغربيون تسمية «الشرق القديم» على مناطق واسعة من العالم تمتد بين المحيط الهادي شرقاً إلى المحيط الاطلسي غرباً ، وتشتمل على مايعرف بالشرق الأقصى (اليابان والصين والهند الصينية) ، والشرق الأوسط الذي يشتمل على الهند وإيران ومايلحق بها من بقاع ، والشرق الأدنى الذي يشتمل على البلاد العربية التي يقع بعضها في آسية كالعراق وبلاد الشام (سورية ولبنان والأردن وفلسطين) وأقطار شبه الجزيرة العربية . ويقع بعضها الآخر في شمالي أفريقية كمصر وأقطار المغرب العربي ، وشماليها الشرقي كالسودان والصومال ، ويضم كذلك آسية الصغرى حيث تقوم اليوم تركية ، وجيران العرب في أفريقية كأثيوبية وأريتيرية . ويختلط اليوم مفهوم الشرق الأوسط بمفهوم الشرق الأدنى في مجال السياسة الدولية وغيره ، ولاسيما عندالحديث عن الصراع العربي الإسرائيلي الذي يطلق عليه تسمية« أزمة الشرق الأوسط». أما المؤرخون وعلماء الآثار فيخصصون تسمية الشرق الأدنى القديم The Ancient Near East لبلاد الرافدين وبلاد الشام وشبه الجزيره العربية ومصر بالإضافة الى آسية الصغرى وإيران لما بين هذه المناطق من صلات تاريخية متشابكة لاتنفصم منذ القديم كما نرى لدى التفصيل في تاريخ بلاد الرافدين وسورية القديمة ومصر ، ويستخدم بعضهم تسمية أخرى هي «آسية الأمامية» Vorderasien(بالألمانية) ويقصد بها على وجه التحديد مايسمى « الهلال الخصيب» الذي يشتمل على المناطق الممتدة بين

مكتبة المهتدين الإسلامية

طرفي القوس الجبلي الواسع الذي يتكون من جبال إيران الغربية(زاجروس وكردستان) في الشرق وسلاسل جبال طوروس في الشمال، والأمانوس ، والعلويين، ولبنان في الغرب[1]، وهي مناطق معروفة بخصوبة وديانها وسهولها ووفرة مياهها، إذ تجري فيها أنهار كبيرة ، غزيرة المياه كنهري دجلة والفرات في الشرق والوسط بروافدها المتعددة ، ونهر العاصي ، والليطاني والأردن في الغرب ، كما تعرف بغزارة أمطارها ولاسيما في الغرب والشمال . وقد هيأ ذلك كله المجال لسكانها للإفادة من زراعة كثير من بقاعها ، ولاسيماالبقاع المجاورة للأنهار ، والوديان الواقعة بين الجبال والسهول التي كانت تعتمد على الأمطار الخريفية والشتوية والربيعية ، وأما المناطق المتاخمة لها باتجاه الداخل فهي جافة وصحراوية الطابع .

ويقسم الباحثون الهلال الخصيب إلى منطقتين رئيسيتين هما : بلاد الرافدين (أو العراق) وبلاد الشام (أو سورية) . أما العراق القديم ، أو ما يسمّى عند المختصين "بلاد مابين النهرين"، أو "بلاد الرافدين" فيتشكل من المنطقة الممتدة من هضبة أرمينية في الشمال (شرقي تركية اليوم) حيث تقع منابع نهري دجلة (في الشرق) ، والفرات (في الغرب) حتى الخليج العربي في الجنوب ، ومن الفرات غرباً حتى دجلة شرقاً. ودعيت هذه المنطقة باسم بلاد مابين النهرين MESOPOTAMIA عند اليونان [2]، وسماها المختصون العرب "بلاد الرافدين" ، فغدت هذه التسمية اصطلاحاً جغرافياً وتاريخياً منذ ئذ يعني كل المناطق المحصورة بين نهري دجلة والفرات، بل ويتعداها إلى المناطق المتاخمة لها في الشرق حيث ترتفع جبال زاجروس وكردستان، وفي الجنوب الشرقي حيث تقع عيلام التي كانت تلاصق حدودها قديماً منطقة دول بلاد الرافدين، فتنشب الحروب بين الطرفين بين الحين والآخر. أما في الشمال فكانت هضبة أرمينية وجبال طوروس التي كانت

---

(١) Fischer Weltgeschichte = Fw, 2, Die Altorientalischen Reiche I, S. 16.

(٢) أطلق المؤرخ اليوناني بوليبيوس في القرن الثاني قبل الميلاد هذا الاسم، ومن بعده سترابون في القرن الأول قبل الميلاد، في البداية على المنطقة المحصورة بين نهر الفرات ونهر دجلة والواقعة بين الجبال في الشمال وبغداد في الجنوب حيث يقترب النهران من بعضهما ، ثم عمم الاسم على المناطق الجنوبية التي تصل إلى الخليج .

M. A. Beek, Bildatlas des Assyrisch - Babyl. Kultur, S. 9 .

http://www.al-maktabeh.com

تخضع مناطقها الجنوبية لنفوذ دول بلاد الرافدين أيضاً عندما كانت تلك قوية وتوسع سلطانها على المناطق المجاورة . ويحدها من الغرب البادية السورية (بادية الشام) التي كانت تفصلها عن سورية الداخلية بشكل طبيعي كما تفصلها جبال زاجروس وكردستان في الشرق عن إيران.

وتقسم بلاد الرافدين بحسب طبيعتها الجغرافية إلى ثلاثة أقسام :

١ – القسم الشمالي ، ويسمى بلاد آشور **Assyria** :

وتغلب عليه الطبيعة الجبلية ، إذ تكثر فيه المرتفعات ، ولا سيما في الشمال الشرقي ، وتتخلله وديان نهر دجلة، وهي من الشمال إلى الجنوب : نهر الزاب الأعلى (أو نهر الزاب الكبير) ، ونهر الزاب الأسفل (أو نهر الزاب الصغير)، نهر العظيم ، ونهر ديالى الذي يرفد نهر دجلة إلى الجنوب من مدينة بغداد اليوم . وأطلق اسم بلاد آشور على هذا القسم نسبة إلى مدينة آشور القديمة التي تقع إلى الشمال بقليل من مصب نهر الزاب الأسفل من دجلة، والتي كانت حاضرة الآشوريين الأولى.

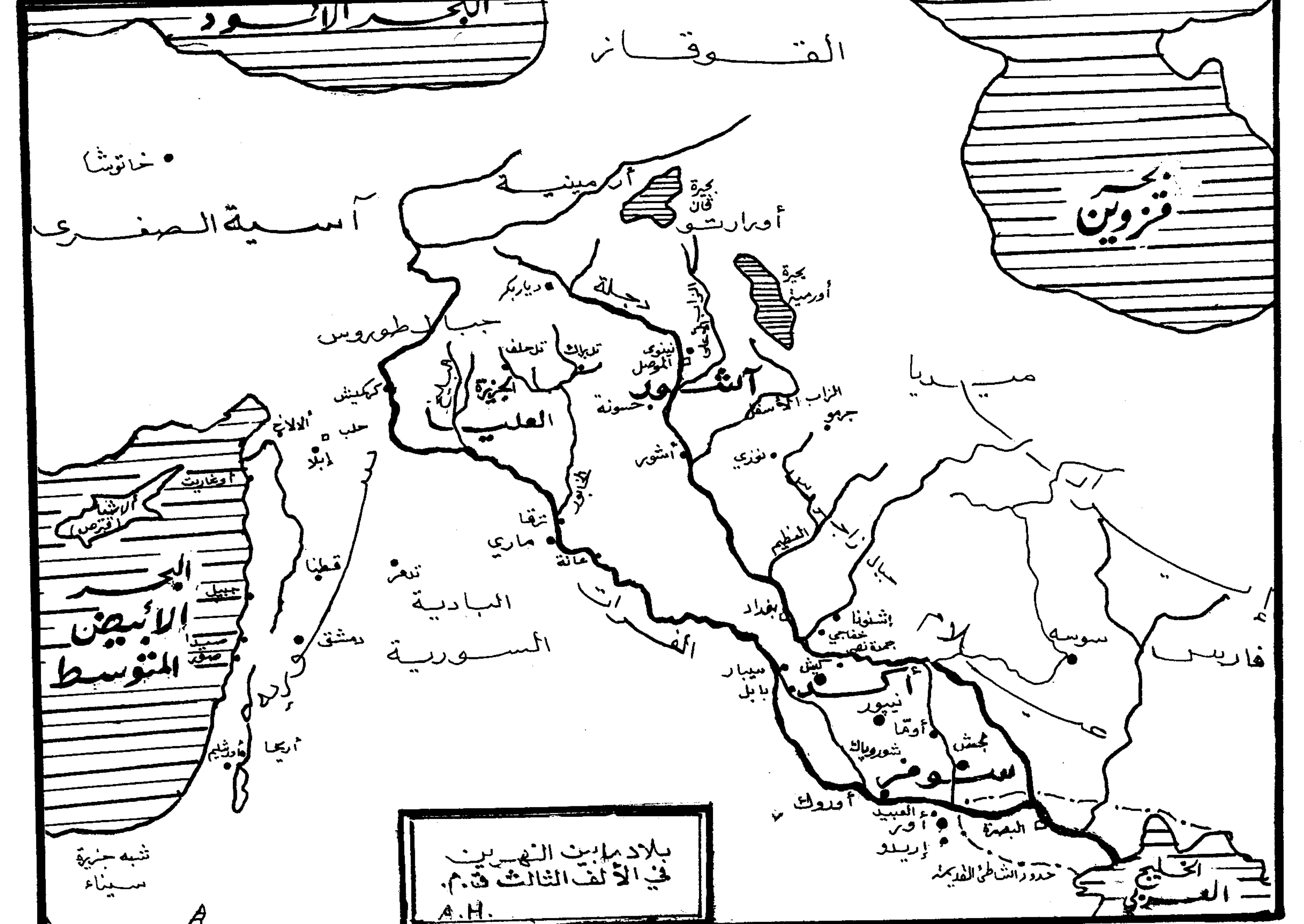
٢ – القسم الجنوبي ، ويدعى بلاد بابل **Baby lonia** :

ويتشكل من منطقة منبسطة حديثة التكوين من الناحية الجيولوجية لأنه كان جزءاً من الخليج العربي إلى حد كبير، ثم غمرته الرواسب التي جلبها نهر دجلة والفرات من المناطق الجبلية في الشمال، وهو يبدأ على وجه التقريب من المنطقة الواقعة إلى الجنوب من مدينة بغداد حيث يتقارب مجريا النهرين الكبيرين ، ثم يعودان ليبتعدا عن بعضهما ثانية ليحصرا بينهما منطقة بيضوية الشكل قبل أن يصبا في الخليج العربي منفصلين في الأزمنة القديمة[٣] ، ثم صار يلتقيان ببعضهما فيما بعد ليكونا مجرى مائياً عظيماً أطلق عليه العرب اسم «شط العرب»

---

(٣) لم يشر هيرودوت في تاريخه إلى التقاء النهرين ، وكذلك سترابون(٦٤ق .م –١٩م) ، أي بعده بحوالي أربعة قرون وفي مطلع التاريخ الميلادي ، وحتى بليني الأكبر(٢٣–٧٩م) الذي يحدد المسافة الفاصلة بين مصبي النهرين عند الخليج بنحو ٢٥–٧أميال(طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، الجزء الأول ٥ .

مكتبة المهتدين الإسلامية



http://www.al-maktabeh.com

قبل أن يصب هذا في الخليج العربي . وتكثر في هذه المنطقة المستنقعات والقنوات ، وتتعرض المنطقة للفيضانات السنوية ، إضافة إلى أن النهرين كانا يغيران مجريهما بين الحين والآخر ، ولاسيما نهر الفرات الذي يجري في منطقة سهلية رملية التركيب .

وكان القسم الجنوبي من بلاد الرافدين يقسم بدوره الى منطقتين هما : سومر وأكد . أما سومر فتقع في الجنوب مطلة على الخليج العربي، وتشتمل على نصف المنطقة تقريباً وقامت فيها أغلب المدن (السومرية)الأولى ، بينما تقع «أرض أكد» في الشمال وتمتد من وسط المنطقة حتى جنوبي بغداد . ثم أمسى القسم الجنوبي كله ، أي أرض سومر وأرض أكد معاً ، يطلق عليه إسم « بلاد بابل»، أو «أرض بابل » Babylonia نسبة إلى أشهر مدنه في العصور التاريخيه ، وهي مدينة بابل حاضرة الدولة البابلية ، وعاصمة المنطقة بكاملها منذ عهد ملكها المشهور حمورابي .

٣ – القسم الشمالي الغربي ، ويطلق عليه اسم «الجزيرة العليا» ويتطابق إلى حد كبير مع مايسمى اليوم« الجزيره السورية» ، لأنه يشكل جزءاً من أراضي الجمهورية العربية السورية ، ويحده من الشمال جبال طوروس ، ومن الغرب نهر الفرات الذي يشكل انحناءة باتجاه الجنوب الشرقي ، ويتلقى رافدين كبيرين هما : نهر البليخ الذي يصب عند مدينة الرقة اليوم وينبع من سفوح جبال طوروس . ثم نهر الخابور الذي يرفد الفرات إلى الجنوب من مدينة دير الزور السورية ، وتشكل ينابيعه مجموعة من الأنهار الصغيرة جنوبي هضبة أرمينية ، وعند سفوح طوروس الجنوبية قبل أن يتابع سيره باتجاه الجنوب ليصب في نهر الفرات . وتشكل منطقة الجزيرة العليا منطقة شديدة الخصوبة لكثرة مياهها ، ولاسيما في أجزائها الشمالية ، من الينابيع ومن الأمطار الغزيرة التي تهطل عليها . وكان الآشوريون، كما سنرى لاحقاً ، يعدونها منطقة توسعهم الأولى ، وقامت فيها أقدم مراكز حضارات بلاد الرافدين .

إن الحديث عن بلاد الرافدين وبلاد الشام بالمفهومين المذكورين يعني الحديث

مكتبة المهتدين الإسلامية

عن تاريخ الحضاره البشرية في مهدها الأول ، بل فجر التاريخ الإنساني الذي بدأت كتابة فصله الأول في بلاد الرافدين حيث قامت دويلات السومريين ثم دول أكد وبابل وآشور وحيث ظهر من قبل النشاط الحضاري الذي أدى إلى تطور صناعي جديد يبتدئ في معرفة استخلاص معدن النحاس واستعماله ، وإلى نشوء البلدان والمدن الصغيره التي تطورت عن القرى الكبيره في المجتمع الزراعي ، وتميزت باتساع عمرانها وتشييد المعابد والقصور ، وظهور الصناع والفنانين فيها ، وباتساع مجالات الإنتاج .

لم تتطور الحضاره في بلاد الرافدين بمعزل عن بلاد الشام ، بل كانت الحضارة فيهما متعاصرة أحياناً ومتعاقبة أحايين أخرى . وكان بعضها يكمل بعضها الآخر ، ولكنها تصطبغ بلون ثقافي واحد ، وتعبر عن نفسها بلغات تنتمي إلى أصل واحد ، اصطلح الباحثون على تسميته باللغات السامية، وهذا يعني أن الساميين كانوا أقدم من استقر في هذه البلاد إن لم يكونوا أهلها الأصليين . ولم تستطع الشعوب الغريبة التي حاولت دخول المنطقة ، أو دخلتها فعلاً ، في فترات تاريخية مختلفة أن تؤمن للغتها حياة دائمة ولحضارتها مكانة مميزة ، إن كانت لها حضارة خاصة ، كالجوتيين والكاشيين والحوريين والميتانيين ، بل ثبت أن تلك الشعوب كانت إما أن تدحر وترد على أعقابها ، أو تصهر وتنوب في المجتمع المحلي وتذهب ريحها ، فتجد نفسها مضطرة لتقمص حضارة البلاد الراقيه واتخاذ لغتها أساساً للتعامل والتعايش المشترك .

وشارك إنسان الشرق الأدنى القديم ببناء الحضارة الإنسانية منذ ماقبل التاريخ فيما يسمى بالعصور الحجرية ، ووجد علماء الآثار بواكير نشاط له في أماكن متعدده في المنطقة ، كما شهد الشرق الأدنى القديم مايسميه العلماء بحق «الثورة النيوليثية»[٤] ويقصد بها دخول الإنسان عصر الزراعة ، زراعة الحبوب الغذائية من شعير وحنطة ، وهي طفرة حضارية[٥] تعني انتقال الإنسان لتأمين

---

(٤) أنظر كتابنا : تاريخ الشرق القديم(١) سورية ، ص ٥٦ Fischer weltgeschichte, 2, 22

(٥) يعتبر اهتداء الإنسان القديم إلى عملية إيقاد النار أهم خطوة حضارية حققها في تاريخه القديم . وتلا ذلك اهتداؤه إلى عملية الزراعة ، ثم الثورة الصناعية الحديثة التي حدثت في القرن الثامن عشر الميلادي .

http://www.al-maktabeh.com

معاشه من عملية التقاط الثمار والبحث عن النباتات الصالحة لطعامه في الطبيعة ، وصيد الحيوانات الصغيرة ، والتعاون على صيد الحيوانات الكبيرة ، وصيد الأسماك ، أي انتقاله من إنسان جامع للغذاء إلى إنسان منتج يستطيع أن يؤمن غذاءه بجهده ورعايته للمزروعات التي يقيمها ، وأن يتحكم في محصولها بقدر ما يبذل من جهد ، وأن يدخر من المحصول مايزيد على استهلاكه إلى وقت الجفاف وإلى غير وقت الإنبات . فهو تحول من حالة جمع الغذاء Foodcolletingstage إلى حالة إنتاج الغذاء Food-producing stage . كما رافق ذلك استئناس الحيوانات وتدجينها ، كالكلب والخنزير والغنم والماعز ، ثم البقر والحمار والخيل ، وتحول بذلك الإنسان من الاقتصاد الاستهلاكي الى الاقتصاد الإنتاجي ، وتحولت قرى الصيادين إلى قرى المزارعين ، وقد ترتب على ذلك نتائج اجتماعية واقتصادية كانت أساساً لما تلاها من مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والروحية التاريخية، ولاسيما مايتصل بظهور الحرف من رعي وصناعة لأدوات الزراعة وغيرها من الأدوات الزراعية والمنزلية ، وصناعة الأواني الفخارية ، ونسج الكتان ليضمن الإنسان لنفسه لقمة العيش والرزق في مجتمع بدأت تظهر فيه الفوارق الاقتصادية بين مزارع مالك وآخر أجير . كما ظهرت صناعة أدوات الزينة، وبدأت طفولة الفن من صنع للتماثيل الصغيرة من الصلصال والخشب والعظم والعاج تترعرع وتنمو ، وصاحب ذلك بدايات الرسم والزخرفة على سطوح الأواني الفخارية من تقليد لهيئات الإنسان والحيوان وخطوط هندسية .

وقد تم ذلك في الشرق الأدنى القديم بدءاً من مطلع الألف الثامن قبل الميلاد في تل المريبط وتل الشيخ حسن في حوض الفرات وتل أسود في غوطة دمشق ، وفي أوغاريت في سورية القديمة ، وفي جرمو الواقعة شرقي كركوك على سفوح جبال زاجروس التي تعد من مناطق الموطن الطبيعي لحبوب البرية، وفي أريحا بفلسطين وجلجال في وادي الأردن وغيرها من المناطق التي كانت تعتمد على مياه الأنهار أو الأمطار الغزيرة في الشرق الأدنى القديم كمصر وإيران الغربية وجنوبي آسية الصغرى . وكانت تلك المناطق من الشرق أسبق إلى الاهتداء إلى بداية حرفة

مكتبة المهتدين الإسلامية

الزراعة من المناطق الأوربية بحوالي ألفي عام[٦] . ولم يتم ذلك الانقلاب دفعة واحدة، ولم يكن مفاجئاً بل استغرق ردحاً طويلاً من الزمن .

يطلق الباحثون على العصر الذي عرف فيه الانسان الزراعة اصطلاح العصر الحجري الحديث (النيولتي Neolithic) إشارة إلى حداثة زمنه عن أزمنة العصور الحجرية القديمة التي سبقته[٧]، ويسميه بعضهم عصر«بداية الإنتاج» لأن الإنسان تحول فيه من جامع للغذاء إلى منتج له ، وانتقل من الاقتصاد الاستهلاكي إلى الاقتصاد الإنتاجي ، كما بينا من قبل . وثمة تعريف تاريخي يقصد إلى ترتيب موقعه في المسيرة التاريخيه للبشر وهو «عصر فجر التاريخ» إشارة إلى أنه العصر السابق والمهد للتاريخ الذي بدأ بظهور الكتابة وبانقشاع ظلام عصور ماقبل التاريخ ، وذلك في نهاية الألف الرابع وبداية الألف الثالث على مايعتقد اكثر الباحثين .

يبدأ التاريخ الحقيقي إذن باختراع الكتابة ، وتتوالى العطاءات الحضارية ، وتتصارع القوى المحلية والغريبة على حكم البلاد ، وتظهر دويلات ، وتقوم دول إمبراطوريات ، ويبرز حكام وملوك ، وتعقد محالفات سياسية واتفاقيات اقتصادية ، وتتغير الحدود السياسية من وقت إلى آخر .

وينتهي تاريخ المنطقة القديم بوصول جيوش الإسكندر المقدوني إلى الشرق الأدنى القديم في عام٣٣٣ق .م وانتصاره على داريوس الثالث ملك الفرس في معركة إيسوس .

---

(٦) Peake, The Origins of Agriculture 1928; The Beginning of Agriculture 1931; R. Braiwood, The World's First Farmingvillages, Illutrated Londons News, April 28, 1956, 410 f.

(٧) يقسم علماء الآثار عصور ماقبل التاريخ إلى ثلاثة عصور تبعاً لطبيعة المواد التي تتشكل منها الآثار التي خلفها الإنسان وهي العصر الحجري ، والعصر البرونزي ، والعصر الحديدي ، ويقسمون العصر الحجري نفسه إلى أربعة عصور : هي العصر الحجري القديم ، والعصر الحجري الوسيط ، والعصر الحجري الحديث ، والعصر الحجري النحاسي . انظر كتابنا : سورية ص٤٢ ومابعدها .

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الثاني

فجر الحضارة في بلاد مابين النهرين

دخل الشرق الأدنى مرحلة جديدة بعد اكتشاف الزراعة إذ بدأت تظهر القرى والمستوطنات الزراعية حيث كانت تنمو النباتات القابلة للإكثار ، وكانت الحيوانات المهيأة للاستئناس والتدجين تعيش في الوديان الجبلية وعلى سطوح الجبال الإيرانية والعراقية والتركية والسورية والفلسطينية ، وحيث تسقط كميات كافية للمزروعات الحقلية .

وترتب على ذلك نمو سريع للسكان ، وتوسع واضح باتجاه المناطق السهلية المتاخمة لسفوح الجبال حيث تتوافر الشروط الملائمة للزراعة من أراض خصبة صالحة للاستصلاح ومطر وافر . وتبين أن المناطق الشمالية الجبلية ذات الوديان الكثيرة والمجاري المائية من بلاد الرافدين كانت ملائمة للزراعة البعلية وللاستقرار وللتطور الحضاري أكثر من المناطق الجنوبية السهلية التي لم تكن صالحة للاستغلال والسكنى نظراً لانخفاضها وكثرة سبخاتها وارتفاع نسبة الملوحة فيها وشدة حرارتها وجفافها الذي لم يغر الإنسان القديم على الإقامة فيها ، وكان النهران دجلة والفرات ، ولاسيما نهر دجلة ، غير مأموني الجانب . فما إن تنوب الثلوج التي تغذي ينابيع النهرين في آسية الصغرى حتٍ تزيد مياههما إلى درجة يصعب التحكم فيهما ولاسيما عند اقترابهما من بعضهما في شمالي بابل حيث يسيران مسافة ٣٥٠كم ليصلا إلى حيث يصبان في الخليج العربي بدرجة انحدار لاتتجاوز ٣٤م . لذلك كان يغيران مجريهما باستمرار ، ويتسببان في انتشار المستنقعات والسبخات الكثيرة . ولاعجب في أن أسطورة الطوفان كان منشؤها في هذه البلاد .

مكتبة المهتدين الإسلامية

لذلك ظهرت المراكز الحضارية في الشمال وازدهرت منتوجاتها من الفخار وانتشرت في مناطق واسعة من الشرق القديم ، قبل أن تظهر معالم السكن في جنوبي العراق في المنطقة التي سميت فيما بعد بلاد بابل Babylonia والتي أصبحت في فترة قصيرة لاحقة مركزاً رئيسياً للحضارة في الشرق الأدنى القديم : فتأخر ظهور الزراعة فيها إلى أن مضت فترة من العصر الحجري النحاسي (الخالكوليثي) وفي أثناء ازدهار حضارة تل حلف التي يعود تاريخها إلى حوالي(٥٠٠٠)ق .م .

أما مراحل التطور الواضح للحضارة في بلاد الرافدين فإنها تبدأ حوالي منتصف الألف السادس قبل الميلاد ، وتتمثل في مواقع يعتبرها علماء الآثار نماذج لدرجات متفاوتة من الحضارة(الثقافة) عمّموها على المناطق الأخرى التي ظهرت فيها معالم حضارية تشبهها أوتتطابق معها ،وأصبحت علماً لها وهي :

حضارة جرمو :

تقع جرمو في سفوح جبال زاجروس إلى الشرق من مدينة كركوك العراقية حيث قام عالم الآثار الأمريكي روبرت بريدوود R. J. Braidwood منذ خمسينات القرن الحالي بالتنقيب لإثبات الفرضية القائلة إن الزراعة نشأت في المواطن الأصلية الطبيعية للحبوب البرية(Natural Habiteet) وقد وفق في العثور على حبوب مزروعة يعود زمنها إلى حوالي عام ٦٧٥٠ ق .م (بحسب تقديرات الفحم المشع)[١] واعتقد أن جرمو أقدم قرية زراعية حيث وجد حوالي ٢٥ بيتاً من الطين رفع بعضها على أساس من الحجر ، وتحتوي على عدد من الغرف المربعة التي كانت تستخدم للنوم والتخزين وتشتمل على التنانير والمواقد ، وقدر عدد السكان بـ(١٥٠) شخصاً ، وكان أولئك يعملون في زراعة نوع من الشعير الذي تنتظم حباته الكبيره على الغصن ، وهو صنف محسن على الشعير البري ، ونوعين من القمح[٢] وكذلك في زراعة الذرة والعدس .أما الحيوانات التي كانوا استأنسوها وأفادوا منها فهي الماعز والغنم والخنازير ، وكذلك البقر والكلاب .

---

(١) A. Falkenstein, in FW, 2, S. 25

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

http://www.al-maktabeh.com

وعثر كذلك على أدوات كالأواني الحجرية أو المصنوعة من المرمر والأدوات الزراعيه الصغيرة والكبيرة كالمناجل المصنوعة من حجر الصوان ، والمدقات الحجرية لطحن الحبوب والمقاشط لمعالجة الجلود؛ كما تبين أنهم صنعوا من عظام الحيوانات المخارز والإبر والأقراط والأساور والخواتم ، غير أنهم لم يعرفوا صناعة الفخار لأنهم عاشوا في زمن عصر النيوليت ماقبل الفخار .

وثمة مواقع أخرى تتطابق في حضارتها مع حضارة جرمو ، من مثل : تل المغزالية (على سفوح جبل سنجار) وتل شمشارة(على نهر الزاب الأصغر إلى الشمال من جرمو) وكريم شاهير (قرب جرمو نفسها) في العراق ، وبعض المناطق في جنوب غربي إيران .

كما صنعوا تماثيل صغيرة من الصلصال على هيئة الحيوان ، وبعضها على هيئة النساء اللواتي يعتقد أنهن يرمزن إلى الخصوبة ، ومن بينها تمثال امرأة حامل في وضعية الجلوس رأى فيها المختصون صورة ربة الأمومة .

إن قدم جرمو لايعني أنها أقدم قرية زراعيه ، كما اعتقد بريدوود - أقامها الإنسان ، والصحيح أنها أول قرية في بلاد الرافدين ، إذ تبين من خلال الحفريات الأثرية في سورية وفلسطين والأناضول وإيران أن المريبط الواقعة على الفرات الأوسط في سورية تمثل أقدم موقع تم اكتشافه . مارس الإنسان فيه الزراعة ، ويعود تاريخه بحسب الفحم المشع إلى حوالي ٧٧٠٠ [٣] ق . م ، كما تبين أن الزراعة في المناطق المذكورة نشأت قبل أن يتحول الإنسان في بلاد الرافدين إلى الزراعة ، وتمثل مجتمعاتها جميعاً زمن النيوليت ماقبل الفخار الذي تميز بعمق الاستقرار وقيام القرى الثابتة التي مارس أهلها زراعة الحبوب وتدجين الحيوانات ، ففي أريحا التي تمثل موقعاً مميزاً إلى الشمال الغربي من البحر الميت ، وتنخفض حوالي ٢٠٠ م تحت سطح البحر وتشكل واحة وفيرة المياه في وسط جاف على

---

(٣) سلطان محيسن ، عصور ماقبل التاريخ ، ص٢٣٦ ، ٢٣٧، Klengel, Geschichte und Kultur Altsyriens 13.

مكتبة المهتدين الإسلامية

سفوح هضبة ترابية الأطراف اكتشف علماء الآثار مستوطنة ذات سور عريض ومرتفع يعلوه برج حجري ضخم يصل ارتفاعه إلى ثمانية أمتار ، ويحمي بيوتاً مبنية باللبن ذات شكل دائري . واتضح أن تاريخ القرية يعود إلى عام ٧٠٠٠ ق . م، وتبين من وجود بعض الأدوات الزراعيه البدائية ومن عدد البيوت أن الموقع يشير إلى مستوطنة زراعيه كانت تتكفل بإعالة حوالي ٢٠٠٠شخص(٤) ، كما كانت أوغاريت الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى الشمال من مدينة اللاذقية (السورية) محاطة بسور من الطين والجص(٥) مكسو بالحجارة ، وتحتل موقعاً مناسباً للزراعة البعلية ، ومثلها بعض المناطق في غربي الأناضول ووسط آسية الصغرى ، مثل : جاتال هويوك في النصف الثاني من الألف السابع قبل الميلاد حيث كان المزارعون يزرعون ١٤ صنفاً من النباتات ، بينها أنواع مختلفة من القمح والشعير والحمص ، ولايصل سكان الموقع إلى حوالي ٥٠٠٠ نسخة(٦).

أما مراحل التطور الواضح للحضاره في بلاد الرافدين فإنها بدأت في منتصف الألف السادس قبل الميلاد بالظهور وتبدت في مواقع يعتبرها العلماء نماذج لدرجات متفاوتة من الحضارة القروية، ولعل العثور على بعض اللقى المصنوعة من المعدن يشير إلى صلتها ببدايات مايسمى بالعصر الخالكوليثي الذي استخدم فيه الانسان الأدوات المصنوعة من النحاس إلى جانب الأدوات الحجرية .

وظهرت القرى في هذا الوقت في السهول المنبسطة أمام السلاسل الجبلية معتمدة على هطول الأمطار لإرواء حقولها الزراعية ، متجاوزة إطار مناطق النمو الطبيعي للحبوب البرية ، واستطاع الإنسان في الشرق الأدنى القديم في هذه المرحلة أن يستثمر أراضي جديدة بعد أن هيأها للزراعة استثماراً مكثفاً وهيأ

---

(٤) E. Anati, Palestine Before the Hebrews, S . 245 ; K. Kenyon, Digging up Jericho, Pl. 20-22; FW,2, S.25.

غولايف ، المدن الأولى ، ص ٣٤ .

(٥) Cl. F. A. Schaeffer, Ugaritica IV (1962), 157ff.

غولايف ، ص٣٣؛ الجديد حول الشرق القديم ، موسكو ١٩٨٨، ص٥٨-٦١.

(٦) غولايف ، ص٣٥ - ٣٦ .

http://www.al-maktabeh.com

لنفسه بيوتاً سكنية آمنة تتناسب ومتطلبات حياته الجديدة من الطين والحجارة والخشب ، وجهزها بالمواقد والأفران ، وصنع الأدوات الزراعية من الحجر والنحاس، والأدوات المنزلية من الحجر والفخار ، وأصبح الفخار والأواني الفخارية المادة الأساسية التي يفرق الباحثون من خلالها بين الحضارات وسوياتها لدى الشعوب منذ شيوع استعماله لدى مجتمعات ما قبل التاريخ الزراعية في بداية الألف السادس قبل الميلاد ، ويعتمدون على مواصفات الفخار من حيث الشكل و اللون والسماكة والزخارف في تحديد التاريخ التقريبي له ، ونتيجة لذلك يحددون تاريخ الموقع الأثري وطبقاته ، إضافة إلى اللقى الأخرى .

كما زاد الإنسان من المصادر الحياتية الضرورية عن طريق زراعة النباتات في غير مواطنها الطبيعية ، وتربية الحيوانات المتنوعة وتكثيرها . ووفر بعض أفراده في ظل هذا الاقتصاد الإنتاجي الوقت للتوجه إلى نشاط إنساني آخر ، بعد أن كان في ظل الاقتصاد القائم على القنص وجمع الثمار والتقاط الحبوب والنباتات الصالحة للطعام وصيد السمك بحاجة إلى وقت أكثر وإلى إسهام أفراد الجماعة كلهم للحصول على القوت. فظهرت حرف ومهن لم يكن الإنسان يعرفها. من مثل الرعي الذي رافق الزراعة منذ بداياتها، وصناعة أدوات الزراعة من فؤوس ومناجل ونسج الكتان وصناعة الأوانى الفخارية إلى جانب الأوانى الحجرية. وفي ظل أوقات الفرا غ التي يسرتها له ظروف الدورة الزراعيةوتنوع الحرف، وجد الإنسان الوقت ليفكر في تأمين وسائل أكثر لرفاهيته، وابتكار السبل للتمتع بالجمال، فبدأ الفن طفولته، فصنع الإنسان تماثيل صغيرة من المواد المتوافرة حوله، من طين وخشب وعظام وعاج مقلداً هيئة الإنسان والحيوان بشكل بدائي. وزين سطوح الفخار بالرسوم والزخارف الهندسية أو بأشكال مستمدة من البيئة التي يعيش فيها، وطلاه بألوان مختلفة، وصنع أدوات الزينة من قلادات وأساوروخواتم من الحجر أو العظام.

بدأ الإنسان في هذه الحقبة الأخيره من العصر الحجري الحديث المسماة بالعصر الحجري النحاسي(الخالكوليثي) في إثر الثورة الزراعية يقترب أكثر من عتبة الحضارة ، وبدأت خيوط التحضر تتوضح تدريجياً ، فظهرت حضارات متطورة في عدد من المواقع في بلاد الرافدين ومتميزة . وقد تعارف علماء الآثار على إطلاق اسم الموقع الأثري الأول الذي يقفون فيه على حضارة متميزة بأثرها في

مكتبة المهتدين الإسلامية

مسيرة الحضارة الإنسانية على كل مرحلة كبيرة من مراحل الحضارة الزراعية المبكرة في بلاد الرافدين . وهذه المواقع الأثريه التي ذاع اسمها هي :

حضارة حسونة :

ظهرت في بلاد الرافدين منذ مطلع النصف الثاني من الألف السادس قبل الميلاد قرى زراعية في المناطق الشمالية مهدت الطريق مباشرة أمام انبثاق الحضارة في المناطق الجنوبية التي أصبحت فيما تلا من عصور مركز الحضارة في الشرق الأدنى القديم ، ومحور تقدم الإنسان في تاريخه الحي .

وقد أفادت تلك القرى ومنها حسونة الواقعة جنوبي الموصل من الأمطار التي كانت كميتها كافية لزراعتها البعلية . وتبين أن سكان حسونة عاشوا على زراعة القمح والشعير والذرة ، وقاموا بتدجين الغنم والماعز والخنزير والبقر والكلاب واستخدمواالأدوات الحجرية في مجالات محدودة ، بينما توسعوا في استخدام الأواني الفخارية المتنوعة بعد حرقها في أفران كبيرة يعدها بعض العلماء من أهم سمات عصر حسونه(٧) . وقد مرت صناعة الفخار في حسونة بمرحلتين ، كان الفخار في المرحلة الأولى منهما خشناً وبسيطاً ، ثم تطور في المرحلة التالية إلى حال أفضل حيث ظهر أكثر زخرفة وتلويناً . وكان أهل حسونة يحفظون الحبوب في جرار من الطين غير المشوي مطمورة في الأرض حتى العنق ، ويخبزون الخبز في مواقد طينية تشبه التنانير العربية ، ويسكنون في بيوت من الطين تتشكل من غرف عدة موزعة على مبنيين حول باحة داخلية مكشوفة ، أحدهما للسكن والآخر مطبخ وغرف للمؤونة(٨) . أما الجدران فكانت مبنية من اللبن ، وكانت الأرضية مرصوفة بمزيج من الطين والتبن . وعرف سكان حسونة بنسج الكتان ، واستخدموا الأختام الحجرية المسطحة ذات الأشكال الهندسية .

---

(٧) سلطان محيسن ٣٠٣ .

(٨) غولايف ، المدن الأولى ٣٩ .

http://www.al-maktabeh.com

انتشرت مستوطنات الحضارة الحسونية في المناطق الواقعة بين جبل سنجار في الغرب والزاب والأصغر و الزاب الأكبر في الشرق والجنوب . وقد ينسب اليهم استخدام الأشكال المبكرة للري الاصطناعي ، إذ حجزوا مياه الفيضانات في سدود بدائية ، وشقوا أقنية صغيرة لإيصال المياه المحجوزة إلى الحقول القريبة ، كما ظهر من آثار تل الصوان القريبة من سامراء التي يعود تاريخها إلى حوالي ٥٦٠٠ ق . م [٩] . واكتشف كذلك في تل الصوان أضخم بنائين في بلاد الرافدين في الألف السادس قبل الميلاد ، خصص قسم من أحدهما للعبادة، إذ كان يحتوي على منحوتة من الألاباستر للإلهة الأم ، ويشير هذا إلى عبادة الخصب، كما عثر في المقابر على منحوتات كثيرة للنساء وللرجال ، وعلى خرز نحاسي ، وسكين نحاسية[١٠] . وقد استمرت هذه الحضارة حتى مطلع الألف الخامس قبل الميلاد . ويعتقد الباحثون أن ثمة صلة واضحة بين حضارة حسونه ومواقع سورية معاصره لها في أوغاريت وتل الجديدة وحماة وجبيل وتل سوكاس جنوبي اللاذقية [١١].

حضارة سامراء :

تتداخل في عشرات من المواقع الأثرية المنتشرة في شمال بلاد الرافدين آثار الحضارات التي تنسب إلى حسونة في الشمال ، وسامراء في الوسط ، وحلف الواقعة في الجزيرة العليا (في سورية اليوم) في الشمال الغربي ، منذ مطلع النصف الثاني للألف السادس قبل الميلاد لمعاصرة الواحدة منها للحضارتين الأخريين ، فقد بدأ ازدهار حضارة سامراء في الثلث الأخير من الألف السادس قبل الميلاد ، أي بعد فترة وجيزة من ظهور حضارة حسونة ، ولكنها غطت مساحة أوسع انتشاراً من حضارة حسونة إذ شملت المناطق الواقعة بين الموصل شمالاً إلى بغداد جنوباً ، وبين سفوح جبال زاجروس شرقاً وتل باغوز على نهر الفرات الأوسط (في سورية) غرباً . وكان موقعا تل الصوان القريب من سامراء وشوغا مامي الذي

---

(٩) المصدر السابق ٤٠ .

(١٠) المصدر السابق ذاته ٤١ .

(١١) Klengel, Geschichte u. Kultur 14.

مكتبة المهتدين الإسلامية

لايبعد كثيراً عن بغداد من جهة الشرق خير من يمثل هذه الحضارة في مواطن انتشارها الواسع . ومما يميز حضارة سامراء أن أهلها أقاموا في بيوت كبيرة من اللبن التي حصلوا عليها بوساطة القوالب الخشبية ، وهي قوالب عرفت للمرة الأولى في عصر هذه الحضارة(١٢) . وقام السكان بتحصين مستوطناتهم بأسوار سميكة كما بينت الآثار في تل الصوان وشوغامامي . وبنوا الأبراج الدفاعية كما يتضح من آثار شوغامامي . وطوروا صناعة الأواني الفخارية ، فظهرت أنواع جيدة ملونة ، وذات زخارف بأشكال هندسية متنوعة ، ومنها مايشبه شكل الصليب المعقوف ، ويحمل بعضها أشكالاً بشرية لنساء يرقصن وتتطاير شعورهن ، وأشكالاً حيوانية كالطيور والغزلان والماعز والأسماك ، وغيرها من الحيوانات التي عرفتها بيئتهم . وتبدو هذه الأشكال في معظمها قريبة من أشكالها الواقعية . وثبت للباحثين أن عملية الري الاصطناعي غدت معروفة في هذه المرحلة ، إذ أفادت بعض المواقع القريبة من المياه الجارية فاستجرت منها الماء لسقاية المزروعات بشق القنوات ، كما يتوضح من التقنيات التي جرت في شوغا مامي (شرقي بغداد اليوم) ، حيث زرع السكان القمح والشعير والكتان (١٣) ، وهو أمر دعت إليه الحاجة التي تطلع الإنسان إلى سدها وتحقيق الغاية المنشودة ، وهي الاستقرار الذي لايتم من دون تأمين القوت الأساسي بعد أن لاحظ أن اعتماده على الأمطار فيه كثير من المغامرة ، ويشتمل على إحساس عميق من القلق والخوف من المستقبل الغامض .

أشرف عصر سامراء الحضاري على نهايته في أواخر الألف السادس قبل الميلاد ، وانتهى معه العصر الحجري الحديث في بلاد الرافدين .

حضارة حلف :

عاصرت حضارة حلف الحضارتين السابقتين ، ولاسيما حضارة سامراء في المرحلة الأولى من مراحلها الثلاث بدءاً من النصف الثاني من الألف السادس قبل الميلاد ، واستمرتا في مطلع العصر الكالكوليتي الذي بدأ استخدام النحاس فيه

---

(١٢) سلطان محيسن ٣٠٥

(١٣) المصدر السابق ٣٠٧ .

http://www.al-maktabeh.com

يتزايد ولاسيما المطروق منه في صنع بعض الأدوات الصغيرة الى جانب الحجر الذي استمرت المجتمعات الزراعية في استعماله على نطاق أوسع حتى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد . وقد توصل الإنسان في هذا العصر إلى ابتكارات حضارية هامة في مناطق شمال بلاد الرافدين ، كما رأينا من خلال الحديث عن حضارتي جرمو وحسونة وسامراء . أما حلف التي تقع في الجزيرة العليا السورية عند رأس العين على نهر الخابور وعلى الحدود بين سورية وتركية(اليوم) ، والتي عثر عالم الآثار الألماني ماكس فون أوبنهايم قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها على آثارها في مطلع هذا القرن تحت أنقاض حاضرة مملكة جوزانا الآرامية فإنها كانت أكبر أثراً في حضارة الشرق الأدنى القديم ، إذ كانت أول حضارة متجانسة انتشرت آثارها من شمال وشرقي بلاد الرافدين شرقاً إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط غرباً ، ومن الأناضول شمالاً إلى البقاع في لبنان جنوباً ، واستمر وجودها حوالي ألف سنة ، أي منذ منتصف الألف السادس إلى منتصف الألف الخامس قبل الميلاد ، وحلت محل الحضارة الزراعية المبكرة في شمال بلاد الرافدين وتتميز بفخارها ذي السطوح المصقولة الذي وصل إلى «ذرى لم يتسنّ التوصل إليها بعد ذلك في مابين النهرين ولا في المناطق المجاورة من حيث الصناعة الدقيقة المتقنة (١٤)».

وقد بلغت منتوجات تل حلف الفخارية الملونة أرمينية وكيليكية خارج مناطق انتشارها الأساسية. وظهر في هذه الحضارة نوع راقٍ من الخزف الملون (باللون الأحمر والأسود والبني ومشتقات هذه الألوان إلى جانب الأبيض) كالذي كان يكتسب بعد شيه في درجة عالية من الحرارة لمعاناً أخاذاً ، وصنعت منه الأواني المختلفة من جرار وقدور وأطباق وكؤوس وصحاف مزخرفة بأشكال هندسية نباتية وحيوانية ولاسيما بأشكال الطيور والأسماك ورأس الثور المقدس ، وكذلك بأشكال بشرية ولاسيما بهيئات النساء ، ويحمل بعضها شكل مايسمى بصليب مالطة (مايشبه الورده ذات الأوراق الاربع) ، حتى أطلق علماء الآثار على الفاخر منها

---

(١٤) غولايف ٤٣.

مكتبة المهتدين الإسلامية

لرقته وصف قشرة البيض . ويبدو من العدد الهائل للقطع التي عثر عليها من الأواني المختلفة أنها كانت تصنع في ورشات يدوية كبيرة بغرض التجارة والتبادل مع مواد يحتاجها الأهالي كالأوبسيديان (السبج) ، وهو نوع من الحجر الزجاجي الأسود الذي كان يستورد من مناطق بحيرة فان(شرقي تركية اليوم) .

وثمة مواقع تمثلت فيها حضارة حلف بوضوح ، ومنها تل العربجية الواقع إلى الشمال من نينوى والذي يعد نموذجاً لهذه الحضارة ، وقد ظهرت في هذه الموقع الشوارع مرصوفة ، والبيوت كبيرة ، ويبرز من بينها بيوت طينية ذات شكل دائري وسقف مقبب تشبه خلايا النحل ، ذات مدخل مربع الشكل ، يذكر ببيوت بعض القرى في شمالي سورية اليوم . وقد قدمت لنا التصاوير الآشورية التي تعود إلى العصر الآشوري الحديث أشكالاً تشبهها . ويبدو لنا من خلال هذه الأمثلة وغيرها أن بلاد الرافدين عرفت هذا النوع من البيوت منذ بدأ الإنسان القديم في هذه المناطق يبني بيوته (١٥) . ثم حلت محلها في المرحلة الأخيرة بيوت كبيرة مستطيلة الشكل كان بعضها ذا وظيفة دينية ، كما في ياريم تبة في وادي سنجار . عاش أصحاب هذه الحضاره من زراعة القمح والشعير والكتان والقنب ، وطوروا تربية الغنم والماعز والبقر والكلاب والخنزير ، واصطادوا الغزال والحمار الوحشي والثور البري ، وصنعوا أدواتهم من الحجر والصوان والأوبسيديان المستورد ، واستخدموا كذلك الأختام المسطحة الحجرية ، والمعادن ، من رصاص ونحاس ، في صناعة أدوات الزينة والأودات البسيطة . ومثلوا «الربة الأم» بهيئات فيها الكثير من المبالغة بإبراز صفاتها الأنثوية وهي تجلس مشبوكة الذراعين (١٦) تأكيداً ، كما يبدو لنا ، على عبادة الخصب التي اتخذت شكلها النهائي في هذه المرحلة .

حضارة العُبَيْد :

تأخر جنوب بلاد الرافدين في الظهور على مسرح الحضارة ، فلم تظهرالمستوطنات الزراعية إلا في أثناء العصر الكالكوليتي (الحجري النحاسي)

---

(١٥) FW, 28.

(١٦) المصدر السابق ٢٨

http://www.al-maktabeh.com



وعندما كانت حضارة حلف قد بلغت قمة ازدهارها للأسباب التي نوهنابها لدى حديثنا عن فجر الحضارة في بلاد الرافدين . ولعل الرعاة سكنوا تلك الأنحاء من قبل ، إلا أن مناطق جنوب بلاد الرافدين ، وهي التي تدعى اصطلاحاً «بلاد بابل» بقسميها« أكد في الشمال»وسومر» في الجنوب تصدرت بسرعة مذهلة مناطق الشرق الأدنى القديم بحضارتها وتفوقها على الحضارات السابقة والمعاصرة ، واحتلت منزلة رفيعة بين حضارات العالم حتى صارت بابل ، أي المناطق الواقعة في جنوب بلاد الرافدين ، وجنوبي العراق على وجه الخصوص ، أكثر الحضارات تأثيراً في تاريخ الشرق والغرب في كثير من المعتقدات والعلوم والأدب .

ولم تنشأ حضارة الجنوب بمعزل عن حضارات الشمال ، بل كانت امتداداً لها وتطويراً لفعالياتها ، فأنتقل مركز الثقل الحضاري من الشمال الى الجنوب ورجحت كفة الجنوب حيث كان على إنسانه أن يعتمد على ذكائه وجهده الكبير ليعوض نقص الأمطار في منطقته لسقاية مزروعاته ، وكي ينظم مجرى النهرين العظيمين ، دجلة والفرات ، والإفادة من مياههما بدلاً من الخوف من طوفانهما الرهيب ولاسيما في فصل الربيع عند ذوبان ثلوج هضبة أرمينية حيث ينبع النهران . فتوصل إلى حفر الأقنية وبناء السدود البسيطة التنظيمية ، واعتمد بذلك مبدأ الزراعة المروية وتخلى نهائياً عن الزراعة البعلية . وتطلب ذلك إدارة خاصة وتنظيماً إجتماعياً أدى إلى ظهور القرى الكبيرة التي تجمعت حول المعابد الدينية . ثم مالبثت هذه القرى أن غدت بلدات في الفترة اللاحقة ومدناً تديرها أنظمة سياسية لاحقة .

ظهرت حضارة العبيد التي سميت آثارها الأولى نسبة إلى موقع قريب من أور(المقير حالياً) في جنوبي العراق في مطلع الألف الخامس قبل الميلاد في الوقت الذي كانت فيه حضارة حلف تدخل في مرحلتها الثالثة والأخيرة واستمرت آثارها حوالي ألف سنة (٥٠٠٠ – ٣١٠٠ق .م) .

وتعد حضارتها أوسع الحضارات في تاريخ الشرق الأدنى القديم انتشاراً ، إذ امتدت آثارها من سواحل البحر الأبيض المتوسط غرباً إلى جبال زاغروس شرقاً

مكتبة المهتدين الإسلامية

. وشملت المناطق الشمالية والجنوبية من بلاد الرافدين وحتى البحرين جنوباً لأول مرة في تاريخ هذه المناطق إلى جانب منطقة جنوب غربي إيران حيث كانت عيلام .

اعتقد الباحثون أن أصحاب حضارة العبيد في جنوبي بلاد الرافدين هم أقدم من سكن تلك المنطقة ، ثم تبين أن مجتمعات أقدم كانت تستوطنها وتعود آثارها الى العصر الحجري الحديث ، ويدل على ذلك معرفة العبيديين للزراعة والفخار وتدجين الحيوانات ، الأمر الذي لابد أن يكون قد قدمت له مرحلة سابقة أوصلتهم الى المرحلة التي عرفوا بها . ويبدو من دراسة أسماء بعض المدن الرافدية القديمة التي تعود إلى زمن العبيد من مثل إريدو ، ولجش وأور ونيبورأنها ليست سومرية ، وهي كذلك ليست سامية ، بل لابد أن تكون من لغة السكان المقيمين زمن العبيد . وربما استعار السومريون لاحقاً ألفاظاً هامة من تلك اللغة تدل على معاني: فلاح ، راع ، محراث ، نساج ونجار ، وكذلك اسما دجلة والفرات(إدقلات - بورانون) ليسا سومريين أو ساميين [١٧] .

وقد مرت حضارة العبيد بعدة مراحل ، تتمثل أقدمها بآثار إريدو(أبي شهرين حالياً) الواقعة إلى الجنوب من أور ، ثم في حجي محمد الواقعة قرب أوروك وإلى الشمال من العبيدة. واستطاعت حضارة العبيد أن تضع حداً للدور الحضاري الرائد لشمال بلاد الرافدين في منتصف الألف الخامس قبل الميلاد ، وأن تصل بتأثيرها الفاعل إلى الشمال نفسه حيث قامت الزراعة البعلية وبنى أهلها البيوت الحجرية ودجنوا الماعز والغنم ، بينما استخدموا في الجنوب مواد الطين والقصب واللبن في البناء ، ودجنوا البقر ، وكانوا يعيشون من زراعة الحبوب كالحنطة الرومية والشعير والكتان والسمسم والنخيل ، ويربون الغنم والماعز والخنازير والحمير إلى جانب البقر ، كما ذكرنا ، إلى جانب اعتمادهم على الصيد البري وصيد السمك ، وقيامهم بأعمال البستنة .

---

(١٧) عيدمرعي ، التاريخ القديم ٢١ ؛ محمد حرب فرزات - عيد مرعي ، دول وحضارات في الشرق العربي القديم ، ص ٧٥ ؛ عبدالعزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ٤٤٧ ، طه باقر ٧٥ ، وانظر فصل السكان ، هامش ٩ من هذا الكتاب.

http://www.al-maktabeh.com

وتبين للباحثين أن العبيديين استطاعوا تحسين صنف الشعير الذي كان يزرع في المناطق الجبلية و المناطق القريبة منها من «الهلال الخصيب» والذي كانت حباته تنتظم على صفين ، فحصلوا على صنف تتألف سنبلته من ستة صفوف ، وقد انتقل من هناك في وقت لاحق إلى أنحاء العالم المختلفة ، كما توصلوا إلى بذور من الكتان أكبر مما كانت عليه في المناطق الأخرى ، مما أدى إلى إنتاج أكثر من الزيت والألياف . وقد ساعد على هذا التطوير المدهش تربة الجنوب الخصبة والري الاصطناعي . ونشأت الحرف المختلفة إلى جانب الزراعة . واستطاع العبيديون إنتاج الخزف الملون ذي اللون المائل غالباً إلى الخضرة بسبب الشي الشديد في أفران خاصة ذات طابقين ، وتوصلوا إلى استخدام عجلة الفاخوري التي ساعدتهم على كميات أكبر من الأدوات الفخارية التي مالت في المرحلة الأخيرة من حضارة العبيد الى البساطة في زخارفها والوانها ، ولكنها أبدت اشكالاً أكثر من ذي قبل .

ومن إنجازات حضارة العبيد في ميدان العمارة بناء معبد إريدو الذي يعد نموذجاً للمعابد الرافدية في الأزمنة التالية ، ودليلاً على ظهور السلطة الدينية بشكلها المنظم الذي عبرت عنه ببناء متميز من اللبن الطويل ، يقوم على ثلاثة أقسام تتوسطها قاعة كبيرة لممارسة الطقوس ، فيها محراب ومذبح لتقديم القرابين ، وعلى جانبي المركز جناحان يستخدمهما الكهنة وخدم المعبد للسكن وتخزين المؤن وحاجيات المعبد[١٨] . وكانت مدينة إريدو مقراً للإله إنكي ، إله المياه العذبة ، لذلك عثر في مكان المعبد المذكور على آثار لسبعة عشر معبداً تعاقبت عليه ، كان آخرها من بناء ملوك السلالة الثالثة في أور حوالي عام ٢٠٥٠ ق . م ، والذي اتخذ شكل الزقورة المعروفة ، أي المعبد المبني على مسطحات متدرجة [١٩].

واستفاد أصحاب حضارة العبيد من خبرتهم في صناعة الفخار وأشكاله المتنوعة فصنعوا منه القوالب أيضاً للحصول على الأدوات المعدنية (النحاسية) ، على الرغم من أن المعدن كان نادراً في الجنوب ، ويدل ذلك على قيام التجارة وتبادل

---

(١٨) غولايف ٤٧ – ٤٨ ، سلطان محيسن ، ٣٣ .

(١٩) FW, 2, S. 33-34.

مكتبة المهتدين الإسلامية

البضائع بين مناطق الجنوب الرافدي وجيرانها ، فقد تبين أن أصنافاً مختلفة من المواد والبضائع الغريبة على المنطقة كانت تصل اليها كالأوبسيديان من هضبة أرمينية ، والسليكون من سورية ، والخشب وبعض أصناف الحجارة الصلبة من زاغروس ، واللازورد من أفغانستان [٢٠] ، والإسفلت من مناطق الفرات الوسطى وكان ضرورياً للصق القطع المصنعة ، ولاسيما في بناء السفن ، وربما كان يجلب أيضاً من المناطق الواقعة اليوم عند حقول النفط في كركوك أو الموصل .

وقد عثر على نموذج لزورق شراعي من الآجر في أحد القبور في العبيد ، مما يؤكد انفتاح العبيديين على مناطق سواحل الخليج العربي ، وكان هؤلاء يصدرون الحبوب في المقام الأول ولاسيما الشعير ذا الصفوف الستة الذي كان من اكثر البضائع التجارية رواجاً وكان الإقبال على مبادلته كبيراً ، وربما كان الملح والتمور من المواد الغذائية التي كان سكان بلاد الرافدين الجنوبيون يستفيدون من مبادلتها ، إلى جانب الأنسجة والخزف طبعاً[٢١].

وربما يستخلص من وجود الأواني الفخاريه في قبور العبيديين ، ووجود نماذج الزورق الشراعي ، الذي ورد ذكره ، على اعتقاد بالحياة بعد الموت وبمتابعة العمل بالحرفة التي كان صاحب القبر يقوم بها في حياته [٢٢] .

وظهرت في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد نهضة عمرانية في جنوبي بلاد الرافدين ، بدت معالمها تتضح من خلال بناء المعابد المتعددة التي غدت مراكز رئيسية للنشاط الديني والاقتصادي والاجتماعي المنظم ، بعد أن اتسعت مساحة الأراضي ، وازداد سكان المستوطنات في نهاية الحقبة العبيدية وتحولت إلى مدن صغيرة حول معابدها ، وأخذ المعبد دور القائد الاقتصادي والسياسي في هذه المرحلة ، حيث كانت عشرات المستوطنات والقرى ترتبط بالمدينة وبمعبدها اقتصادياً وإدارياً ، إلى أن ظهر الحاكم الكاهن في فترة لاحقة . وتتمثل هذه التطورات الحضارية بمختلف فعالياتها في أوروك .

---

(٢٠) غولايف ٥١ .

(٢١) FW, 2, 34.

(٢٢) FW, 36; Lloyd and Safar, Ericdu, in.: Sumer, Vol IV, Baghdad 1948, p. 118.

http://www.al-maktabeh.com



حضارة أوروك (الوركاء) :

تعد أوروك(الوركاء حالياً) واحدة من أقدم المدن السومرية ، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بعبادة آنو (إله السماء) ، وإنانا(عشتار في النصوص البابلية ، إلهة الحب والخصب) . ويعود تاريخ المدينة الفاعل إلى زمن يعقب زمن العبيد مباشرة ، إلا أنها ظهرت نتيجة لتجمع استيطاني زراعي منذ أواخر الألف الخامس قبل الميلاد حوالي ٤١١٥ ق . م($\pm$ ١٦٠) [٢٣] حسب بيان الفحم المشع C^{14} . كما تبين للبعثة الأثرية الألمانيه التي بدأت التنقيب فيها منذ عام١٩١٢م ، فقد طرأ تغير أساسي في صناعة الفخار إذ غاب اللون المائل إلى الأخضر الذي يميز فخار العبيد والزخارف المعروفة، وحل محله فخار عادي ذو لون رمادي ، أو أحمر ، مزخرف بطريقة الحز أو التمشيط ، أنتجه صناع محترفون على العجلة السريعة. ويتمثل تاريخ أوروك المبكر بالمواد المكتشفة في معابدها الأولى ، ويبرز من بينها في المنطقة التي ارتفعت فيها زقورة آنو مبنى فخم دعي«المعبد الأبيض» لأن أرضه من الكلس الأبيض ، وينتصب هذا المعبد على مصطبة عالية من اللبن ، وتؤدي إليه درجات سلالم ، وذو مساحة واسعة (٥ ، ١٧×٣ ، ٢٢م) ولايحيد عن نموذج ثلاثي الأقسام السائد والمعروف من إريدو .

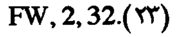
وقد أصبح هذا المعبد نموذجاً للمعابد السومرية اللاحقة بمقاييسه وتفاصيله، ويقدر الباحثون أن بناءه كان يتطلب عمل حوالي ٧٥٠٠ إنسان لمدة عام كامل[٢٤] . وثمة معابد أخرى في المدينة منها«المعبد الكلسي» و«المعبدذو الأعمدة» في قطاع الإلهة إنانا ، ودعي الأول نسبة إلى مصطبته التي شيدت من الأحجار الكلسية ، وبلغت مساحته(٧٦×٣٠م) . أما الثاني فتميز برواق ذي أعمدة من اللبن المطلية بالطين ، وبمسامير طينية ملونة بالأسود والأحمر تزين إحدى الواجهات فتبدو كالموازييك .



---

(٢٣) FW, 2, 32.

(٢٤) غولايف ٥ ؛ عبدالعزيز صالح ٤٤٣.



وتطورت كذلك الفنون في الوركاء (التي كان يقدر عدد سكانها في تلك الفترة بحوالي عشرة آلاف نسمة يعيشون في مساحة تقدر بثمانين هكتاراً) ، ولاسيما مايتصل بالتماثيل التي كانت تجسد الآلهة أو المتعبدين ، وتنوعت أشكال الأواني الحجرية ومنها مزهرية ضخمة بلغ طولها قرابة المتر ، وقد صور عليها موكب خدم يحملون الهدايا إلى الإله أو الحاكم بطريقة النقش النافر . كما انتشرت الأدوات النحاسية وأدوات الزينة..

ومن إنجازات حضارة الوركاء البارزة الأختام الأسطوانية التي يدل ظهورها على تطور العلاقات التجارية وزيادة الإنتاج الزراعي والحيواني والحرفي. وقد أصبحت نقوشها أهم ما يصور رقي حضارة الوركاء إذ استغلها الصناع لنقش المناظر الدينية والأسطورية والزخارف الأخرى على سطوحها [٢٥].

وغدت هذه الأختام التي صنّفها المختصون في أربعة مجموعات ذات دلالة تاريخية وحضارية نستخلصها من النظر إلى مضمون نقوشها وإلى أسلوب تكوينها ومدى انتشارها .

فالمجموعة الأولى منها تمثل أختاماً كبيرة حرص صانعها على نقشها بأشكال بارزة، فظهرت عليها مناظر طقسية أمام المعابد، ورحلات ذات دلالة دينية بالقوارب ، كماصورت عليها مناظر حربية ، ومشاهد للصيد ، أو صراع مع الحيوانات ، وصراع الحيوانات فيما بينها . وكانت شخصية الحاكم أهم مانقشه الصناع على الأختام الأسطوانية إذ يبدو بحجم كبير وهو يرتدي رداء خاصاً ويعقد شعره برباط ، وذالحية ، سواء كان في حفل ديني أو في مناسبات أخرى . وقد انتشر هذا الصنف من الاختام الأسطوانية في أوروك حيث كانت له الغلبة ، بينما قلت أعداده في الشمال . وتتميز المجموعة الثانية بأشكال لحيوانات أسطورية مثل الافاعي ، أو كائنات خرافية متناظرة وذات رقاب طويلة تلتف حول بعضها ، وكانت هذه الأختام تستخدم في أوروك نفسها أيضاً .ثم كان صنف ثالث من الأختام

---

(٢٥) عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ٤٣٩-٤٤١.

http://www.al-maktabeh.com

الأسطوانية ينتشر في منطقة الديالى وشمالي أوروك ، ويتسم بحجم صغير ورسوم لحيوانات مختلفة ، من بينها الأسماك ، وغيرها من الأشكال التي تمثل مخلوقات رمز إليها بخطوط بسيطة تعد أقل شأناً في صناعتها .أما النوع الرابع من الأختام الأسطوانية فكان انتشاره في مناطق النوع السابق ، وقد ظهر في الفترة الأخيرة من زمن أوروك ، وتبدو عليه زخارف تزيينية من مثل النباتات ذات الأوراق المربعة وشكل صليب مالطه (٢٦) .

كانت الأختام الأولى تصنع من مواد يسهل قطعها والتحكم في نقشها كالكلس والعظم والخشب ، وتستخدم في المقام الأول لختم الأواني ذات المحتوى الثمين بسدادة من الطين حتى لايفتحها غير صاحب العلاقة . ثم صارت تستعمل لختم الألواح الطينية المكتوبة (الرقم) .

ولعل أهم إنجاز عرفه عصر حضارة أوروك في بلاد الرافدين هو اختراع الكتابة الذي وضع حداً فاصلاً بين العصور السابقة التي عرفت باسم عصور ماقبل التاريخ والعصور التاريخية اللاحقة . وقد ظهرت العلامات الكتابية الأولى في بلاد الرافدين في الوركاء(الطبقة ٤، أ) في العراق ، وفي تل براك وحبوبه وعروة في سورية في الثلث الأخير من الألف الرابع قبل الميلاد . ويعد عالم الدراسات السومرية الألماني آدم فالكنشتاين أول من نشر تلك الصور البدائية للرقم الطينية(في منتصف الثلاثينات) التي عثر عليها في أثناء حفريات مدينة أوروك القديمة ومستوطنة جمدة نصر ، والتي أعاد تاريخها إلى القرن ٣١ ق . م (٢٧) .

حضارة جمدة نصر :

تعد جمدة نصر التي تقع بين بغداد وبابل ، وقرب أطلال كيش السومرية ،

---

(٢٦) FW, 2, 43-44

(٢٧) الجديد حول الشرق القديم، ٩٣-٩٤؛ وانظر كتابنا : الابجدية ، نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب، ص٣٨ . A. Falkenstein, Archaische Texte aus, Uruk. Leipzig 1936;

مكتبة المهتدين الإسلامية

ممثلة لحضارة الحقبة الأخيرة من عصور ماقبل التاريخ ، والحلقة الأخيرة في سلسلة الحضارات الرافدية في فجر التاريخ. وقد ظهرت في الفترة الزمنية الواقعة بين ٣٠٠٠ - ٢٩٠٠ قبل الميلاد ، وكانت امتداداً لحضارة الوركاء ، إذ احتفظت من حيث جوهرها بسماتها الأساسية المتصلة بصناعة الفخار ، وبالعمارة وبالفنون المختلفة . إلا أن بعض الانتعاش دب في زخرفة المنتجات الفخارية ، وصناعة المزهريات الحجرية التي طعمت بالأحجار الملونة واللؤلؤ بعد أن طال زمن الفخار الباهت ورتابة زخارفه في عصر الوركاء الطويل . وظهرت في جمدة نصر نفسها أبنية مدنية كبيرة مثالاً للقصور الأولى التي شيدت في فترة لاحقة . وبنيت كذلك معابد متشابهة في مواقع مختلفة من بلاد الرافدين كانت تحمل طابعاً عمرانياً واحداً في تلك الفترة وتؤكد الوحدة الحضارية بين مختلف مناطق بلاد الرافدين ، فقد اكتشفت معابد هامة في عقير وخفاجي (في العراق) وتل براك (في الجزيرة السورية) مبنية بالأسلوب المعماري نفسه ، وذات جدران مزدانة من الداخل برسوم هندسية وأشكال حيوانية وإنسانية ، بما في ذلك الموزاييك الذي يتكون من الأشكال المخروطية الفخارية .

وزاد استخدام الأدوات المعدنية المصنوعة من النحاس والقصدير ، وأدوات الزينة المصاغة من الفضة والذهب ، وساد استخدام الأختام الأسطوانية التي حلت محل الأختام المسطحة التي قل وجودها من قبل ، وغدت رسومها تمثل موضوعات أكثر من الفترة السابقة ، وصارت تحمل صور الآلهة الرئيسة والحكام .

كما خطت الكتابة التصويرية الأولى خطوات الى الأمام فصارت الرموز تدل على مقطع صوتي إلى جانب دلالتها على كلمة كاملة . وكثر عدد المدن في الجنوب الرافدي ، بحيث بلغ عددها عشرين أو اثنتي عشرة ، بعد أن ازداد عدد السكان نتيجة لنمو المستوطنات وتركز السكان حول مركز العبادة ، ومن بينها كيش (الأحيمر) وأوروك(الوركاء) وإريدو(أبو شهرين) ، ولجش (الهباء) ، وشوروباك (فارا) ، ونيبور (نفر) ، وأور(المقير) ، وأوما(تل جوخة) وإشنونا (تل أسمر اليوم الواقع على نهر الديالى) .

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الثالث

مصادر تاريخ بلاد مابين النهرين

بدأ اهتمام الغرب بتاريخ الشرق الأدنى القديم منذ احتك الإغريق بالشرق أيام الحروب الفارسية -الإغريقية في الأعوام الواقعة بين ٤٩٠ - ٤٧٩ قبل الميلاد ، ثم زمن الاسكندر المقدوني وخلفائه ، وعندما توسعت الامبراطورية الرومانية وضمت أجزاء كبيرة من الشرق الأدنى وشمالي أفريقية . وقد حدث ذلك بعد أن كانت حضارة الشرق الأدنى القديمة قد قاربت على الأفول وشرعت مراكزها الأساسية تغيب عن الأبصار وتغدو أطلالاً تحت التلال المنتشرة في بقاع مختلفة من بلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر . ثم جاء وقت لم يبق منها في الذاكرة سوى أصداء أسطورية لما جاء في بعض أسفار العهد القديم اليهودية كبناء بابل وبرجها وسقوط نينوى وبابل ، وابتلاء فرعون مصر وغرقه عندما لاحق بني إسرائيل ، وأحاديث عن الآراميين والفينيقيين مما له صلة باليهود أنفسهم . ولما نشبت الحروب الصليبية عاد اهتمام الغربيين بالشرق من جديد ، ولكن الاهتمام الجدي بدأ في القرن السابع عشر عندما جذبت بقايا آثار العاصمة الفارسية القديمة پرسيپوليس (جمشيد اليوم) اهتمام الرحالة الأوروبيين ومنهم الإيطالي پترو دولاڤاله الذي تحدث بعد عودته من رحلته إلى الشرق عن كتابات غريبة سميت نسبة إلى شكلها «الكتابة المسمارية» . فتحمست المؤسسات العلمية في بعض الأقطار الأوروبية لمعرفة هذه الكتابة وتلك الآثار. فأرسل ملك الدنمارك بعثة علمية لتجمع المعلومات عن بلاد الرافدين . وفي عام ١٧٦٥ نسخ كارستن نيبور Niebuhr أحد أعضاء البعثة بدقة وأمانة ما وجده من نصوص على قصور پرسيپوليس العائدة للملكي الأخمينيين (الفرس) داريوس وإبنه إكسركسس المسمى (أحشويرش عند العرب) وقد تبين أن الكتابات المسمارية تلك كانت ذات أنواع ثلاثة مختلفة من حيث الشكل . فقد كانت باللغة الفارسية القديمة ، وباللغة العيلامية ، وباللغة الأكدية. ثم توصل بعد لأي

مكتبة المهتدين الإسلامية

العالم الألماني جروتفند Grotefend إلى فك طلاسم جزء كبير من الكتابة الفارسية القديمة ، وتمت بذلك الخطوة الأولى باتجاه الوقوف المباشر على تراث الشرق الكتابي ، وقراءة النصوص الأصلية التي تمثل المصادر الموثوقة لحضارة الشرق وتاريخه القديم ، إذ لم يأت عام١٨٥٧م ، حتى كانت مشكلة قراءة الكتابات المسمارية قد وجدت سبيلها الى الحل بعد أن قيض لها من العلماء من مثل : الانكليزي رولنسون الذي نسخ في عام ١٨٥٣م أطول كتابة مسمارية تخص الملك الأخميني داريوس نفسه عرفت باسم نقش بيهستون تبين أنه مكتوب باللغات الثلاث مثل نقش برسيبوليس ، ونجح في ترجمة النص الفارسي في عام ١٨٤٦ ، ثم تكللت جهود عدد من العلماء ، ومنهم الإيرلندي هنيكس والفرنسي أوبرت والانجليزي تالبوت ، بالنجاح التام وانفتحت الأبواب أمام اللغويين والمؤرخين لقراءة تاريخ المنطقة من مظانه الأصليه [١] .

وقد حفز ذلك النجاح الباحثين إلى التنقيب عن المزيد من الرقم الطينية والكتابات المسمارية والكشف عن آثار المدن القديمة .

١ - الآثار :

أدت محاولات اللغويين الجادة لفهم العلامات المسمارية التي وصلت إليهم عن طريق الرحالة الأوربيين إلى توجة بعثات أثرية عديدة في منتصف القرن التاسع عشر إلى حواضر المملكة الآشورية . نمرود(كالخ القديمة) ، وخورزآباد(دورشروكين قديماً) ، ونينوى (بالقرب من مدينة الموصل اليوم) . وكان عالم الآثار الفرنسي بوتا Botta سباقاً إلى الكشف عن آثارالشرق الأدنى القديم حين وفق إلى العثور على قصر الملك الآشوري المشهور شروكين الثاني (سرجون الثاني ٧٢٢-٧٠٥ ق .م) في عاصمته دور شروكين عام ١٨٤٣م . وتبعه بعد ذلك الانكليزي لايارد Layard عام ١٨٤٥ الذي كشف آثار العاصمتين الآشوريتين كالخ ونينوى .

وكان عمل هذين العالمين بداية لحملات لاحقة كثيرة قام بها علماء الآثار للكشف عن آثار حضارة شعوب المنطقة ، وقد شارك في ذلك لاحقاً عدد من العلماء العرب المختصين. وكان اكتشاف مكتبة آشور بانيبال (٦٦٩ -٦٢٧ ق .م)

---

(١) للاطلاع على مزيد من التفاصيل إرجع إلى كتابنا : الأبجدية ، نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب ص٤٧ومابعد .

http://www.al-maktabeh.com

التي تضم آلافاعدة من الرقم والتي كان آخر ملوك الآشوريين الكبار قد عمل على جمعها في نينوى بكل ماأوتي من جهد، وهي تمثل في موضوعاتها نتاج البابليين والآشوريين إضافة إلى نتاج السومريين القدماء الأدبي والديني ، كان اكتشاف هذه المكتبة كسباً لايقدر بثمن لعلوم الآشوريات ASSYRIOLOGY، كما يدعى العلم الخاص ببلاد الرافدين وحضارتها . وتوالت عمليات التنقيب في كل مكان من بلاد الرافدين وامتدت إلى الجنوب حيث قام العالم الفرنسي سارزيك de Sarzec بدءاً من عام ١٨٧٧ بالتنقيب في موقع تللو (جيرسو - لجش القديمة) فعثر على أولى اللقى السومرية ، ومنها تمثال حاكمها المعروف جوديا (حوالي ٢١٤٣ -٢١٢٤ ق.م) وأقدم وأطول نصين أدبيين عثر عليهما منقوشين على أسطوانتين على الأرض البابلية [٢] .

وقد أتاح العثور على هذين الأثرين الكتابيين فرصة التعرف على اللغة السومرية من خلال نصوصها الأصلية الأولى. كما قام العلماء الأمريكان في موقع نفر (نيبور القديمة) منذ عام ١٨٨٩ بأبحاث في أحد المقرات السكنية التي يرقى تاريخها إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد فوجدوا أكبر مجموعة من النصوص السومرية الأدبية عثر عليها حتى الآن، إضافة إلى زقورة ومَعبد إنليل ومعبد للإله إنانا . وانضم الألمان إلى قافلة المنقبين عن الآثار في بلاد الرافدين منذ عام ١٨٩٩ ، برئاسة كولدفي R. Koldewey الذي انصرف إلى العمل في موقع بابل، عاصمة البلاد في عصرها الذهبي في أثناء حكم حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م) وعاصمتها الروحية لقرون طويلة. وكشف عن بعض إنشاءات الملك الكلداني نبوخذ نصر العمرانية فيها (٦٠٥-٥٦٢ق.م)، وأزال الأنقاض المتراكمة على «شارع المواكب» و «بوابة عشتار» التي مازال جزء منها يُعرض في متاحف الدولة في برلين الشرقية. وقام فريق آخر بالكشف عن آثار العاصمة آشور (موقع قلعة الشرقاط حالياً) برئاسة أندريه W. Andrae بدءاً من عام ١٩٠٣ . ثم تبع ذلك العمل في عام ١٩١٣ في موقع الوركاء (أوروك القديمة) التي تعد أكبر المواقع الأثرية في جنوبي بلاد الرافدين بإشراف جوردان J. Jordain وفي تل حلف عند بلدة رأس العين في

---

(٢) A. Falkenstein, in FW, 2, 14.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الجزيرة السورية في عام ١٩١١، حيث قام فون أوبنهايم بالحفريات وعثر على آثار لحضارة تل حلف القديمة إضافة إلى أطلال قصر ملك آرامي من القرن العاشر. وجرت حفريات في موقع المقيّر (أور القديمة) بإشراف الإنكليزي وولي L. Wooley في الاعوام ١٩٢٢-١٩٣٤ كانت نتيجتها العثور على المقبرة الملكية التي يعود تاريخها إلى حوالي ٢٤٥٠ق.م، وحفريات فرنسية في موقع تل الحريري (ماري القديمة) بإشراف بارو A. Parrot منذ عام ١٩٣٣ أدت إلى اكتشافات عدة، كان القصر الملكي بمحفوظاته ذات الرقم التي تعد حوالي (٢٠) ألفاً وتعود إلى النصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وكذلك معبد الإلهة عشتار من أهمها. واكتشف الأمريكي وايس H. Weiss في عام ١٩٨٧ في موقع تل ليلان قرب الحسكة السورية مدينة شوبات إنليل القديمة . وكانت عمليات التنقيب عن آثار بلاد الرافدين قد جرت في اكثر من موقع من مثل : فارا(شورباك القديمة) ١٩٠٢، وتل الأحيمر (كيش القديمة)، والعبيد ١٩١٩، ونوزي ١٩٢٥، وإشنونا ١٩٣٠ولارسا ١٩٣٣، والعقير، ودور كور يجالزو ١٩٤٢، وحسونة ١٩٤٣وغيرها من المواقع الأثرية الأخرى بحيث شملت عمليات التنقيب معظم حواضر دول بلاد الرافدين القديمة ، ولكنها مازالت قاصرة عن العثور على كل مواقع تلك الحواضر والمدن ، إذ أن تلالاً كثيرة مازالت تنتظر معول علماء الآثار لتكشف عن مكنوناتها وتسد الفراغات العديدة التي تجعل تاريخ المنطقة سجلاً ناقصاً في أكثر من صفحة ، وتبدو خارطة المنطقة التاريخية في عدد من مساحاتها بيضاء لم يدون عليها عدد من أسماء المدن القديمة في أكثر من حقبة تاريخية . /

وتبقى مهمة علماء الآثار صعبة وتتطلب المزيد من العمل والمثابرة ، على الرغم من أن الأبحاث العلمية قامت نتيجة للعثور على الآثار المتنوعة ، ولاسيما الكتابية منها ، لم تستطع أن تواكب وفرة المادة العلمية المعروضة عليها وأن تسير معها خطوة بخطوة ، بل بقيت متخلفة عنها كثيراً ، وتحتاج إلى عشرات السنين لكي تنجز دراسة ما عثر عليه حتى الآن ، ولن تستطيع أن تنهي ماهو متوافر أمامها لأن مايعثر عليه من جديد كل يوم يفوق قدرتها على الإنجاز ، وطاقتها على المتابعة .

كانت حصيلة معظم التنقيبات الأثرية واللقى التي عثر عليها العلماء ، من أبنية وأدوات متنوعة المادة وفخار وكتابات وأسلحة وغيرها ، من نصيب المتاحف

http://www.al-maktabeh.com

المنتشرة في الشرق والغرب ولاسيما الكتابات والتماثيل واللقى الأخرى التي يسهل نقلها من المكان الذي عثر عليها فيه .

وقد ساعدت تلك اللقى على كتابة التاريخ السياسي والحضاري لشعوب المنطقة ولاسيما في العصور السابقة لظهور الكتابة ، كما أسهمت في التاريخ الاقتصادي والديني ومكنت المتخصصين من التأريخ للفن وتطوره عبر العصور من خلال المشاهد التي رسمها الفنان القديم على جدران المعابد والقصور وعلى الأختام وغيرها من اللقى المادية .

٢ - الآثار الكتابية :

أ - في بلاد الرافدين :

« عثر المنقبون على أعداد كبيرة من الألواح الطينية المشوية(الرُقُم جمع رقيم) ذات الأحجام المختلفة ، كما عثروعلى نصب تذكارية وقطع معدنية وأختام أسطوانية وفخار وغيرها من المواد التي نقشت عليها كتابة دعيت مسمارية (أو إسفينية) نسبة إلى شكل رموزها الذي يشبه المسمار ، في كثير من المواقع الأثرية في الشرق الأدنى القديم . وتعد هذه الكتابات من أهم المصادر لتاريخ شعوب المنطقة لأنها نقشت ودونت على يد كتاب عاشوا أحداث عصرهم بناء على أوامر من ملوكهم وحكامهم وكهنتهم ، أو بدافع ذاتي ، أو نسخت على يد أناس كانوا معاصرين للأحداث ، أو تناهت إليهم مشافهة عن طريق الأجيال السابقة ، أو من قبيل تقليد ما وقعت عليه أبصارهم ، واشتملت على موضوعات متنوعة من مثل الحوليات الملكية ووصف للمعارك الحربية ، والنصوص الدينيه ، والملاحم الأدبية ، والأساطير ، والتشريعات ، والاتفاقيات الدولية ، والعقود الشخصية ، والمعلومات العلمية من فلك وطب ورياضيات وهندسة وزراعة ، وأوامر إدارية ومراسلات ... وغيرها من الموضوعات التي تعين الباحث على التوصل إلى معلومات وافرة عن تاريخ موثق للشعوب يستند إلى أساس علمي ومصادر أساسية أمينة معاصرة ، وإن كانت الوثائق الخاصة بالملوك وحروبهم تتطلب من الباحث حذراً ونباهة في تصديق محتواها لما تتضمنه غالباً من مبالغات في أخبارها عن الانتصارات

مكتبة المهتدين الإسلامية

الباهرة التي حققها أصحابها على أعدائهم من قبيل التفاخر والمباهاة ، وهي عادة درج عليها حكام الشعوب المستبدون ، ومرد ذلك إلى أن الملك هو الذي يملي على الكاتب النص ويأمره بنقشه ، كما يوجه الفنان إلى تصوير ظفره في المعارك في أحسن المواقف وأروعها .))

وقد تنوعت لغة تلك الكتابات بحسب الحقب التاريخية التي تعود إليها وإن كانت تتشابه في كتابتها المسمارية المقطعية التي تطورت على يد السومريين عن الكتابة التصويرية ، كما سنفصل لدى الحديث عن الكتابة ، فكانت اللغة السومرية في الألف الثالث حتى بداية الألف الثاني قبل الميلاد تحتل المرتبة الأولى ، ثم عاصرتها اللغة الأكدية (السامية) بدءاً من منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، ومالبثت حتى طغت عليها لاحقاً واحتلت مكانها في بداية الألف الثاني قبل الميلاد .

ثم بدأت البابلية واللغة الآشورية تظهر جلية في الكتابات ، وهما فرعان من اللغة الأكدية ، فانتشرت الأولى في جنوبي بلاد الرافدين ثم ظهرت آثارها في الشرق الأدنى القديم : في بلاد الرافدين وبلاد الشام حتى مصر وآسية الصغرى وإيران ، وصارت كما يبدو لغة الشرق القديم الأولى . وظهرت إلى جانبها لغات أخرى كالحورية والحثية والعيلامية .

وتتمثل هذه المصادر الكتابية في الرُقُم التي عثر عليها في مدن بلاد الرافدين القديمة : في أور ولجش ، ولارسا ، وأوما ، وأوروك ، وبابل ، وكيش ، وماري ، ونينوى ، وإشنونا ، ونوزي ونيبور ، وفي موقع أبو صلابيخ ، وشروباك ، وحديثاً في شوبات إنليل (موقع تل ليلان) قرب مدينة الحسكة السورية .

وتبرز آثار لجش (تللو) الكتابية ونيبور ومحتويات مكتبة آشور بانيبال ، ومحفوظات القصر الملكي في ماري من بين جميع الآثار الكتابية التي عثر عليها في مواقع التنقيب بوفرة أعداد الرقم كما ذكرنا من قبل ، مما دعا رئيس البعثة الفرنسية التي نقبت في ماري أندريه بارو إلى القول : «إنه اكتشف منجماً حقيقياً من النصوص المسمارية المكتوبة باللغة البابلية القديمة في ماري» تكشفت من خلالها ملامح حمورابي والعلاقات الدبلوماسية في منطقة الشرق القديم خلال القرن الثامن عشر قبل الميلاد .

http://www.al-maktabeh.com

ب - خارج بلاد الرافدين :

وقع علماء الآثار على رقم وكتابات مختلفة ذات صلة وثيقة ببلاد الرافدين وتاريخها السياسي والحضاري في مناطق تقع على تخومها أو تبعد عنها مسافات طويلة .

ففي إبلا الواقعة الى جنوب غربي حلب(تل مرديخ) عثرت بعثة إيطالية بإشراف باولو ماتييه عام ١٩٧٤ - ١٩٧٥ على محفوظات القصر الملكي التي تعود إلى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد وتغطي الفترة الواقعة في الربع الثالث من الألف الثالث قبل الميلاد ، وتحتوي على حوالي(١٦) ألف رقيم وكسرة طينية كتبت بالخط المسماري وبلغة أهل إبلا نفسها إلى جانب اللغة السومرية . وتتناول في محتواها موضوعات متنوعة ، من سياسية واقتصادية وإدارية ودينية واجتماعيه وثقافية ، ويعكف اللغويون المتخصصون من جنسيات مختلفة على دراسة محتوياتها منذ مدة قريبة ، وتعد أهم ماعثر عليه من وثائق مكتوبة خارج بلاد الرافدين وأقدم كتابات نقشت باللغة السومرية خارج بلاد الرافدين ، وبلغة سامية معاصرة للغة الأكدية السامية [٣] .

وفي سوسة عاصمة العيلاميين المجاورين لبلاد الرافدين من جهتها الجنوبية الشرقية وفق عالم الآثار مورجان إلى الكشف عن الحضارة العيلامية التي تميزت بسمات خاصة حافظت عليها على الرغم من علاقتها الوثيقة بجنوبي بلاد الرافدين طوال تاريخها المديد.

* ثم صادف الحظ علماء الآثار عندما عثروا عام ١٨٨٧ في موقع تل العمارنة في مصر الوسطى على المراسلات السياسية لملكي مصر امنحوتب الثالث وابنه امنحوتب الرابع الذي تسمى أخناتون (بين ١٤٠٢ - ١٣٤٧ ق . م) مع ملوك وحكام منطقة آسية الأمامية (بلاد الشام وبلاد الرافدين وآسية الصغرى) ، وكانت مكتوبة بالخط المسماري وباللغة البابلية .

---

(٣) أنظر كتابنا : تاريخ الشرق القديم(١) سورية ١٢٥ - ١٢٧

مكتبة المهتدين الإسلامية

٧ وفي عام ١٩٠٧ تمكن العالم الألماني فينكلر H. Winkler من اكتشاف عاصمة الحثيين خاتوشا في موقع بوغازكوي في قلب آسية الصغرى ، حيث ظهرت اللغة الحثية المكتوبة بخط مسماري بمعالمها الأصلية إلى جانب البابلية ، وقدمت للباحثين مادة غنية لتاريخ بلاد الرافدين ومصر والشرق العربي بعامة .

٨ ثم ظهرت للبعثة الفرنسية التي بدأت تنقيباتها في موقع رأس الشمرة إلى الشمال من مدينة اللاذقية السورية في عام١٩٢٩ مدينة أوغاريت القديمة حيث وقعت البعثة على حوالي (٢٠) ألف رقيم كتبت بلغة أبجدية محلية إضافة إلى اللغة السومرية واللغة البابلية والحثية والحورية والمصرية القديمة ، ويعود تاريخ أغلبها إلى الفترة الواقعة بين القرنين الرابع عشر والثاني عشر قبل الميلاد . أما المنطقة السادسة خارج بلاد الرافدين التي عثر فيها العلماء على آثار كتابية رفدت تاريخ المنطقة بمعلومات غنية فتقع في سهل العمق حيث قام الانكليزي وولي عام ١٩٣٧ L. Woolley (الذي سبق أن حالفه الحظ في حفرياته في أور واكتسب من خلالها شهرة عالمية) بالكشف عن مدينة الالاخ في موقع تل عطشانه بالقرب من أنطاكية ، فوجد محفوظات القصر الملكي التي يغطي قسم منها فترتين متتاليتين تتصلان بنهاية القرن الثامن عشر والقرن السابع عشر بكامله ، أما القسم الثاني منها فيتصل بأحداث القرن الخامس عشر قبل الميلاد .

هذه هي أهم المكتشفات الأثرية الكتابية التي لابد من العودة إليها عند كتابة تاريخ بلاد الرافدين ومنطقة الشرق الأدنى القديم والتي تمثل المصادر الأساسية الأولى لتاريخ المنطقة . وهذا لا يعني أن علماء الآثار وجدوا المصادر الكتابية والآثار اللازمة كلها ، لأن العمل في المواقع القديمة مازال مستمراً في أكثرها ، والبحث عن مواقع عمل جديدة للبعثات الأثرية الوطنية والأجنبية مازال جارياً ، ومفاجآت الحفريات ومكتشفاتها لاتنفك تتوالى موسماً بعد موسم إن لم يكن أحياناً في موسم التنقيب الواحد . وقد لاحظنا مما سبق الحديث عنه أن المنقبين كثيراً ماوقعوا على كنوز حقيقية من الآثار عن طريق المصادفة . كما تجدر الإشارة إلى أن كنوزاً أخرى ضاعت بسبب جشع هواة الآثار وإهمال جهلة الآثاريين المغامرين لاتباعهم طرائق عشوائية غير نظامية وغير منهجية في الحفريات مماأدى إلى إتلاف الكثير

http://www.al-maktabeh.com

من الآثار المعمارية والفنية والكتابية وإلى تخريب مواقع أثرية بكاملها ولاسيما في بدايات الكشف عن الآثار الشرقية . ولاشك أن الطبيعة لعبت دوراً في ضياع آثار كثيرة ولاسيما في المناطق الواقعة في مايسمى أكد وسومر من جنوبي بلاد الرافدين حيث قضت رطوبة الأرض المرتفعة والفيضانات على آثار عظيمة أهمها آثار بابل نفسها التي كانت عاصمة الشرق ومركز حضارته الغابرة الأولى ، فلم يبق من آثارها إلا الشيء القليل .

٣ - المؤرخون القدماء :

انصرف قليل من المهتمين بالأخبار وشؤون المجتمع من سكان الشرق القديم إلى الكتابة ، وتدوين معلوماتهم الخاصة ، فوصلت إلى المؤرخين اللاحقين في العصور اليونانية والرومانية . وقد ضاع كثير من أصولها ، وبقيت مقتطفات منها أو نقول عنها عند المؤرخين اليونانيين والرومان والبزنطيين وتعتبر معلومات هؤلاء المؤرخين مفيدة على الرغم من بعد الزمن الذي ألفت فيه عن الأزمنة التي تتصل بها، إلا أن بعض المؤرخين الغربيين عن المنطقة عاصر آخر فترة من حياة الممالك القديمة وكتب عنها . وتعد أخبارهم من المصادر الثانوية. ويبرز من بينهم الكاتب البابلي برعوثا (Berossos أو برحوشا) الذي كان كاهناً في معبد الإله «مردوك» ، كبير آلهة البابليين، وقد أفاد برعوثا من محتويات المعبد الغني بالوثائق المكتوبة في محفوظاته إفادة عظيمة إذ كان على درجة كبيرة من الثقافة ويتقن اللغة اليونانية التي ألف بها مجلداً ضخماً سماه بابيلونكا، أي «تاريخ بابل» قدمه هدية للملك السلوقي أنطيوخوس الأول، حوالي عام ٢٨٠ق.م، وجعله في ثلاثة كتب : تحدث في الكتاب الأول عن الأساطير البابلية وسماه «الحكمة» . وتحدث في الكتاب الثاني عن تاريخ بلاد الرافدين منذ «بداية الخليقة» إلى عهد الملك الآشوري تيجلات بيليصر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ق.م) . أمّا الجزء الثالث فقد خصصه لتاريخ بلاد الرافدين منذ عهد الملك الاشوري تيجلات بيليصر الثالث حتى وفاة الاسكندر المقدوني في عام٣٢٣ق.م.

وقد وصلنا بعض الفصول من مؤلف برعوثا وأخبار عنه من خلال نقول

مكتبة المهتدين الإسلامية

المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسفوس والمؤرخ يوليوس أفريكانوس ومؤرخ الكنيسة أويسبيوس، ولاسيما ما نقله عنه اسكندر بوليهيستور حوالي عام ٧٠ق.م. [٤].

* ويعد المؤرخ الإغريقي(هيرودوت)الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد (حوالي ٤٨٠-٤٢٥ق.م) خير من كتب عن الشرق في عصره، كما تناول الأحداث السابقة والأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وعادات شعوب الشرق وتقاليدها بالذكر؛ وخص مدينة بابل بوصف عمارتها وتحصينها وبيان أهميتها الحضارية، وتطرق إلي غزو الملك الفارسي قورش لها وعصيان أهلها في عهد داريوس؛ إضافة إلى غزو الملك الآشوري سنحاريب لمصر،وأشار إلى أن الإغريق أخذوا عن البابليين(الساعة الشمسية) وتقسيم النهار إلى اثنتي عشرة ساعة .

وجاء بعده المؤرخ كتسياسKtesias الذي كان طبيباً للملك الفارسي (أرتاكسيركسيس Artaxerexes) وعاش في النصف الثاني من القرن الخامس ق.م . واستطاع الاطلاع على ملفات مكتبة العاصمة العيلامية سوسة ونسخ عدد من نصوصها . وقد وصلتنا نقول منها من خلال كتابات المؤرخين اللاحقين من مثل ديودور الذي عاش في القرن الأول ق . م ، إضافة إلى بعض ماكتب عن عادات سكان بلاد الرافدين وتقاليدهم في عصره . ويصف المؤرخ كزينوفون Xenophon (٤٣٠ -٣٥٤ ق . م) أطلال المدن الواقعة في شمالي بلاد الرافدين ويتحدث عن الزراعة على أطراف دجله واستثمار مياهه عن طريق القنوات في عصره . كما يذكر ذلك الجغرافي سترابون (٦٣ق . م - ٢٠ م) .

ونقع عند غير هؤلاء من المؤرخين على أخبار متنوعة عن أخبارشعوب بلاد الشرق القديم وأصولهم السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، من مثل ديودور الصقلي ، بليني الأكبر وفلافيوس يوسيفوس .

٤ - العهد القديم :

كان كتاب العهد القديم وهو كتاب اليهود المقدس بأسفاره المتعدده ولاسيما التاريخيه منها إلى عهد قريب يعد مصدراً أساسياً لدى الكثير من الباحثين .

---

(٤) توفيق سليمان ، دراسات في حضارات غرب آسية القديمة ،٢٠ .

http://www.al-maktabeh.com

ومازال أنصاره من المستشرقين ذوي الميول الدينية يعتمدونه مرجعاً هاماً لأبحاثهم المتصلة بتاريخ الشرق القديم على الرغم من تضارب أخباره وبعدها عن الواقع التاريخي . ولكن لاينكر دور كتاب العهد القديم في حفز المغامرين على تنكب المخاطر للوصول إلى المواقع الأثرية ومحاولة تأكيد ماجاء فيه من أخبار عن بلاد الرافدين وسورية القديمة وبلاد العرب ومايتصل منها بالعبرانيين أو ببني إسرائيل واليهود . وقد تضاءلت قيمة كتاب العهد القديم بعد الاكتشافات الأثرية الكثيرة المشتملة على اللقى المختلفة ولاسيما الكتابية التي تعد ، كما بينا ، مصدراً أصلياً لكتابة التاريخ القديم ، وماعداها لايرقى لغير دور ثانوي .

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الرابع

سكان بلاد مابين النهرين القدماء

يتميز جنوب بلاد مابين النهرين في فجر التاريخ بكثافة المدن التي ظهرت نتيجة لتوسع المستوطنات الزراعية وتجمع القرى خلافاً للمناطق الشمالية التي كانت مدنها أقل عدداً وسكانها أقل كثافة على الرغم من سبقها الحضاري كما رأينا .

وقد اتسمت تلك الحقبة من الزمن بازدهار حضاري واضح المعالم في المدن التي كانت تتوضع في أقصى الجنوب بين نهري دجلة والفرات وعلى أطراف فروعهما وحيث تأخذ المنطقة شكلاً بيضاوياً يمتد من جنوبي بغداد اليوم إلى شاطئ الخليج العربي الشمالي القديم حيث كانا يصبان منفصلين ، وتشغل مساحة تقدر بحوالي عشرين ألف كم٢ ، وتمتد على مسافة يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب حوالي ٣٥٠كم . وتعرف هذه المنطقة بقلة أمطارها وارتفاع درجة الحرارة فيها وتأثرها برمال الصحراء المجاورة من الجهة الغربية ، ولكن الزراعة فيها تجود بمحاصيل متنوعة كالقمح والشعير والذرة وأنواع من الخضروات والفواكه وأشجار النخيل عن طريق شبكة واسعة من القنوات التي تستقي مياهها من النهرين الأساسيين . وكان السكان يزاولون إلى جانب الزراعة تربية الماشية والحيوانات الداجنة الأخرى ، ويستفيدون من الاسماك النهرية ويصطادون أنواعاً مختلفة من الحيوانات البرية .

وبدأت في تلك الحقبة من التاريخ خصائص العصور التاريخية بظهور الكتابة بأشكالها البدائية التي مالبثت أن تطورت على يد سكان الجنوب في وقت لاحق ، ويرجع المؤرخون هذه البدايات التاريخية إلى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد .

مكتبة المهتدين الإسلامية

أما السكان آنذاك فكانوا ينتمون في غالبيتهم إلى جنسين مختلفين من البشر هما : السومريون ، والساميون الذين كانوا يستوطنون المنطقة الجنوبية من بلاد الرافدين ، وهي المنطقة التي حددناها آنفاً ، ويتوزعون بأعداد غير متوازنة في المدن الرئيسة ، وهي من الجنوب إلى الشمال : إريدو ، أور، أوروك ، بادتبيرا ، لجش، شوروباك ، أوما ، نيبور. ثم تليها في البقعة الشمالية كيش ، سيبار و إشنونا . ويتبين من توزع هذه المدن الجغرافي أن الرقعه الجنوبية كانت أكثر كثافة بالمدن والسكان ، كما نوهنا سابقاً ، حيث تحتل بينها مدينة أوروك المقام الأول باتساعها وعدد سكانها وبقدمها بين المدن الأخرى . إلا أن السومريين كانوا في الجنوب أكثر من الساميين ، بينما كان السكان من الساميين أكثر في الشمال ، ولكن الغالبية العظمى من السكان كانت في الجنوب تنتمي إلى العنصر السومري الذي ينسب إليه المؤرخون دوراً رئيسياً في إقامة حضارة بلاد الرافدين ، إذ كانت الطبقة الفاعلة سياسياً وحضارياً في تلك الحقبة القديمة من تاريخ بلاد الرافدين سومرية الجنس [1] .

أ - السومريون وفنهم :

يختلف السومريون عن الساميين وغيرهم من سكان المناطق المجاورة ، كما تبين من الدلائل الأثرية واللغوية . فهم أميل إلى الامتلاء ، وأقصر قامة من الساميين، وتبدو أنوفهم في الرسوم عريضة ومستقيمة ، ويظهرون في عصورهم الأولى في أغلب صورهم من دون لحى ، ثم تظهرهم تماثيلهم في أواخر عصر السلالات الباكرة بلحى كثة. ويظهر حكامهم في فنونهم التشكيلية وهم يرتدون ثياباً نصفية تمتد إلى ماتحت الركبة مرسلة في صفوف على هيئة فلوس السمك تشبه شبكة الصيد[2] .

---

(١) A. Falkenstein, in FW, 2, S.48; O. Edzard, in: FW, 2, S. 62 F.

(٢) عبدالعزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ٤٤٦ ؛ طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، الجزء ١ ، ٦١ وما بعدها ، هنري فرانكفورت ، فجر الحضارة في الشرق الأدنى ، ترجمة ميخائيل خوري ، بيروت ١٩٥٠ ، ص٨٣ .

http://www.al-maktabeh.com

ويعتقد أن السومريين شعب غريب عن المنطقة التي عرفت باسمهم في العصور التاريخية والتي وفدوا إليها من موطنهم الأصلي الذي لم تتوافر أدلة مؤكدة تحدد مكانه على الرغم من اجتهادات الباحثين المتعددة ، إن لم يكونوا من السكان الأصليين فعلاً .

فقد افترض بعضهم أن أجداد السومريين هاجروا إلى جنوبي بلاد الرافدين من المرتفعات الجبلية (الشمالية والشمالية الشرقية) بدليل أن السومريين أنفسهم كانوا يعبرون عن صلتهم بالجبال من خلال إقامتهم المعابد فوق مسطحات اصطناعية مرتفعة ، ويصورون أربابهم وهم يعتلون مايشبه مدرجات الجبال من الأرضيات . ولعل مايفسر ذلك تسمية معبد إلههم الأعظم إنليل في مدينة نيبور السومرية(٣) باسم E. KUR الذي يعني « البيت الجبلي» بل وإضفاء لقب كورجال KURGAL «أي الجبل العظيم » على الإله نفسه ، وما وصفوا به الربة إنانا في إحدى أساطيرهم بأنها «ملكة السماء الجليلة التي تسكن جبال الأرض العالية شوبا». وأشاروا إلى رغبة معبودهم أوتو ، إله الشمس ، في الأسطورة نفسها ، في أن يبني له أتباعه معبداً متسامياً كالجبل المقدس . ومما له صلة بالأصل الجبلي للسومريين ماتذكره واحدة من أساطيرهم عن الملك إنمركار الذي يعد بحسب القوائم السومرية ثاني ملوك مدينة أوروك بعد الطوفان إذ تروي أن الربة إنانا اصطفته من بلاد شوبا الجبلية ، وأنه الأمير المحتبى بالإمارة في البلاد الجبلية المحصنة ، وأنه الراعي الذي ولد في جوف الجبل(٤) .

ويفترض بعضهم ، وعلى رأسهم صمويل كرامر المتخصص في علم الدراسات السومرية أن أجداد السومريين كانوا بدواً يعيشون في المناطق الواقعة

---

(٣) O. Edzard, in Wörterbuch der Mythologie 60.

(٤) Kramer, JAOS 63 (1952), p. 191f. ، ويرى هنري فرانكفورت أن السومريين انحدروا من هضبة إيران إلى جنوب بلاد الرافدين استناداً إلى نوعية الخزف واشكاله، كما يتبين من النماذج التي عثر عليها في أوروك وفي إريدو التي سبقت خزف العبيد (أنظر المرجع السابق : فجر الحضارة ، ص٥٢ -٥٤) ، كما يرى أن «قضية نشأة السومريين قد تكون أقرب إلى الجري وراء الخيال مما هي إلى قضية تاريخية» ص ٦١ ، الهامش ١ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

الشكلي بين الصيغ الدالة على الأشخاص وبين الصيغ الدالة على الأشياء تحمل على الاعتقاد بوجود صلات مامع لغات الهند الدرافيدية القديمة [٦] .

وتشكل اللغة السومرية المتميزة بخصائصها والغريبة عن المحيط الذي ظهرت فيه في بلاد الرافدين والشرق بعامة سبباً رئيساً إلى جانب الانتماء الإثني(الجنسي) يحملنا على الاعتقاد بأصل السومريين الغريب عن المنطقة الذي لايمت إلى أي من الشعوب المعروفة بانتمائها إلى الساميين أو الآريين (الهندوأوربين) أو الحاميين الذين يستوطنون الشرق الأدنى منذ القدم .

فاللغة السومرية لغة إلصاق Agglutinative ، وهذا يعني أنها تختلف عن اللغات المعروفة باللغات السامية واللغات الهند وأوروبية واللغات الحامية ، التي تشكل مجموعاتها معظم لغات البشر المعروفة ، في ناحية أساسية تتصل بتركيبها اللغوي ولاسيما بتصريف الفعل للحصول على صيغ كلامية واضحة خاصة بالمتكلم والمخاطب والغائب ، وبالمذكر والمؤنث ، والمفرد والجمع (أو المثنى كما في اللغات المسماة باللغات السامية ومنها العربية)، إذ أن الإلصاق يعني إدماج الضمير في الفعل المتصل به ، ومزج لفظين أو أكثر لتكوين كلمة جديدة تبعاً لقواعد محددة من دون تغيير في الألفاظ الأساسية التي تستخدم لتركيب الصيغ أو الألفاظ الجديدة . ويصعب جمع اللغات الإلصاقية في مجموعة واحدة كاللغات السامية أو اللغات الحامية أو اللغات الهندوأوربية التي ذكرناها والتي تتشابه لغات كل مجموعة منها مع بعضها إلى درجة كبيرة بحيث تبقى فوارق ثانوية تميز بينها . ومن اللغات القديمة الإلصاقية في منطقة الشرق القديم المعروفة اللغة العيلامية واللغة الحثية البدائية ، واللغة الحورية – الأورارتية . ولكن اللغة السومرية لاتمت إلى تلك اللغات بالحد الأدنى من صلة القرابة . كما لاتظهر للغة السومرية أية قرابة باللغات الإلصاقية الأخرى المعاصرة من مثل اللغة الفنلندية أو اللغة المنغولية أو لغات الترك، ولغة الباسك التي يتكلمها سكان المناطق الواقعة بين اسبانية وفرنسة ، أو بعض لغات مناطق القوقاز ، كالجورجية مثلاً ، على الرغم من الجهود المضنية

---

(٦) فاضل عبدالواحد علي ، من ألواح سومر إلى التوراة ٤١ .

http://www.al-maktabeh.com

ماوراء القوقاز أو ماوراء بحر قزوين قبل أن يندفعوا مهاجرين إلى الجنوب ، حيث تعرفوا في طريقهم على حضارة بلاد الرافدين في غربي إيران ، ثم وصلوا إلى جنوب بلاد الرافدين في الربع الأخير من الألف الرابع قبل الميلاد وتمكنوا من السيطرة على الجنوب خلال إحدى فترات حضارة الوركاء بعد أن اندمجوا في السكان الأصليين أصحاب الحضارة الأولى ، وكان عليهم أن يتعايشوا مع المهاجرين الساميين الذين لم تتوقف هجراتهم من الغرب منذ فجر التاريخ ، أي قبيل ظهور الكتابة(٥).

وثمة رأي ثالث يذهب إلى أن السومريين وفدوا إلى جنوبي بلاد الرافدين قادمين من جهات الهند ، من وادي السند أو جنوبي بلوجستان ، فوصلوها عن طريق جنوبي إيران أو عن طريق البحر حيث حطوا الرحال فترة من الزمان في جزيرة تلمون (أودلمون) ، ويعتقد أنها البحرين ، قبل أن يتابعوا هجرتهم إلى موطنهم الأخير . ولدى هذا الفريق من الباحثين قرينتان على صحة رأيهم :

تتمثل إحداهما في تشابه أوائل نماذج الفخار السومري القديم وزخارفه في بلاد الرافدين مع نماذج وزخارف الفخار القديمة التي عثر عليها في سهول السند ، مما يشير إلى وجود صلات جنسية وحضارية بين سكان المنطقتين الذين ينتمون معاً ، برأي هؤلاء الباحثين أو على الأخص كونتنو ، إلى مايسمى بالجنس الآسياني، وهوجنس يجمع عدداً من الشعوب التي كانت تستوطن بعض مناطق غربي آسية من غير الساميين منذ أقدم العصور ، ومنهم الإلاميون(العيلاميون) والسومريون .

ويزكي هذا الرأي قرينة ثانية تستند إلى بناء اللغة السومرية التي كانت تعرف أساليب مختلفة ، منها اللغة الفصحى أو لغة الخاصة ، ولغة العامة التي يستخدمها عامة فئات الشعب . وثمة لغة ثالثة خاصة دعيت لغة النساء (إيمي - سال) ، كان خاصة الكهان يستخدمونها ، تشير إلى أسلوب مشابه كانت الحضارة الهندية القديمة تعرف مايشبهه . إضافة إلى أن اللغة السومرية بتمييزها

---

(٥) صمويل كرامر، من ألواح سومر، ترجمة طه باقر ، القاهرة ١٩٥٧، الفصل ٢٢.

مكتبة المهتدين الإسلامية

التي بذلها علماء اللغة لتقريب اللغة السومرية من هذه اللغات(٧) .

وقد تم لعلماء اللغة السومرية ماتطلعوا إليه من فهم للنصوص التي عثر عليها علماء الآثار ، وهي كثيرة وتتناول أغراضاً مختلفة ، فمنها النصوص الدينية والأدبية والاقتصادية والإدارية والتشريعية ، ومازالوا يتابعون دراساتهم المعقدة لارتباطها الوثيق بالكتابة المسمارية التي أُلِّفَت بها تلك النصوص ، وهي الكتابة الأولى التي ظهرت في بلاد الرافدين والتي ما انفك علماؤها يختلفون حول صحة قراءاتهم لها .

وتعود أقدم تلك النصوص إلى النصف الأول من الألف الثالث ق . م . وعثر عليها علماء الآثار في مواقع أوروك (فترة جمدة نصر) ، أور ، وشروباك ، وأبو صلابيخ حيث وقع الأمريكي بيجس في عام ١٩٦٥ على نصوص مهمة يعود تاريخها الى حوالي ٢٥٠٠ ق . م. ذات علاقة بنصوص إبلا في سورية .

ويصنف علماء اللغة الوثائق السومرية في قسمين : الأول ويسمى بالعصر السومري القديم ويمتد بين حوالي ٢٦٠٠ -٢٣٥٠ ق . م والثاني يسمى بالعصر السومري الحديث أو عصر الإحياء السومري ، ويقع في الفترة الانتقالية التي تلت إنهيار الدولة الأكدية على يد الجوتيين وامتدت بين ٢١٦٤-٢٠٠٣ ق . م . وهي الفترة التي ظهرت فيها أسرة حاكمة سومرية دعيت بأسرة أور الثالثة ، واشتهر قبلها بقليل حاكم لجش السومري وهو جوديا ٢١٤٤ - ٢١٢٤ ق . م وإلى هذا العصر تعود كميات هائلة من النصوص السومرية ولاسيما الأدبية .

وبقيت اللغة السومرية لغة الثقافة والدين خلال العصر البابلي اللاحق ، وإلى هذا العصر تعود نصوص سومرية كثيرة نسخها الكتاب عن أصولها الأولى أو أعادوا كتابتها ، فوصلت الينا نصوص سومرية اقتصادية وقضائية وإدارية وأدبية كثيرة ، ولاسيما نصوص الملاحم والأساطير السومرية . وما أن أهل

---

(٧) فاضل عبدالواحد علي ، من ألواح سومر الى التوراة ٣٩ ومابعد .

Falkenstein, in FW, 2, 47

http://www.al-maktabeh.com

الألف الثاني قبل الميلاد حتى كتب على اللغة السومرية أن تختفي من على ألسنة الناس [٨] نهائياً لتحل محلها الأكدية السامية ، ثم فرعها البابلي الذي اكتسب صفة اللغة العالمية زمناً طويلاً إلى أن حلت اللغة الآرامية محلها ، وهي لغة سامية أيضاً ، قبل أن تتخلى للغة العربية السامية أيضاً عن المكان بعد ظهور الإسلام .

كان قدر السومريين أن ينوبوا في المجتمع البابلي ويختفي ذكرهم إذ لم يلقوا من جنسهم أو من فئات تنتمي إلى أصولهم روافد بشرية جديدة ، بينما كان الساميون يتكاثرون في المنطقة وتتزايد أعدادهم ، وتمدهم الهجرلت المتتالية من مناطق البوادي الشمالية الغربية والغربية بعناصر من القبائل السامية الجديدة لاتلبث أن تستقر وتنهض بعبء الحضارة المدنية بعد أن تنوب هي الأخرى في المجتمع الجديد وتعمل على إقامة الحكومات المتتالية في بابل والهلال الخصيب .

لم يكن السومريون إذن أقدم سكان بلاد الرافدين الجنوبية ، وإنما كان الساميون يشاطرونهم الحياة في تلك المنطقة اضافة الى عناصر اصيلة كان لها فضل اقامة الحضارات الأولى السابقة ، ومنها حضارة أوروك وحضارة العبيد .

وتشير شواهد لغوية هامة إلى ذلك ، ومنها مسميات للمعالم الجغرافية الرئيسية في بلاد الرافدين تضمنتها اللغة السومرية واحتفظت بها اللغات الأخرى من مثل دجلة (إديقلات) والفرات (بورانون ، بورنونا) وعدد من أسماء المدن : إريدو، وشوروباك ، أور ، لجش ، نيبور ، وغيرها من الألفاظ التي تتصل بالحياة الاقتصادية ولاسيما الزراعية ، وقد تبين أنها ألفاظ ليست من صلب

---

(٨) D. O. Edzard, in FW, 2, 62; Falkenstein, in FW,2,48. وانظر أيضاً عن تاريخ اللغة السومرية : فاضل عبدالواحد علي ، المرجع السابق ٤٢ ومابعد .

مكتبة المهتدين الإسلامية

اللغة السومرية ولاهي من الألفاظ السامية[٩] . ولكن تاريخ بلاد الرافدين الفعلي يبدأ بالسومريين الذين يظهرون بحضارة المدينة بعد مسيرة حضارية في المنطقة تتمثل بالآثار ذات التاريخ الموغل في القدم.

وأكثر مايتبين من مظاهر حضارتهم البارزة عمارتهم ذات الطابع الديني التي صارت تأخذ أبعاداً كبيرة ، وإن تطورت عن نماذج من حضارة أوروك التي سبقت اسيطانهم جنوبي البلاد ، وعن حضارة العبيد من قبلها . كما يلمس الباحث حرص السومريين على جعل معابدهم فوق منصات مرتفعة وعلى بنائها من الاحجار، وكثرة استخدامهم للمادة الحجرية بعامة ، ولاسيما في النحت ، مما يشير إلى أصلهم الجبلي ، أو ابتغاء رفع تلك المنشآت عن مستوى الأرض الرطبة في السهل الرسوبي الذي كانت تنتشر فيه مدنهم ، حتى غدت تلك المعابد ظاهرة فريدة لفن العمارة في بلاد مابين النهرين ، وصار يطلق عليها إسم الزقورة من بعد ، وقد احتفظت بشكلها المميز من زقورة الإله إنليل في نيبور إلى برج بابل .

ب - الساميون ولغاتهم :

يسود الاعتقاد بين المختصين بأن الساميين كانوا يستوطنون بلاد مابين النهرين منذ بدايات الحضارة الأولى ، ولاسيما في فجر التاريخ أو مايسمى بالعصر الشبيه بالكتابي ، أي العصر الذي ظهرت فيه تباشير الكتابة الأولى التي تمثلت بالصور التي تم العثور عليها في الوركاء (في الطبقة الرابعة) والتي يعود تاريخها إلى حوالي ٣٢٠٠ - ٣١٠٠ ق . م. وكان للساميين مشاركة فعاله في بناء

---

(٩) عبدالعزيز صالح ٤٤٧ ؛ طه باقر ٤١ ، ٧٥ . ولعالم السومريات المعروف لاندزبرجر Landsber ger وجهة نظر فيما يتصل بسكان المنطقة ولغاتها القديمة ، فهو يرى أن ثمة قوماً مجهولي الهوية سبقوا السومريين والساميين إلى استيطان جنوبي بلاد الرافدين ومناطق الفرات الأوسط ، يطلق عليهم اسم «الفراتيون الأوائل Proto - euphrat » ، وينسب إلى أولئك أسماء عدد من المدن ، ومنها : أدب ، لجش ، أور ، أوروك ، لارسا . كما ينسب إليهم أسماء عدد من المهن الزراعية والحرف الصناعية الضرورية لمجتمعهم ، وبعض الالفاظ الأخرى . وقد وافقه على رأيه العالم المشهور جلب Gelb لمزيد من التفصيل إرجع إلى : فاضل عبدالواحد علي ، المرجع السابق ٢٩ ومابعد .

http://www.al-maktabeh.com

الحضارة والتوصل إلى جملة من إنجازاتها مع السومريين الذين كانوا يشكلون وإياهم العنصرين الأساسيين لسكان بلاد مابين النهرين / كما ذكرنا ، قبل قيام الدولة السامية الأولى في المنطقة على يد الملك سرجون حوالي عام ٢٣٤٠ ق . م والتي دعيت نسبة الى عاصمتها باسم «الدولة الأكدية» ودعي مواطنوها باسم «الأكديين» إذ يحتمل أن يكون هؤلاء قد رفدوا أقرباءهم من الساميين الذين كانوا يستوطنون البلاد منذ الألف الخامس قبل الميلاد ، وكانوا في طليعة مستوطني مايدعي باسم «بلاد بابل» ولكن أقدم الشواهد الفعلية على وجود الساميين هناك يتمثل في أسماء العلم السامية التي وردت في نصوص أور السومرية التي يعود تاريخها إلى حوالي القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد ، وفي الالفاظ السامية القديمة التي دخلت اللغة السومرية نفسها منذ عصر بداية الأسرات ، وهو مايدعى باسم دول المدن السومرية أو العصر السومري القديم (١٠) . ففي الوقت الذي ظهرت فيه المدن السومرية في الجنوب في المنطقة الواقعة إلى الشمال من الخليج العربي مباشرة ، قامت مدن إلى الشمال منها في المنطقة الواقعة بين بغداد اليوم حيث كانت مدينة إشنونا تقع الى الشمال الشرقي منها قرب نهر الديالى ، وبين مدينة نيبور في وسط البلاد وهي مدن كانت مدينة كيش (تل الأحيمر اليوم) أقدمها وأشهرها ، وهي المنطقة التي صارت تدعى من بعد باسم «أرض أكد» نسبة الى عاصمة الدولة الاكدية ، مقابل «أرض سومر» في الجنوب التي تبدأ بمدينة نيبور(نفر) المذكورة . كان الساميون ينتشرون في المدن الشمالية ويؤلفون الغالبية العظمى من سكانها في الوقت الذي كانوا أقلية في أرض سومر . ويزكي ماذهبنا إليه أن أثني عشر ملكاً من مجموع ملوك مدينة كيش كانوا يحملون أسماء سامية

---

(١٠) ونسوق على ذلك بعض الالفاظ ، مثل لفظة«اشترى» ، في السومرية سام ، وأصلها من الأكدية شام ، ولفظة«ثوم» في السومرية سوم ، وأصلها من الأكدية شوم . وكلمة أرد في السومرية ، وأصلها في الأكدية ورد .D. O. Edzard, in FW, 2, 66 ومنها كلمات مثل: تاجر ، ونجار ، وراعي ، ومسكن ، وجبل ، وغيرها : أنظر : فاضل عبدالواحد علي ، المرجع السابق ٣٧ ، Gelb, Sumerians and Akkadians in their Ethno - Linguistic Relationship, in Aspects du contact Sumero - Akkadian (Geneve 1960) P. 262 ff.

مكتبة المهتدين الإسلامية

من مجموع ملوكها الذين بلغ عددهم اثنين وعشرين ملكاً بحسب قائمة الملوك السومرية التي تعدد أسماء كل الملوك الذين حكموا في بلاد بابل وفي منطقة ديالى، وفي منطقة الفرات الوسطى (في ماري) من بعد الطوفان ويبرز من بين أسماء ملوك كيش الملك ميسالم الذي كان حكمه في حوالي بداية القرن السادس والعشرين قبل الميلاد [١١] ، وهو الذي يذكر عنه أنه تدخل لفض النزاع بين دويلتي لجش وأوما السومريتين وفرض على ملكيهما حدوداً فاصلة إثر التنافس الذي نشب بينهما على الموارد المائية وحدود الأراضي الزراعية الواقعة بينهما . كما يشير بعض الباحثين إلى أن بعض الملوك كان يتخذ اسماً سومرياً وهو سامي أصلاً ومنبتاً ، ومرد ذلك إلى عادة الملوك المحليين الذين كانوا يرون في الأسماء والألقاب الملكية السومرية نوعاً من المظاهر البراقة التقليدية التي تضفي على حاملها صفة الحاكم النبيل ، ولما كان للغة السومرية من منزلة رفيعة في خارج مناطق السومريين الأصلية .

ومن بين أولئك الملوك تذكر قائمة الملوك السومرية التي تبدأ بأسماء ملوك كيش ملكاً يدعى مبارا جيزي، هو الملك الثاني والعشرين، الذي كان يحمل اسماً سومرياً، ووصل إلى حكم كيش في نهاية القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد، ولكن اسمه هذا لايمنع من الاعتقاد بأنه كان سامي الأصل . كما أنه ليس لنا أن نجزم بأن الملوك الذين ورد ذكرهم في القائمة الملكية المذكورة كانوا حكاماً لمدينة كيش[١٢] والمناطق التي كانت تحت سيطرتها فعلاً، لأن كثيراً من ملوك المدن السومرية كانوا يعتدون باتخاذ لقب «ملك كيش» لما كان ملك كيش الفعلي يتمتع من نفوذ معنوي على الأقل على المدن الأخرى كافة ، ومن أولئك يظهر في قائمة ملوك أور اسمان ساميان لملكين خلفا مؤسس الأسرة الأولى ميسانيبادا (الذي كان حكمه حوالي عام ٢٤٩٠ ق. م)، وهما إيلولو، ويالولو، وهي أسرة حاكمة كان أفرادها يحملون لقب«ملك كيش» أيضاً الذي كان يعني، كما يبدو، آنئذ «ملك بلاد بابل» كلها[١٣].

---

(١١) أنطون مورتكات ، تاريخ الشرق القديم ٤٤ ;Edzard, in FW,2,61,62

(١٢) المصدر السابق ٦٢

(١٣) المصدر السابق ٧٢ ؛ فاضل عبدالواحد علي ، المصدر السابق٤٦

هـ ساكز ، عظمة بابل ، ترجمة عامر سليمان ١٩٧٩ ، ص ٦٠ ومابعد ، محمد عبداللطيف محمد علي ، تاريخ الشرق القديم ١٨١ – ١٨٣ ، طه باقر ٢٨٦

http://www.al-maktabeh.com

وفي هذا مايدلل على نفوذ الساميين السياسي منذ بدايات العصر السومري القديم . ولكن دورهم الفعال والمهيمن بدأ بوضوح بقيام أول دولة لهم في بلاد الرافدين ، وهي الدولة الأكدية .

و«الساميون» اصطلاح ابتكره النمساوي شلوتزر Schlözer في العام ١٧٨١م لعدد من شعوب جنوب غربي آسية التي كانت تستوطن شبه الجزيرة العربية ومايجاورها في الشمال من بلاد مابين النهرين(العراق القديم) ، وبلاد الشام (سورية القديمة) ، وهم العرب ، سكان شبه الجزيره العربية ، والاكديون والبابليون والآشوريون الذين كانوا يقيمون في العراق القديم . والكنعانيون(الفينيقيون) ، والآراميون ، والعبرانيون الذين كانوا يستقرون في سورية القديمة . وسمى اللغات التي تحدثوها وخلفواآثاراً كثيرة عنها«اللغات السامية» . وقد استقى هذه التسمية للغات وللشعوب السامية من كتاب التوراة اليهودي الذي يذكر في سفر التكوين ، الإصحاح العاشر ٢١ - ٣٢ فيما يسمى «قائمة الأنساب» ، الشعوب التي انحدرت من نوح وأبنائه الثلاثة : سام ، وحام ، ويافث، حيث يقول النص :

« وهذه مواليد بني نوح سام وحام ويافث وولد لهم بنون . بنو سام عيلام وآشور وأرفكشاد ولود وآرام . وبنو آرام عوص وحول وجاثر وماش . وأرفكشاد ولد شالح وشالح ولد عابر . ولعابر ولد ابنان اسم الواحد فالج لأن في ايامه قسمت الأرض واسم أخيه يقطان . ويقطان ولد الموداد وشالف وحضرموت ويارح وهدورام وأوزال ودقلة .. جميع هؤلاء بنو يقطان . وكان مسكنهم من يشاحينما تجيء نحو سفار جبل المشرق . هؤلاء بنو سام حسب قبائلهم كألسنتهم بأراضيهم حسب أممهم» .

وقد استخلص شلوتزر من هذا النص أسماء تمثل شعوباً معروفة ، وهي : الآشوريون ، والآراميون ، والعبرانيون ، والعرب ، وهم سكان بلاد الرافدين وبلاد الشام وشبه الجزيرة العربية ، كما أسلفنا ، وهي أقوام تأكد لديه أن لغاتها متشابهة، بل ومتطابقة في ظواهر لغوية أساسية ، إذ ليس من اختلاف بينها في

مكتبة المهتدين الإسلامية

الأصوات ، وفي بناء الألفاظ وتركيبها الذي يعود إلى ثلاثة حروف أصلية ، مانعرفه من اللغة العربية ، وفي صنع الاسم والفعل ، وفي تصريف الفعل ، واتصال الضمائر بالاسم والفعل . وفي الضمائر المتصلة والمنفصلة ، وفي اسم الإشارة ، والموصول ، وفي اسم العدد ، والإفراد والتثنية والجمع ، وفي المشتقات ، وفي الالفاظ الأساسية الدالة على صلة القرابة ، مثل :(أب ، أم ، أخ ، إبن ..) ، وعلى أعضاء الجسم (مثل : رأس ، عين ، أنف ، أذن ، يد ..) ، وفي الالفاظ التي تدل على الحيوان مثل :(ثور ، حمار ، كلب ، ذئب ..) ، والتي تدل على النبات (مثل:عنب ، زيتون ، تفاح..) وغيرها من الألفاظ التي يستخدمها الإنسان في حياته اليومية ، والخصائص اللغوية التي يعدها علماء اللغة أساسية عندما يقرون انتماء اللغات واللهجات إلى أرومة واحدة ، ويردونها جميعاً إلى لغة أم واحدة ، ثم تفرعت من بعد إلى لغات ولهجات لظروف وأسباب مختلفة يعود أولها إلى تفرق الأبناء في بقاع مختلفة ، وبلاد نائية أو قريبة ، وإلى اختلاط أهلها بغيرهم من الشعوب التي تتحدث لغات غريبة عنهم[(١٤)] . وتوصل شلوتزر حينئذ إلى مقولة : « من البحر المتوسط إلى الفرات ، ومن أرض مابين النهرين حتى بلاد العرب جنوباً ، سادت ، كما هو معروف لغة واحدة ، ولهذا كان السومريون والبابليون والعبريون والعرب شعباً واحداً . وكان الفينيقيون (الحاميون) أيضاً يتكلمون هذه اللغة التي أود أن أسميها اللغة السامية»[(١٥)] . ويتبين لنا من الاطلاع على النتيجة التي توصل إليها شلوتزر أنه اعتمد على القرابة اللغوية، وعد هذه حجة بنى عليها قرابة الشعوب، بل وانتماءها إلى جد واحد هو سام بن نوح. ولما كانت القرابة اللغوية ، أو اللغة بعامة، لاتكفي للتأكيد على الإنتماء الجنسي الواحد، ولاتمثل سوى عامل واحد من العوامل التي تكون الأمم والشعوب، فإن رأيه لايعتد به، بل تنقصه قرائن أخرى، مثل

---

(١٤) ارجع لمزيد من التفصيل والشواهد اللغوية إلى كتابنا« المدخل إلى اللغة السريانية وآدابها» حلب ١٩٧٥ ، ص٢٥ -٢٩ .

(١٥) Schlozer und Eichhorn, von den Chaldäern, in Repertorium für biblische und morgenlandische Literatur VIII, Leipzig 1781, S. 161' ؛ ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية (١٩٨٠) ، ١٤.

http://www.al-maktabeh.com

الاشتراك في المعتقدات الدينية ، وفي العادات والتقاليد التي تنبثق عنها التشريعات والقوانين التي تنتظم العلاقات الداخلية بين الأفراد بخاصة ، بل والموطن الجغرافي الواحد الذي يجمع بين الأبناء . ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن الشعوب السامية تتوافر فيها كل هذه القرائن ، ولكننا لانرى في تشمية «الساميين» اصطلاحاً يعبر حقيقة عن أصل هذه الشعوب الواحدة ، لأنها تسمية توصل إليها شلوتزر واستنبطها من نص تواراتي مضطرب ، ولاتقوم على أساس تاريخي أو علمي صحيح. فالنص التوارتي ذاته يذكر أن كنعان هو ابن لحام ، والمعروف أن الكنعانيين (الفينيقيين) كانوا يتحدثون لغة«سامية» ، بل هي أقرب اللغات إلى لغة كتّاب التوراة العبرية. ونحن عندما نقسم اللغات السامية إلى أقسامها المعروفة نجعل اللغة العبرية فرعاً من اللغة الكنعانية الأم . ثم نجد في النص العبري اسم عيلام يسبق اسم آشور وآرام بين أبناء سام ، أي هو بمثابة الابن الأكبر لسام والمعروف أن اللغة العيلامية (أوالإلامية) لاتمت إلى اللغات السامية بأية صلة ، بل هي لغة إيرانية ، وأهلها كانوا يسكنون الجهات الجنوبية الشرقية المجاورة لبلاد الرافدين ، وهم أقرب إلى سكان الجهات الجبلية الشرقية والشمالية الشرقية لبلاد الرافدين ، القدماء الجوتيين واللولوبين والكاشيين ، منهم إلى جيرانهم الساميين كماتنص التوارة على أن الحثيين ينحدرون من كنعان . والمعلوم أن الحيثيين كانوا يتكلمون لغة هندية - أوربية لاهي من أصل سامي ، ولاهي من أصل حامي . وهذا يؤدي إلى خلل حجة شلوتزر اللغوية والأساس الذي بنى عليه رأيه المتصل بأصل الشعوب«السامية» الواحد ، لاختلاط المفاهيم التاريخية في أذهان كتبة التوارة ، ووقائع الأمور السياسية التي كانت تجري في زمنهم وماسبقه من أزمان ، تلك الأحداث والوقائع التي جعلت دول بلاد الرافدين المتتالية تسيطر لفترات طويلة وتفرض هيمنتها على عيلام، وحملت الكنعانيين على الخضوع لمصر أو للحيثيين في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد . ولعل كتبة التوراة أرادوا تمييز بني قومهم عن الكنعانيين بخاصة الذين كانوا سكان فلسطين قبلهم ، وهي التي تسمى في كتابهم المقدس ذاته باسم«أرض كنعان» ، فجعلوا الكنعانين أبناء لحام ، ونسبوهم إلى جد غير جدهم ، ليباعدوا بينهم وبين أعدائهم الذين اغتصبوا منهم

مكتبة المهتدين الإسلامية

أرضهم وحضارتهم ، بل ولغتهم الكنعانية وصاروا يتحدثون لهجة من لهجاتها . فثمة اعتبارات سياسية وأخرى عرقية أملت على كتبة أسفار العهد القديم تقسيم الشعوب ، وانتسابها إلى سام وحام ويافث .

ولما تأكد خطأ تسمية «الساميين» التاريخي واللغوي المستمدة من النص التوراتي ، فإن محاولات عدة بادربها بعض المهتمين بالموضوع لابتكار تسمية أخرى، ولكن أحداً منهم لم يوفق في اختيار تسمية صالحة تفضل هذه التسمية الدارجة التي لقيت انتشاراً كبيراً من بعد ظهورها ، على الرغم من تنبه بعض كبار المستشرقين إلى عدم كفايتها العلمية ، وسعي عدد من الباحثين العرب الجاد إلى استخدام تسميات ، مثل «العرب» ، و«العرب القدماء » ، «والجزريين» نسبة إلى شبه الجزيره العربية ، واستناداً إلى أن تلك الأقوام على مختلف أسمائها الشائعة ، من أكديين وبابليين وآشوريين ، وآراميين ، وكنعانيين وعرب ، جاءت من شبه الجزيره العربية التي منها كان انطلاق هجراتهم ، وإليها يعود أصل لغاتهم . ولكن هذا مجرد افتراض لم يتم التأكد من صحته بالدليل القاطع ، بل لايتعدى حدود النظرية التي لها من المسوغات مايهيء لها أن تحتل مكان الصدارة بين النظريات الأخرى التي تسعى إلى تحديد الموطن الأصلي لتلك الأقوام فحسب ، حتى لو ثبتت صحتها ، ونحن نميل إلى الأخذ بها بكل قناعة ، فإننا مازلنا نرى أن تسمية «الساميين» اصطلاح لاضير من استخدامه على مايشتمل في أساسه من مغالطات تاريخيه وعلمية ونحن نعي دلالته العامة التي تؤكد وحدة الأقوام السامية الحضارية وتاريخها المشترك ، ولغاتها التي لانشك في أنها تعود إلى لغة أولى ، لغة أم ، مالم نجد البديل العلمي الصالح لهذه التسمية الذي ، إن وجدناه ، فإن وقتاً طويلاً سيمضي قبل أن يلقى انتشاراً يغطي على انتشار اصطلاح « الساميين » و«اللغات السامية» في كل مايمت إليه بصلة من دراسات وأبحاث علمية رصينة وصلتنا منذ ابتداعه في عام ١٧٨١ على يد شلوتزر ، حتى غدت هذه الدراسات كلها تندرج تحت اسم« الدراسات السامية» Semitistic التي تشكل فرعاً من «الدراسات الشرقية» Orientalistic في جامعات العالم المرموقة . وعنها تتفرع الدراسات الآشورية Assyriology التي تعني الأبحاث المتصلة بحضارة بلاد

http://www.al-maktabeh.com

الرافدين وكل التراث المدون بالخط المسماري . ثم ظهر مايسمى«الدراسات الأكدية» Akkadistic[١٦] التي حلت محلها نسبة إلى أكد ، أول دولة سامية في بلاد الرافدين، والدراسات السومرية Sumeriology وظهر مايدعى الدراسات الآرامية Aramaistic» والدراسات العربية Arabistic والدراسات العبرية Hebraistic وهذا يعني أن المصطلح يظهر عاماً بمعناه ودلالته العملية ، ثم للاختصاصيين أن يوجهوه بحسب الدلالة الخاصة المتوخاة ، وبما يتوافق وطبيعة الدراسة العلمية الدقيقة . وإننا نرى أن هذا ماحدث بالفعل عندما انتقل الباحثون من «السامية» و«الساميون» إلى « الأكدية » وحضارة أهلها «الأكديين» في بلاد الرافدين ، من بابليين وآشوريين . ومنها إلى «الآرامية» وحضارة أصحابها «الآراميين» الذين انتشروا في سورية والعراق . ومن السامية إلى العربية ، وإلى العبرية ، وإلى السبئية Sabaistic ومازالت هذه العلوم تشهد ظهور دراسات علمية أكثر تشعباً يوماً بعد يوم .

اللغات السامية

يجمع علماء اللغة السامية مع اللغات الحامية في أسرة لغوية واحدة تقابلها اللغات الهندية – الأوربية وتقسم اللغات السامية بحسب قرابتها والمناطق الجغرافية التي يتوزع فيها متكلموها إلى ثلاثة أقسام هي :

أ – القسم الشمالي الشرقي : ويشتمل على لغات سكان بلاد الرافدين الساميين ، ويتمثل بداية باللغة الأكدية التي ظهرت آثارها منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، وتعاظم دورها وتأثيرها في جنوب غربي آسية منذ قيام الدولة الأكدية على يد الملك سرجون (شروكين ، كما يسمى في الكتابات الأكدية) بدءاً من

---

(١٦) ظهرت معاجم اختصاصية لهذه اللغات على مختلف لهجاتها نتيجة لجهود جبارة استغرقت سنوات طويلة قام بها كبار المختصين من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان في شيكاغو (الولايات المتحدة الامريكية) ، وفي ألمانيا باسم : = Chicago Assyrian Dictionnary CAD ; Akkadisches Handwörterbuch = AHW والمعجمان كلاهما ، وإن اختلف اسماهما، إنما هما للغة واحدة هي اللغة الأكدية وفرعيها البابلية والآشورية القديمة والوسيطة والحديثة.

مكتبة المهتدين الإسلامية

عام ٢٣٤٠ ق . م ، وصارت تمثل لغة كل سامیي بلاد الرافدين ، على الرغم من إفادتها من الكتابة المسمارية المقطعية التي ينسب اختراعها إلى السومريين . ووصل تأثير اللغة الأكدية إلى كل المناطق التي بسطت عليها الدولة الأكدية سلطانها، وانتشرت بوساطتها الكتابة المسمارية في معظم بقاع جنوب غربي آسية: في الأناضول ، وفي سورية ، وأرمينية وعلى طول الساحل الشرقي للخليج العربي وصولاً إلى عمان ، وازدادت رسوخاً في المناطق التي كانت تعرفها من قبل. ثم لم تلبث اللغة الأكدية أن وجدت استمرارية لها فيما دعي في جنوبي بلاد الرافدين ، حيث كانت في الأصل ، باللغة البابلية نسبة إلى عاصمة البلاد في عصر الدولة البابلية القديمة التي ظهرت في بداية الالف الثاني قبل الميلاد . وفي شمال بلاد الرافدين حيث نشأت اللغة الآشورية التي نسبت إلى آشور، حاضرة الدولة الآشورية القديمة ، وعاصمة شمال بلاد الرافدين الأولى . وتعاصرت بذلك اللغتان البابلية والآشورية اللتان تعدان فرعين لغويين للغة السامية الأكدية ، وبالأحرى امتداداً لها ، اختلفا في بعض الظواهر اللغوية اختلافاً طفيفاً تنبه إليه اللغويون الاختصاصيون الذين لاحظوا تطورهما ، وحددوا لهما سمات مازوها في ثلاث مستويات لغوية تاريخية ، هي :

اللغة البابلية القديمة ، واللغة الأشورية القديمة ، واللغة البابلية الوسطى ، واللغة الآشورية الوسطى ، واللغة البابلية الحديثة ، واللغة الآشورية الحديثة[١٧].

وتعارف الباحثون على تسمية لغات القسم الشرقي الرافدي كلها باسم اللغة الأكدية أو باسم اللغة البابلية ، لأن البابلية كانت خير مايمثل القسم الشرقي من اللغات السامية ، ولأنها مثلت لغة الحضارة البابلية التي غدت عنواناً لحضارة الشرق القديم ، وخير معبر عن أصالة الحضارة الشرقية بعامة . وقد ترك ذلك أثره الواضح في أن اللغة البابلية احتلت مكان اللغة الدولية ، واللغة الدبلوماسية حقبة من الزمن تنوف على الألف سنة في تاريخ الشرق القديم ، وذلك بعد ظهور المملكة البابلية القديمة ، وبعد سيادة ملكها المشهور حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م) على

---

(١٧) W. von Soden, Grundriss der akkadischen Grammatik, Roma 1952

http://www.al-maktabeh.com

كامل تراب بلاد الرافدين ، وفرض نفوذها ، وانتشار الحضارة البابلية وذيوع صيتها في الشرق القديم . فظهرت آثار اللغة البابلية في كل مراكز حكم الشرق الأدنى القديم ، وفي عواصم الدول المعاصرة : في سورية ، وفي آسية الصغرى ، وفي عيلام ، وفي مصر . في مملكة ماري ، ويمحاض ، وقطنا ، والالاخ، وفي مملكة أوغاريت ، والمدن الفينيقية ، وفي سوسة ، وخاتوشا، وفي أخيتاتون (حيث عثر على رسائل تل العمارنة) . واستمرت اللغة البابلية وكتابتها المسمارية لغة الشرق القديم الأولى ، إلى أن حلت محلها اللغة الآرامية (السامية) في منتصف الألف الأول قبل الميلاد . فتم العثور على الرقم المسمارية البابلية في كل القصور الملكية حيث كانت تشكل القسم الأعظم من المحفوظات (الأرشيفات) الملكية ، إضافة إلى الرقم الخاصة بمواطني تلك الدول ذوي الصلات التجارية بجيرانهم .

ب - القسم الشمالي الغربي : ويشتمل على شعبتين كبيرتين هما :

١ - **الكنعانية** ، وتتمثل في عدد من اللغات المعروفة من خلال آثارها الكتابية الكثيرة ، وتأتي في مقدمتها اللغة الأوغاريتية ، والفينيقية . أما الأوغاريتية فهي لغة سكان أوغاريت التي دونت بكتابة خاصة ذات مبدأ الفبائي ، تعد أول كتابة أبجدية (ألفبائية) عرفها الإنسان منذ تاريخه القديم ، ذات شكل مسماري ، ابتكرها الساميون في أوغاريت (في موقع رأس الشمرة في شمال الساحل السوري) في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد . وقد خلف أهلها تراثاً أدبياً يعد الآلاف من الرقم، وأخباراً ومعلومات سياسية تغطي فترة قرنين من تاريخ الشرق القديم ، هما الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد .

واللغة الفينيقية هي لغة دول المدن الواقعة على الساحل السوري واللبناني والفلسطيني اليوم ، من مثل جبيل (بيبلوس) ، وصيدا ، وصور . ودونت معظم آثارها بكتابة دعيت نسبة إليها باسم الكتابة الفينيقية . وهي كتابة أبجدية تتألف من اثنين وعشرين حرفاً ، تمّ ابتكارها في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد ، وتعد أصل الكتابات الأبجدية كلها التي ابتكرها الإنسان ، ومازال يستخدمها إلى اليوم ، ومنها الكتابة اليونانية ، والكتابة اللاتينية ، والكتابة العربية.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وينتمي إلى شعبة اللغة الكنعانية ايضاً اللغة العبرية ، وهي لغة القبائل الإسرائيلية التي غزت فلسطين في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد وبداية القرن الثاني عشر ، وكتبت بالكتابة الآرامية المشتقة من الكتابة الفينيقية ، وخلفت أثراً كتابياً رئيساً يتمثل في كتاب العهد القديم .

وثمة آثار كتابية قليلة تخص لغات كنعانية قليلة الأثر تدعى باسم اللغة الأدومية ، واللغة المؤابية ، نسبة إلى الأدوميين والمؤابيين في المناطق الواقعة الى الشرق من نهر الأردن ، وهما شعبان ساميان عاصرا أحداث الغزو الإسرائيلي لفلسطين في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وأيام الدولة الآشورية الحديثة .

٢ - الآرامية : وهي لغة القبائل الآرامية التي ظهرت في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد في سورية ، ثم انتشرت في انحاء سورية الداخلية وفي بلاد مابين النهرين ، وأقامت عدداً من الدويلات التي مانفكت تتصارع مع الآشوريين حتى زوال دولتهم . ثم صارت لغة دولية حلت محل اللغة البابلية منذ منتصف الألف الأول قبل الميلاد . واستمرت ، حتى ظهور العرب المسلمين على مسرح تاريخ الشرق القديم ، فحلت العربية محل الآرامية وغدت لغة الإسلام حيثما انتشر وتمكن ، ولاسيما في جنوب غربي آسية ، وفي شمالي أفريقية ، وشماليها الشرقي ، ومن اللافت أن الآرامية تمّ انتشارها بيسر وسهولة ، وأن العربية لم تجد عقبات تحد من انتشارها في المناطق ذاتها التي كانت تنتشر فيها البابلية ، ثم الآرامية من بعدها ، وذلك لقرب هذه اللغات من بعضها ، بل وتطابقها في معظم ظواهرها وسماتها اللغوية ، فهي من أصل واحد ، وفروع للغة أم واحدة .

اتخذ الفرس اللغة الآرامية لغة رسمية لإدارة المقاطعات الغربية لامبراطورتهم بعد القضاء على الدولة الكلدانيه في نهاية القرن السادس قبل الميلاد (حوالي عام ٥٣٩) فسميت باسم اللغة الآرامية الملكية Reichsaramaisch . ثم انقسمت لهجاتها إلى قسمين رئيسين : اللغة الآرامية الشرقية ، واللغة الآرامية الغربية . وتتمثل الآرامية الشرقية باللغة السريانية ، واللغة المندعية . أما الآرامية الغربية فتتمثل بلغة بعض المقاطع في أسفار العهد القديم ، وبلغة التلمود الأورشليمي ، وبلغة الكتابات النبطية ، وبلغة الكتابات التدمرية ، وقد كتبت آثار اللغة الآرامية كلها بخط مشتق من الكتابة الفينيقية . ثم طورها السريان والأنباط

http://www.al-maktabeh.com

الى كتابة تتصل حروفها ببعضها بعدأن كانت تكتب منفصلة الحروف .

جـ - القسم الجنوبي الغربي : ويشتمل على ثلاث شعب لغوية ، هي :

١ - اللغة العربية الشمالية : وهي لغة عرب الشمال الذين كتبوا في بداية أمرهم بخط أبجدي مقتبس من خط المسند العربي الجنوبي، ثم دونوا لغتهم العربية الفصحى ، وهي التي تمثلها لغة القرآن الكريم ، ولغة الأدب الجاهلي ، دونوها بقلم مشتق من السريانية والنبطية .

٢ - اللغة العربية الجنوبية : وهي لغة عرب اليمن التي خلف أهلها نقوشاً بلهجات : سبئية ، ومعينية ، وقتبانية ، وحضرمية ، بقلم يدعى باسم القلم المسند .

٣ - اللغة الحبشية (الأثيوبية) ، ودعيت نسبة إلى أقدم قبيلة عربية دخلت الحبشة ، هي قبيلة جعزاليمنية ، دعيت باسم اللغة الجعزية ، وقد دونت بقلم مشتق من قلم المسند اليمني، مازال الأثيوبيون يستخدمونه إلى اليوم .

وقبل أن ننهي حديثنا عن اللغات السامية لابد أن ننوه بأن معظم هذه اللغات التي ذكرناها انقرضت وبادت بعد أن خلفت نقوشاً كتابية تشهد على دور أهلها الحضاري الرائد في الوقت الذي عاشوا فيه . واستمر عدد منها في الحياة ، وفي مقدمتها اللغة العربية الفصحى التي ظهرت شواهدها اللغوية متأخرة عند مقارنتها بشقيقاتها ، ولكنها احتفظت بسمات اللغات السامية كلها ، وبخصائصها التي تميزها من غيرها من اللغات ، ولم يعتورها أي خلل يحط من مستوى أدائها ، ويعوق تطورها ، وازدهارها الحيوي ، وذلك بفضل القرآن الكريم الذي نزل بها ، فرفع من قدرها ، وجعلها نموذجاً حياً يتمثل به الكتاب ، والعلماء ، ورجال الحكم والتشريع الذين عبروا بها عن أغراض متنوعة ، فكانت أداة طيعة سخرت للتعبير عن كل متطلبات الحضارة والمدنية[١٨] .

---

(١٨) قارن لمزيد من الاطلاع عن « اللغات السامية» وأقسامها كتابنا الأول في هذه السلسلة ، سورية ص ٨٧ وما بعدها .

مكتبة المهتدين الإسلامية

الموطن الأصلي للساميين

ثمة نظريات تتحدث عن مواطن عاش فيها من يدعون باسم« الشعوب السامية » في العصور القديمة ، ثم هاجروا منها إلى مناطق استقروا فيها ، وأقاموا فيها حضارتهم ودولهم ، وصار بعضهم يحمل اسم تلك المناطق التي غدت علماً لهم ، مثل الأكديين نسبة إلى أكد ، والبابليين نسبة إلى بابل ، والآشوريين نسبة إلى آشور .

وقد دلل أصحاب هذه النظريات على صحتها بحجج وقرائن من لغات تلك الشعوب ، ومن طبيعة حياتها الدينية والاقتصادية والسياسية ، ومن خلال الآثار التي خلفتها في مواطنها الأصلية المزعومة ، وتذكر النظريات من المواطن الأصلية : شمالي أفريقية حيث كان الساميون والحاميون يعيشون معاً . وشرقي أفريقية حيث عاشوا في الحبشة وكانت لهم حضارة متميزة ثم انتقلوا منها عبر مضيق باب المندب إلى شبه الجزيره العربية ، وانتشروا بعدها في مناطق الهلال الخصيب أيضاً . وهناك من افترض أن أرمينية كانت موطناً لكل البشر الذين تحدروا من أبناء نوح : سام وحام ويافث بعد الطوفان العظيم الذي أهلك كل البشر ، وارتأى آخرون أن جنوب بلاد الرافدين كان الموطن الأصلي لكل الساميين لأن بيئتها تتمثل في كثير عن مفردات اللغات السامية وتنطبق معاني ألفاظها على طبيعتها . ورأى بعضهم أن سورية الداخلية، ولاسيما البادية السورية كانت الموطن الذي هاجر منه كل الساميين ، وضربوا على ذلك مثلاً هجرة الأكديين والأموريين والآراميين الذي قدموا من هذه البادية في ظروف محددة ، وخاصة القبائل الأمورية التي بدأت تحركاتها في أوقات رصدتها المصادر الأكدية والسومرية بدقة .

ولكن أكثر الباحثين مالوا إلى القول بأن شبه الجزيرة العربية كانت الموطن الأصلي للشعوب السامية ، إذ تتمثل فيها كل الشروط الداعية إلى الهجرة منها ، فالطبيعة منها لاتغري على اتخاذها موطناً ودار سكن دائم لمن يقيم فيها ، إذ أن مواردها المعيشية شحيحة ، وكلما زاد سكانها قلت تلك الموارد أكثر ، وغالباً مايصيب القحط مراعيها القليلة التي كان سكانها من البدو ، وهم الأغلبية، يعيشون

http://www.al-maktabeh.com

من ورائها في تغذية حيواناتهم ، فكانوايضطرون إلى البحث عن الكلأ والماء في مناطق أخرى . وقد دلت هجرة القبائل اليمنية ونقصد المناذرة والغساسنة بعد الميلاد، إلى العراق وسورية، على أن الضائقة الاقتصادية التي ألمت بأحوال اليمن ، بعد انتقال التجارة التي كانت سبباً رئيسياً من أسباب قيام دولها من أيدي اليمنيين إلى أيدي البطالمة والرومان وتحولها إلى طريق البحر، دلت على ان العامل الاقتصادي يلعب دوراً رئيسياً في هجرة الأفراد والجماعات ، بل والشعوب .

كما تشير العادات والتقاليد التي تميز الساميين من غيرهم، وهي العادات والأعراف التي ترسخت في قوانينهم وتشريعا تهم التي تنبئ عن أصل بدوي يتمسك أصحابه بعادة الأخذ بالثار، وشريعة « العين بالعين والسن بالسن » تشير إلى بيئة صحراوية ، محافظة وخشنة ، حريصة على المعاملة بالمثل ، خلافاً لما يعرف عن البيئة المدنية المتحضرة ذات العريكة اللينة ، التي تقوم أحكامها القضائية على أساس التعويض المادي عن الأضرار المادية والجسدية . وإن الصحراء العربية في شبه الجزيرة تعد والحال كذلك هي البيئة المثالية للعادات والتقاليد البدوية التي تمسك بها الساميون حتى بعد أن أقاموا الدول وأخذوا بأسباب الحضارة والمدنية .

ونذكر من الأسباب التي تدعونا إلى مناصرة أصحاب هذه النظرية ، وتفضيلها على غيرها من النظريات ، أن اللغة العربية هي اللغة السامية الوحيدة التي تتمثل فيها كل الخصائص اللغوية والسمات المميزة ، والظواهر الأصلية التي عرفتها اللغات السامية ، ولم تتخل عنها طوال حياتها ، ومنذ ظهور آثارها اللغوية الأولى ، بينما نجد شقيقاتها احتفظت بظاهرة وتخلت عن أخرى ، وعرفت سمة لغوية ، ولم تبد فيها السمات الأخرى . وأهم تلك السمات والظواهر اللغوية أصوات الحلق والإطباق ، وطرق اشتقاقها التي جعلت منها مخزناً لغوياً لاحدود له ، ومعنياً لاينضب بالمفردات والمعاني ، حتى غدت معاجم اللغة العربية المرجع الأول لدارسي اللغات السامية لفهم وتفسير ألفاظ ومعاني اللغات السامية الأخرى .

الهجرات السامية

افترض الباحثون هجرات قام بها« الساميون » من موطنهم الأصلي إلى

مكتبة المهتدين الإسلامية

المناطق التي استقروا فيها ، واتخذوها دار إقامة دائمة ، وعرفوا بأنهم سكانها الدائمون ، حيث أنشئوا فيها حضارتهم ، وأقاموا دولهم ، وارتبطت تسمياتهم بها ، كما ارتبطت أسماؤها بهم ، وهي مناطق شبه الجزيرة العربية ، وبلاد الرافدين ، وبلاد الشام .

وقدروا أن تلك الهجرات كانت تتوالى على شكل موجات يفصل بين الواحدة والأخرى حقبة من الزمن تستغرق حوالي ألف سنة :

١ - **الأكديون** : وتعد هجرتهم أول هجرة سامية ، وفد أصحابها إلى جنوبي بلاد الرافدين ، قادمين من مناطق الفرات الأوسط ، مارين بمدينة ماري (تل الحريري اليوم) ، ليدخلوا بلاد بابل من الشمال الغربي حيث يقترب مجريا نهر الفرات ونهر دجلة في حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد . ثم استقر القسم الاكبر منهم في منطقة ديالى وفي المنطقة الواقعة حول مدينة كيش وسيبار وإلى الجنوب منهما، وانتشروا في المناطق الأخرى التي عرفت باسم أرض سومر بأعداد أقل، ورفدوا بجماعاتهم الوافدة إخوانهم من الساميين الذين كانوا مستقرين هناك منذ العصر الشبيه بالكتابي، ومنذ حوالي الألف الخامس قبل الميلاد [١٩]. وبعد أن انتقلوا إلى التحضير وسكنى المدن، وعملوا في الزراعة وفي بعض الحرف الأخرى، ظهر من ظهرانيهم رجل قوي، هو سرجون الأكدي، وحد صفوفهم، واغتصب الحكم في مدينة كيش، في عام ٢٣٤٠ ق . م. ثم جعل مركز حكمه في مدينة أكد التي أنشأها بنفسه، والتي سمي شعبه نسبة إليها، وسميت منطقة سلطته الأولى أيضاً باسم أرض أكد. وتسلم الساميون منذئذ الريادة في السياسة والحضارة، وبدأ دورهم الفعال يتزايد في بلاد الرافدين، ويتضاءل دور السومريين بمرور الزمن . وقد تعايش الطرفان ، الساميون والسومريون، في سلام، ولم تصرح أي من الوثائق الكتابية عن نزاع قام بين الطرفين، بل كان النزاع في الواقع ينشب بين سكان المدن والقرى، وبين البدو والذين كانوا يطمعون في خيراتهم، ويتوقون إلى نهب ممتلكاتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، كما سنرى لدى الحديث عن الدول ،

---

(١٩) Edzard, in FW,2,63.

http://www.al-maktabeh.com

ومن بينها في عصر الدولة الأكدية نفسها ، عندما طارد الملك شركليشري (٢٢٢٣-٢١٩٨ق.م.) قبائل الأموريين (الساميين) إلى عقر دارهم في البادية السورية .

٢ - **الأموريون** : أو العموريون الذين دعتهم المصادر الأكدية بهذا الاسم ، (أمورو) ويعني «جهة الغرب» ، كما دعتهم المصادر السومرية باسم (مارتو) ، الذي يعني «الغرب» أيضاً ، وكانوا يعنون بذلك القبائل البدوية التي كانت تفد من غربي بلاد مابين النهرين ، وتهدد أمن المدن الأكدية والسومرية ، وتشكل خطراً داهماً لحكومات تلك المنطقة السومرية منها والسامية على السواء . وكان الأموريون قد بدأوا تحركهم على شكل هجرة شعوبية كبيرة في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، ثم انتقلوا إلى التحضر في بداية الألف الثاني قبل الميلاد ، فأقاموا في المدن السورية ، وفي مدن بلاد الرافدين ، وتوصلوا حينئذ إلى حكم كل المناطق التي استقروا فيها : في آشور حيث قامت أسرة حاكمة ، اشتهر من بين ملوكها حمورابي(١٧٩٢-١٧٥٠) وفي ماري ، في منطقة الفرات الأوسط . وفي شمالي سورية : في مملكة يمحاض ، وعاصمتها حلب ، وفي ألالاخ (تل العطشانة) ، وفي قطنا على نهر العاصي .

ويشكل الأموريون و الكنعانيون هجرة واحدة ، ويدعو بعضهم الأموريين باسم الكنعانيين الشرقيين، أي يجعلهم والكنعانيين شعباً سامياً واحداً. بينما يعد بعضهم الكنعانيين فرعاً من الأموريين . ويتبين من آثارهم اللغوية أن لغتهم كانت واحدة ، على الرغم من أن الأموريين في بلاد الرافدين لم يكتبوا لغتهم ، وإنما استخدموا اللغة البابلية والآشورية وكتابتهما المسمارية . ولكن أسماءهم تكشف عن أصلهم الأموري - الكنعاني، وتفصح بتركيبها الخاص المعروف في اللغة الكنعانية عن هويتهم السامية الغربية. ودعا الإغريق الكنعانيين باسم الفينيقيين الذي استوطنوا الساحل السوري، وأقاموا مدنهم عليه، كما عرفت فلسطين باسم «أرض كنعان» قبل أن تحمل اسمها المعروف [٢٠].

---

(٢٠) لمزيد من التفصيل أنظر كتابنا : سورية ، ص٩٧-١٠٥ ؛ ١٤٥ - ٢٤٧:١٩٣ وما بعدها .

مكتبة المهتدين الإسلامية

٣ - **الآراميون** : استوطن الآراميون سورية الداخلية قبل أن يبدأ انتشارهم في أنحاء مختلفة من سورية، باستثناء المناطق الساحلية حيث كان يستقر أشقاؤهم الكنعانيون، كما توجهوا في منتصف الألف الثاني إلى شمالي بلاد الرافدين ، وإلى منطقة الجزيرة العليا ، وإلى جنوبي بلاد الرافدين . فأقاموا عدداً من الدويلات في كل المناطق التي استقروا فيها بدءاً من النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد ، ولكن الآشوريين كانوا في عصر دولتهم الوسطى ، ثم في عصر الدولة الآشورية الحديثة ، يكيلون الضربات المتتالية للآراميين الذين كانوا يقفون بدورهم في وجه التوسع الآشوري في الشرق القديم . ونجحت إحدى القبائل الآرامية التي استقرت في جنوب بلاد الرافدين ، وهي قبيلة كلدو ، بالوصول إلى حكم بابل في أواخر القرن السابع ق.م ، ثم في القضاء على الدولة الآشورية ذاتها ، وأقامت «الدولة الكلدانية» أو الدولة البابلية الحديثة . وكان الآشوريون يسمون الآراميين باسم «الأخلامو» نسبة إلى أكبر قبائلهم ، كما يبدو ، أو يدعونهم باسم«سوخو» و«سوتو»[21].

تعد هجرة الآراميين آخر الهجرات السامية التي سبقت الهجرات العربية المتقطعة التي أقامت عدداً من الدول التي عرفها التاريخ باسم «دولة الحضر» في شمالي العراق أيام الدولة الفارسية الساسانية ، و«دولة المناذرة» في جنوبي العراق في وقت معاصر لقيام دولة الغساسنة في سورية وسبقتها دولة الأنباط في جنوبي سورية التي ازدهرت قبل الميلاد بقرنين وفي القرن الأول الميلادي ، ثم دولة تدمر في قلب سورية التي أقامت مملكة واسعة بعد الميلاد ضمت مصر لفترة قصيرة ، ثم وضعت لها الامبراطورية الرومانية حداً حوالي عام ٢٧٣م.

ويعد بعض المستشرقين خروج العرب من شبه الجزيرة العربية لنشر الإسلام في منتصف القرن السابع الميلادي، آخر موجة من موجات الهجرات السامية الكبيرة التي زادت من المواطن التي استقر فيها الساميون في العصور السابقة، حيث أضافوا إليها شمالي افريقية وشماليها الشرقي، كما انتشرت اللغة العربية

---

(٢٠) المصدر السابق ١٠٦ , ٢٦٥ومابعدها

http://www.al-maktabeh.com

في كل المناطق السامية السابقة وزادت عليها مناطق واسعة لم يتسن للغات السامية أن تصلها أو تستقر فيها ، وانتهى بظهورها الواسع دور اللغة الآرامية .

ج - أقوام أخرى ، السوباريون والحوريون:

سكنت المناطق الشمالية والشرقية من بلاد مابين النهرين والمناطق المتاخمة لها ، ولاسيما المناطق الجبلية أقوام غريبة ، ورد ذكرها في الوثائق الكتابية عند السومريين والأكديين ، ومن أتى بعدهم من الساميين . وكانت تلك الأقوام على علاقة عدائية ، أو لها صلات تجارية مع سكان بلاد الرافدين . ويبدو أن أقدم تلك الأقوام كان السوباريون الذين بدأ ذكرهم منذ عصر الأسرات السومرية المبكرة وهو العصر الذي شهد قيام دول المدن السومرية الأولى في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، وكانوا يقيمون في شمالي بلاد الرافدين ، ولاسيما في منطقة آشور وفي الجزيرة العليا ، قبل وصول الساميين الآشوريين إلى موطن إقامتهم الدائم بين نهري الزاب الأعلى والزاب الأسفل ، وعلى جانبي نهر دجلة . ثم عمل الآشوريون على ترحيل السوباريين إلى الجبال الشرقية المجاورة ، ولكن أعداداً منهم بقيت في أماكنها وتعايشت مع الأوضاع الجديدة الطارئة . لم يكن لأولئك السوباريين أصل معروف ، ولم يتمكن الباحثون من التعرف على لغتهم التي لم يتخلف من آثارها سوى بعض أسماء الأمكنة والمدن ، وبعض أسماء الآلهة . وبقي اسم سوبارتو ، وبلاد سوبارتو من بعد زوال تأثير السوباريين في النصوص البابلية مرادفاً لبلاد آشور والآشوريين حتى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، حيث يصف ملك بابل مردوخ بلدان خصمه الملك الآشوري سرجون الثاني المشهور بلقب «ملك بلاد سوبارتو» بدلاً من اللقب المعروف«ملك آشور» . كما كان ملوك الدولة الكلدانية يسمون شمالي بلاد الرافدين بهذا الاسم . أما الآشوريون فكانوا يتحاشون استخدام كلمة سوبارتو اسماً لبلادهم ، لأنها صارت تعني في لغتهم أيضاً ما يدل على صفة «العبد» [٢٢] ، إذ كان الآشوريون يتسلطون على السوباريين ويستعبدونهم .

---

(٢٢) طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة /١ ، ص٧٥-٧٦

مكتبة المهتدين الإسلامية

ووصل الحوريون منذ نهاية الألف الثالث إلى المناطق الواقعة في شمالي الهلال الخصيب ، قادمين من جهات بحيرة فان . وقد ساعد على انتشارهم الواسع في تلك المناطق قدرتهم الكبيرة على تشرب الحضارة البابلية وتقمصها ، وتعايشهم السلمي مع سكان المناطق التي أموها ، ولاسيما مع الساميين ، من آشوريين وأموريين ، ولم يحاولوا إنشاء دولة لهم ، لأن طموحهم إلى ذلك لم يظهر قبل منتصف الألف الثاني قبل الميلاد حين ظهر الميتانيون الذين سعوا إلى إقامة دولة قوية عرفت باسم دولة الحوريين الميتانين ، وجعلوا مركزها في الجزيرة العليا ، حيث اتخذوا عاصمة لهم حملت اسم واشوكاني ، كانت تقع قرب مدينة رأس العين اليوم على أحد منابع نهر الخابور ، وقد دعى الآشوريون هذه الدولة باسم خاني جالبات ، وسماها المصريون باسم مثن(ميتاني) ونهارينا . فلعبت دوراً هاماً في تاريخ المنطقة إذ تنافست مع ملوك الدولة المصرية الحديثة في البداية على السيطرة على سورية ، ثم تصالحت معهم ، ودخلت فيما بعد في منافسة خطيرة مع دولة الحثيين ، ومع الدولة الآشورية الوسطى ، قبل أن يقضى عليها في أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد . واتخذ الحوريون لهم في شمالي العراق مركزاً رئيساً يقع في منطقة نوزي في حوالي نهاية القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، قرب مدينة كركوك اليوم ، كما ظهرت آثار لهم قرب مدينة الموصل وكان تأثيرهم أوضح في شمالي سورية ، ولاسيما في مملكة يمحاض ، وفي الآلاخ ، وأوغاريت ، حيث ظهرت أسماؤهم ، وآثارهم الكتابية بكثرة [٢٣] .

كما ظهرت في أخبار الملوك في بلاد مابين النهرين أسماء شعوب كانت تقيم في المناطق الجبلية الشمالية والشرقية تعرض لها الملوك بالغزو زمن الدولة الأكدية ، ومن هؤلاء اللولوبيون ، والجوتيون الذي سيرد ذكرهم لدى الحديث عن الدول التي قامت في بلاد مابين النهرين بالتفصيل ، ومثلهم الكاشيون .

---

(٢٣) أنظر كتابنا ، سورية ١١٦ – ١٢١ ، ١٦٣ ، ٢٢٥ لمزيد من التفاصيل ؛ طه باقر ، المرجع السابق ٧٨ – ٧٩

http://www.al-maktabeh.com

فجر التاريخ واختراع الكتابة

يطلق اصطلاح «العصر الشبيه بالكتابي Proto - literate » أو «العصر الشبيه بالتاريخي Proto - historic » على العصر الذي سبق العصور التاريخية وظهرت فيه ملامح الكتابة الأولى في بلاد مابين النهرين . ويتميز هذا العصر الذي يعد بمثابة فجر التاريخ بظهور بعض الإنجازات الحضارية الجديدة ، ومنها المعابد العالية التي تدعي باسم الزقورات ، وهي المعابد التي كانت تقام على أكثر من مصطبة ، والأختام الأسطوانية ، ودولاب (عجلة) الخزاف في صناعة الأواني الفخارية ، وظهور المدن الأولى التي تطورت عن القرون الكبيرة السابقة ، وفن النحت بنوعيه المجسم والبارز . وتمت هذه الإنجازات كلها ، إضافة إلى استمرار التقدم الحضاري السابق ، في الطور الأخير من أطوار حضارة أوروك(الوركاء) الذي تمثله الطبقتان الخامسة والرابعة ، ثم الطبقتان الثالثة والثانية اللتان تتطابقان مع حضارة جمدة نصر التي تمثل بدورها الطور الأخير من حضارة الوركاء . ويدخل في هذا العصر كذلك مايسمى بعصر « بداية الأسرات الأول» بحيث يمتد تاريخه من حوالي ٣٥٠٠ ق . م إلى عام ٢٨٠٠ ق . م [٢٤].

أما اختراع الكتابة فيعد أعظم إنجازات هذا العصر ، فقد ظهرت في الطبقة الرابعة آ من آثار مدينة أوروك الأشكال الكتابية الأولى في بلاد مابين النهرين ، في أحد المعابد حيث عثر على مايزيد على خمسمائة لوح طيني . وكانت الأشكال تمثل صوراً ، مختزلة أحياناً لأشياء مادية ، وتشكل قوائم إحصائية بممتلكات المعبد من الحقول والأغنام والماعز ، وغيرها من الحيوانات ، وإشارات إلى دخل المعبد من المحصولات الزراعية والسلع المتنوعة، فقد كان المعبد مركزاً للانتاج وللحياة الاقتصادية في المدينة، كما يفهم من الإشارات الأخرى أنها تدل على الأعداد المحددة لرؤوس الماشية، وماكان يصرف من أجور ومخصصات يومية للعاملين. ويتبين من هذا كله أن الغرض من الكتابة في بواكيرها الأولى كان للإفادة، منها في

---

(٢٤) طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة /١، ٢٣٤ ؛ محمد عبداللطيف محمد علي ، تاريخ العراق القديم ١٢٩ وما بعد .

مكتبة المهتدين الإسلامية

تدوين الشؤون الاقتصادية، ولم تبتكر لنقل الأحداث أو لكتابة الأدب ، أو لخدمة الدين بشكل مباشر . وأن المعبد كان الجهة المستفيدة الأولى من خلال دوره في المجتمع المدني الأول كمركز للإنتاج ومصنع للخزف ومشغل للعمال (٢٥).

دونت هذه الأشكال المصورة على ألواح من الطين بواسطة قلم من القصب كانت تحفر به على الطين وهو لايزال طرياً ، ثم تترك لتجف طبيعياً ، أو تشوى في الفرن ، لتصلب وتتحجر. وكانت بعض الأشكال تبدو كالصور الطبيعية والمتطابقة مع ماتمثله من حيوان أو نبات إلى حد كبير ولكن أكثرها يبدو علامات مختزلة للصور ، يشتمل على أجزاء بارزة ومتميزة منها ، أو يظهر على شكل خطوط بسيطة هي أقرب إلى الرموز منها إلى الصور. مما يدلل على أن هذه الكتابة البدائية سبقتهامرحلة كانت تعتمد على الصورة الكاملة لما تمثله من موضوعات ، وأنها مرحلة لاحقة وليست المرحلة الأولى . فالكتابة بدأت مرحلة أولى تصويرية صرفة ، ثم تبعتها مرحلة طورت الصور الكاملة إلى صور مختزلة ، كأن يعمد الكاتب إلى الاكتفاء من صورة الثور ، أو الخروف ، أو الحمار بأهم مايميزها ، وهو الرأس : رأس الثور، ورأس الخروف ، ورأس الحمار . ومن الشجرة ، الورقة، ومن الشمس الدائرة .

ثم حلت محل هذه الصور المختزلة علامات ذات صلة واضحة بالصور الأصلية ، وهذه المرحلة تمثلها خير تمثيل الألواح الطينية التي تم العثور عليها في الطبقة الرابعة من آثار مدينة الوركاء، والتي يعود تاريخها الى حوالي عام ٣٢٠٠ ق . م

ويتضح من هذه الطريقة أن الشكل الواحد كان يعني كلمة كاملة ، وأن هذه الكتابة الأولى كانت تعتمد على عدد لامحدود من الصور والصور المختزلة . لذا توجب على الكاتب أن يبحث عن طريقة يختصر من خلالها الصور ، وأن يطور تلك الكتابة بحيث تغدو عملية أسهل تناولاً . فعمد إلى ابتكار أشكال اشتقها من حيث الظاهر من الصور الحقيقية ، ولكنها صارت تختلف في الواقع حتى في الشكل عن

---

(٢٥) هنري فرانكفورت ، فجر الحضارة في الشرق الأدنى ٦٧.. A. Falkenstein, in FW,2,44.

http://www.al-maktabeh.com

الصورة الأصلية وتحولت الى رموز حقيقية ، فتمكن بذلك من تقليص عدد الأشكال في الفترة الواقعة بين طورها الأول ، بعد البدائي الصوري الصرف ، وبين نهاية عصر الأسرات السومرية المبكرة من حوالي ٢٠٠٠ إلى ٦٥٠-٧٠٠ رمزاً فحسب . وقد استعان في هذه العملية الناجحة بوسيلة لغوية ، تدل على حسن لغوي أصيل ، تتمثل في استخدام الرمز للدلالة على أكثر من معنى حيثما توافر ذلك في اللغة : كأن يكتب الشكل (الرمز) المعبر عن «العين» ، أي عضو البصر ، ولكنه يقصد به «الجاسوس» ،أو « نبع الماء» لأن كلمة العين بلفظها ، وبأصواتها لها معان متعددة . وأن يكتب الشكل الخاص بالسبع ، أي الأسد ، ويقصد به الرقم ٧ . وهذا يعني أن الكاتب كان يستخدم شكلاً ، أو رمزاً (بعد أن طور الصورة) للشيء المحسوس ، ويقصد به شيئاً معنوياً يتطابق في لفظه مع الشيء المحسوس ، وهو مايطلق عليه في اللغة العربية «ماتطابق لفظه واختلف معناه»، ومثال ذلك في اللغة السومرية كلمة (تي) التي تعني «سهم» ، التي رمز لها الكتاب بصورة السهم فعلاً ، ولكنها تعني أيضاً « حياة» فاستخدموا رمز السهم للدلالة على لفظة «الحياة» أيضاً . وقد أدى تفسير هذا الرمز ، أي شكل السهم ، في العبارة إن - ليل - تي بمعنى « الحياة » الى قراءة العبارة وفهمها بمعنى " إنليل (وهو إسم الإله السومري الرئيس) ليهب الحياة ، وهي عبارة تم العثورعليها منقوشة على لوح طيني (رقيم) في جمدة نصر يتطابق في تاريخه مع أمثاله في الطبقة الثالثة ب في مدينة أوروك . وقد تأكد للباحثين من خلال مقارنة هذا الشكل الخاص بالسهم ، بالأشكال المشابهة في الرقم التي عثروا عليها في الطبقة الرابعة آ في مدينة أوروك من قبل ، أن لغة الكتابة الأولى كانت سومرية ، لأن اللغة السومرية وحدها هي التي تعرف للفظة (تي) معنيين ، هما : سهم ، وحياة . كما اتضح أن التطور الذي طرأ على الكتابة التصويرية الأولى التي وقع المنقبون عليها أول مرة في أوروك حصل في جمدة نصر أيضاً ، وأن السومريين هم الشعب الذي اخترع الكتابة الأولى في بلاد مابين النهرين ، وأنهم الشعب الذي بنى الحضارة في فجر التاريخ (٣٦) .

ثم خطت الكتابة خطوة أخرى إلى الأمام بعد أن صارت الرموز تعبر عن الأصوات أيضاً ، كما رأينا من مثال اللفظة السومرية(تي) ، إذ توسع مبدأ

---

(٣٦) A. Falkenstein, op. cit, p. 44-47.

مكتبة المهتدين الإسلامية

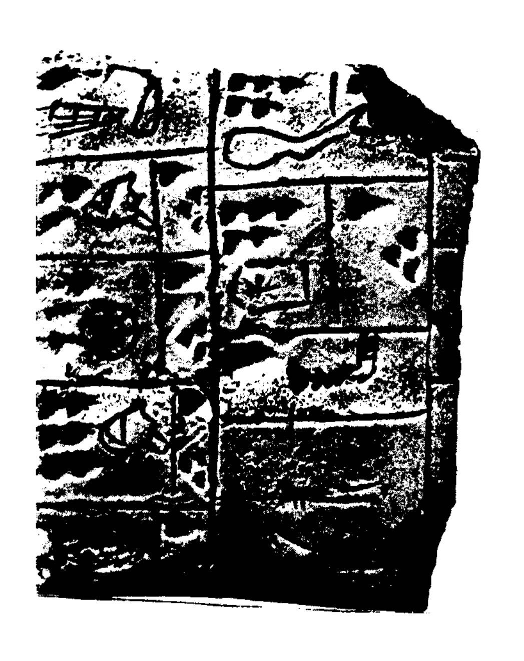
الأصوات ، وغدت الرموز تعبر عن مقاطع صوتية تمثل في الأصل كلمات أحادية المقطع ، وقد تناسب ذلك مع اللغة السومرية ، وهي لغة إلصاقية ، كما أوضحنا من قبل . وصار الكاتب يدون الكلمات من خلال تركيب (أو إلصاق) المقاطع الصوتية ، وقد تتألف الكلمة من مقطع واحد ، أو قد تتألف من مقطعين أو أكثر ، بحسب ماهو معروف في اللغات كافة . أما المقاطع فقد تتألف من صوت واحد صائت ، أو من صوت صائت + صوت صامت [٢٧] (=أَبْ، أُمْ، إِنْ) ، أو من صوت صامت + صوت صائت (= بُ ، تَ ، دِ)، أو من صوت صامت + صوت صائت + صوت صامت = (= مّتْ ، بِرْ ، لُمْ) .

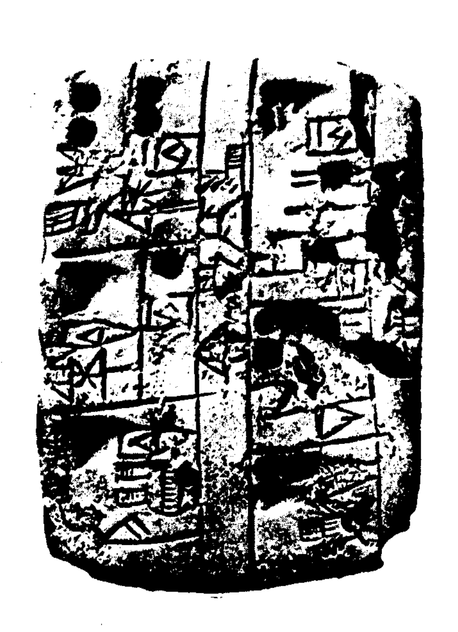
واستمر الكاتب في استخدام الصور الى جانب المقاطع الصوتية ، والمزاوجة بينهما ، ولكن الصور صارت لها وظيفة جديدة ، وهي التعريف بالكلمات وتحديد المعنى المقصود . فكلمة (تي) السومرية -مثلاً- التي تعني «السهم» ، وتعني«الحياة»، كانوا يرسمون قبلها (من جهة اليسار) علامة تعني جِشْ ، أي «خشب» إذا أرادوا معنى «السهم» . ثم توسع استخدام هذه العلامات التي ترمز إلى أشياء خاصة بعينها ، وتحدد المعنى المطلوب ، ولذلك دعاها المختصون باسم العلامات الدالة ، أو المخصصة Determinativ، وكانوا يكتبونهاقبل الكلمة أو بعدها وذلك حرصاً منهم على توضيح معنى الكلمة المقصود ، كأن يكون المقصود إلهاً ، أو رجلاً ، أو إمرأة ، أو نوعاً من النبات ، أو إحدى المدن . ونضرب مثالاً على ذلك كلمة(إمرأة) التي كانت تلفظ(مي) ، فإذا أضافوا اليها علامة الجبل صار المعنى «جارية» لأن الجواري والإماء كن أجنبيات يجلبن من المناطق الجبلية ، وإذا كتب اسم مدينة ما فإن اسم المدينة كان يلحقه علامة (كي) التي تدل على أسماء المدن والأمكنة ، ولكنهم كانوا لاينطقون هذه العلامات الدالة ، سواء ماكان يسبق الكلمات أو مايأتي بعدها ، لأن وظيفتها هي تخصيص المعنى فحسب . وقد هيأت هذه العلامات للقارئ فرصة أفضل لفهم المقصود من الكلمات ذات المقاطع الصوتية، ودفعت اللبس عنه في حال تعدد المعاني للفظة الواحدة .

---

(٢٧) الصوت الصامت هو الحرف الذي لاينطق من دون حركة ، مثل : ب ، ت ، ث ، ج ، .. فهو صامت ، كما يدعى في اللغة العربية، Consonant في الانكليزية . أما الصوت الصائت فهو مايسمى «حركة» في اللغة العربية ، وله ثلاثة أشكال : الفتحة والضمة والكسرة ، وإشباعها، أي مدها ، الذي يرمز له في الكتابة بالألف ، والواو ، والياء ، وتدعى في الانكليزية Vowels .

http://www.al-maktabeh.com





ألواح طينية وجدت في أوروك (الطبقة ٤ A) نقشت عليها أقدم كتابة

مكتبة المهتدين الإسلامية

ثم انخفض عددها إلى ثمانمائة في حوالي عام ٢٥٠٠ ق . م (في مدينة شورويباك ، فارة العراقية اليوم) ، ثم تقلص العدد الى ستمائة بعد قرن ونصف في بداية العصر الأكدي ، وعندما أهل الألف الثاني قبل الميلاد غدا عددها خمسمائة رمز فحسب [٢٨] .

ونجح الكاتب السومري في التعبير بهذه الكتابة عن مختلف فنون القول والكتابة الأدبية والتاريخية منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد . فبعد أن كان يكتب الكلمات كيفما اتفق من قبل صار يسطرها بحسب تسلسلها اللغوي الصحيح. وبعد أن كان يكتفي بالجملة الاسمية ، ويتحرج من كتابة الأفعال والتعبير عنها بوضوح ، أمسى يعبر كتابة عما يلفظ من جمل مفيدة ، سليمة التركيب واللفظ، حق تعبير من دون نقصان حرف جر ، أو أداة نحوية ، وغيرها من أنواع الكلم . دون الكاتب العبارات في البداية من دون ترتيب ثابت ، ثم صار يرتبها في أنهر رأسية ، ويفصل بينها بخط ، وكان يبدأ من اليمين إلى اليسار ، أو من اليسار إلى اليمين . ثم عمد أخيراً إلى الكتابة على طريقة الأسطر ، واتخذ مبدأ الكتابة من اليسار إلى اليمين .

كانت المادة التي دونت عليها الكتابة من الطين ، كما ذكرنا ، وكان الكاتب يشكل من الطين كتلاً مستديرة ، أو مربعة ، أو مستطيلة ، ثم شكل منها «صفحات» على هيئة الأسطوانة ، أو المنشور، بحسب طول الموضوع والنص الذي كان يبغي كتابته ، وقد لايكفي وجه اللوح الواحد لكتابة النص ، فيقلب في هذه الحال اللوح الطيني رأساً لعقب ، ويتابع الكاتب تدوين نصه مستغلاً المساحات المتوافرة كلها ، حتى الجوانب . ثم استخدم الكتّاب مواد أخرى لنقش النصوص على لوحات من الحجر والمعدن، واحتفظوا بالشكل المسماري لعلاماتهم وإن استخدموا أدوات أخرى للكتابة غير القلم الأساسي.

وأوجد السومريون علامات خاصة للأعداد على هيئة دوائر وأنصاف دوائر أحياناً، وعلى هيئة العلامات المسمارية نفسها.

---

(٢٨) فوزي رشيد ، قواعد اللغة السومرية ، ٢٤

http://www.al-maktabeh.com

تطور الكتابة في بلاد مابين النهرين

معنى اصلي أو مشتق	اشوري	بابلي قديم	سماري متأخر	الاصل
طير				
سمكة				
حمار				
ثور				
شمس يوم				
حبوب				
شجر				
يفلح يحرث				
يرمي				
يقف يذهب				

مكتبة المهتدين الإسلامية

كانت الكتابة حكراً على عدد محدود تمثله طبقة معينة من الكتّاب أو النساخ، فيرثها الأبناء عن آبائهم، لما كانت تعنيه من صعوبة بالغة ، إذ لم يكن من السهل حفظ العدد الكبير من العلامات المسمارية والصور الدالة؛ إضافة إلى تعدد لفظ العلامة الواحدة منها. وهذا مايسبب اختلاف العلماء المتخصصين اليوم حول قراءة عديد من النصوص المسمارية. وكان للكتاب لأهميتهم وندرتهم في المجتمع دور متميز، ومكانة رفيعة ، ومركز خاص في المعبد وفي القصر، حيث يقصدهم من يحتاج إلى كتابة عقد ، أو تحرير رسالة ، أو قراءتها.

كانت أقدم الكتابات التي وصلتنا بهذه الكتابة المسمارية اقتصادية المحتوى، وتخص المعابد. أما الكتابات التاريخية ذات المضمون السياسي، والكتابات ذات المحتوى الأدبي الصرف فإنها لم تبدأ بالظهور قبل منتصف عصر الأسرات الأول، وهو العصر التاريخي الأول الذي أعقب العصر الشبيه بالكتابي، والذي شهد تطور الكتابة الفعلي وارتقاءها إلى المستوى الذي مكنها من التعبير عن الأغراض المختلفة. وقد حرص المسؤولون في المعابد منذ البداية على تدريب عدد من الأفراد على تعلم الكتابة في منشآت مدرسية ملحقة بالمعابد، وتحفيظهم القوائم التي تشتمل على أشكال الكلمات المصورة أو رموزها، كما يتوضح من آثار جمدة نصر. وهي طريقة لتعلم الكتابة استمر سكان بلاد الرافدين في اتباعها حتى قيام الدولة الأكدية حوالي عام ٢٣٤٠ ق. م ، ثم أصبحت تلك القوائم أساساً لما يشبه الكتب المدرسية في كل بلاد مابين النهرين، ومن بعد في عيلام وآشور، وفي كل المناطق التي انتشرت فيها الكتابة المسمارية.

اقتبس ساميو بلاد مابين النهرين، وفي مقدمتهم الأكديون، الكتابة المسمارية، وكان عليهم أن يعدّلوا بعضاً من مظاهرها لتتناسب ولغتهم السامية. وأول مشكلة واجهتهم كانت تتصل بالأصوات السامية الخاصة التي لاتعرفها الكتابة المسمارية السومرية ، وهي أصوات الحلق : ح ، ع ، وأصوات الإطباق (التفخيم) : ص ، ض، ط ، ظ ، ق . وأصوات أخرى ، مثل : غ ، ث ، ذ . فعمد الكتاب الأكديون، ومن بعدهم البابليون والآشوريون ، إلى الاستعانة بالمقاطع ذات الأصوات القريبة منها ليعبروا بها عما يبتغون من الأصوات السامية . ولكنهم لم

http://www.al-maktabeh.com

يمسوا مبدأ الكتابة المسمارية الذي يقوم على الصورة والمقطع الصوتي معاً، إنما تأثروا في كتاباتهم بالأسلوب السومري في بناء الجملة الأكدية التي اتضح أنها اختلفت عن شقيقاتها الساميات، وعلى رأسها اللغة العربية ، في تركيب الجملة ، حيث يأتي الفعل في الأكدية (وفي فرعيها البابلية والآشورية من بعدها) في نهاية الجملة ويسبقه المفعول به والفاعل، خلافاً لنحو اللغة العربية، واللغات السامية، الأخرى، التي يحتل الفعل فيها المقام الأول في الجملة الفعلية (٢٩).

تم اختراع الكتابة في بلاد مابين النهرين في الفترة الواقعة بين ٣٢٠٠-٣٠٠٠ق.م، وبدأت باختراعها العصور التاريخية التي استخدم الإنسان فيها الكتابة لتدوين كل ما يتصل بأمور حياته اليومية، وأولها الشؤون الاقتصادية ، كما نوهنا ، ومنها الشؤون الدينية والسياسية.

وانتهت باختراع الكتابة عصور ما قبل التاريخ، وانتهى أيضاً مايدعى باسم العصر الشبيه بالكتابي، أو العصر الشبيه بالتاريخي الذي يمثل فجر التاريخ، لأن الكتابة بدأت تمدّنا بمصدر أساسي ، يوفّر لنا مادة ذات صلة مباشرة بأحوال الناس السياسية والدينية والاقتصادية ، والحضارية بعامة، ويزوّدنا بالمعلومات والأخبار عن رجال تلك العصور القديمة، وعن الأحداث التي جرت، والإنجازات التي تمت. وظهر عصر دول المدن السومرية الأولى ، أو مايدعى باسم عصر دول الأسرات السومرية المبكرة، وعند بعض الباحثين «عصر فجر السلالات».



---

(٢٩) أنظر لمزيد من التفصيل كتابنا: الأبجدية، نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب، اللاذقية ١٩٨٤، ص ٤١ ومابعد .

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

الباب الثاني

دول بلاد مابين النهرين والعصور التاريخية

مكتبة المهتدين الإسلامية



http://www.al-maktabeh.com

الفصل الأول

دول المدن السومرية الأولى

أو عصر الأسرات السومرية المبكرة

أقسام العصور التاريخية :

شهدت بلاد مابين النهرين قيام دول متعددة أنشأتها شعوب مختلفة الأصول الإثنية منذ بداية العصور التاريخية وظهور المصادر الكتابية . وكان السكان الأوائل ، وهم السومريون والساميون ، السباقين إلى تشكيل المدن والأنظمة السياسية الأولى ، ولاسيما السومريون في جنوبي البلاد ، ثم ظهرت شعوب أخرى وفدت الى البلاد من الجبال الشرقية والشمالية الشرقية ، مثل الجوتيين والكاشيين ، تمكنت من انتزاع زمام الحكم من أهل البلاد لفترات كانت تطول أحياناً عدداً من القرون ، ولكنها كانت لاتلبث أن تذوب في المجتمع الأصلي لبلاد مابين النهرين بعد أن تتقمص شخصيته ، وتتمثل حضارته الأصيلة التي بنى السومريون والساميون معاً صروحها الأولى ، ثم انفرد الساميون في تطويرها وإضافة الإنجازات المتتالية عليها، وإكسابها طابعاً متميزاً عرفت به من بعد باسم «الحضارة البابلية» .

دعيت الدول التي قامت على أرض بلاد مابين النهرين نسبة الى عواصمها ، أو شعوبها ، كما دعيت العصور نسبةاليها . ولم تكن الدول التي ظهرت فيها تشتمل دائماً على مناطق مابين النهرين كلها ، بل كان بعضها يفرض حكمه على قسم منها ، وبعضها يتجاوزها ، ويتوسع خارج حدودها باتجاه الشمال والغرب والشرق . وقد تعاصر دولة منها دولة أخرى أو أكثر من

مكتبة المهتدين الإسلامية

دولة في آن واحد وتتداخل أحداثها ، لذا فإنه يتعذر ترتيب قيام دولها وتعاقب عصورها ترتيباً زمنياً دقيقاً ، وهذه الدول والعصور هي :

١ - **دول المدن السومرية الأولى** : وهو العصر الذي نشأت فيه دويلات كانت سلطة الحكم فيها بيد أسرة تسيطر على مدينة كبيرة ، ومايحيط بها من أراضٍ زراعية ، وقد تنجح في فرض هيمنتها على مدن قريبة منها . وكان السومريون هم من ابتدع هذا التنظيم السياسي الأول الذي قام في بلاد بابل ، واستمر حوالي خمسة قرون من دون أن تتحقق الوحدة السياسية . وظهرت في هذا العصر الكتابات باللغة السومرية التي كانت لها السيادة ، كما ظهرت أدلة تاريخية تشير إلى دور الساميين ، ولاسيما في القسم الشمالي من بلاد بابل الذي يدعي باسم أكد حيث تردد ذكر مدينة كيش ، وبرز نفوذها السياسي بوضوح . ويطلق بعضهم على هذا العصر اسم «عصر فجر السلالات » أيضاً ، ويقسم لطوله إلى ثلاثة أدوار حضارية متميزة ، بدأت منذ اختراع الكتابة ووضوح مبدئها الصوتي المقطعي ، في بداية الألف الثالث قبل الميلاد وامتدت إلى زمن قيام الدولة الأكدية في منتصف القرن الرابع والعشرين ، في حوالي عام ٢٣٤٠ق . م

٢ - **الدولة الأكدية** : تمكن الساميون من السيطرة على مقاليد الحكم في جنوبي بلاد مابين النهرين كلها حين انتزع سرجون في حوالي عام ٢٣٤٠ قبل الميلاد الحكم من ملك كيش السومري ، ونقل الحكم الى مدينة أكد القريبة فدعيت الدولة الأكدية ، ودعي السكان الساميون نسبة إليها . وبرزت اللغة الأكدية (السامية) في هذا العصر ، وغدت لغة النصوص الرسمية ، ولغة التفاهم والكتابة بأغراضها المتنوعة ، مع بقاء اللغة السومرية في المعاملات الرسمية وفي الشؤون الأخرى ، ولاسيما في أرض سومر في الجنوب . وامتد نفوذ الأكدية وكتابتها المسمارية الى كل المناطق التي وصل إليها حكم سرجون الأكدي وخلفائه ، واستمر فيها من بعدهم . في كل انحاء الشرق الأدنى القديم . كما ظهرت أسماء الأرباب السامية مثل سين، وشمش، وعشتار إلى جانب أسماء الآلهة السومرية إنليل، وننار، وأوتو، وإنانا، واصطبغت حضارات المناطق

http://www.al-maktabeh.com

المجاورة بصبغة ثقافية متجانسة إلى حد كبير، غلب عليها الطابع السامي الذي بدأ مع الدولة الأكدية، واستمر من بعدها من دون انقطاع. دام عصر الدولة الاكدية حوالي القرن والنصف(٢٣٤٠- ٢١٥٩ ق . م) وانتهى بغزو من القبائل الجوتية .

٣ - **عصر الجوتيين** : استغلت القبائل الجوتية التي كانت تتربص بالدولة الأكدية الدوائر ضعف الحكم الأكدي ، وانفصال بعض المناطق ، ولاسيما السومرية الجنوبية عن الدولة ، فتدفقت على الاراضي الزراعية على شكل غزوة عامة ، وفرضت وجودها على معظم المناطق . ولاسيما الشمالية . وسادت حالة من الفوضى السياسية والأمنية إلى أن نجح ملك مدينة أوروك السومري أوتو خينجال في دحر آخر ملوك الجوتيين ، وطردهم من البلاد ، وأنهى حكم الغرباء الذي لم يدم أكثر من نصف قرن ، بين ٢١٥٩-٢١١١ ق . م ، ولم يكن أكثر من عصر انتقالي في تاريخ بلاد مابين النهرين .

٤ - **العصر السومري الحديث** : ويدعى أيضاً «عصر الإحياء السومري» أو «عصر النهضة السومرية » إشارة الى عودة السومريين إلى تسلم زمام المبادرة السياسية والحضارية في بلاد مابين النهرين انطلاقاً من مدن الجنوب . وبرزت في هذا العصر أسرة حاكمة في أور أسسها الملك أورنمو الذي أعاد وخلفاؤه مجد السومريين الحضاري قبل أن تدول دولتهم الأخيرة ، وتؤول أمور البلاد إلى أيدي الساميين الى غير رجعة . فقد عادت اللغة السومرية في هذا العصر إلى ألقها الأول ، وظهرت نهضة أدبية وثقافية ، من دون أن تؤثر في مسيرة اللغة الأكدية التي زادت من مفرداتها في اللغة السومرية . حتى أن ثلاثة من ملوك أسرة أور الخمسة حملوا أسماء سامية . وظهر في هذا العصر الذي انتهى على يد الأموريين والعيلاميين معاً ، نشاط قانوني تمثل في إصدار أقدم القوانين التي عرفها التاريخ ، وأولها قانون أورنمو .

٥ - **الدولة البابلية القديمة** : وفق الأموريون في إنشاء دولة لهم في جنوبي بلاد مابين النهرين ، دعيت نسبة إلى عاصمتها بابل باسم الدولة البابلية

مكتبة المهتدين الإسلامية

القديمة، أو الأولى ، ونسبة إليها سمي العصر بالعصر البابلي القديم الذي أمسى عنواناً لحضارة بلاد مابين الرافدين بكاملها ، حيث وصلت فيه الحضارة إلى قمة إنجازاتها ، ولاسيما في عهد أشهر ملوكها حمورابي ، صاحب التشريعات المعروفة . وسادت اللغة البابلية بدءاً من هذا العصر ، وكتابتها المسمارية ، في كل انحاء الشرق القديم ، وأمست لغة العالم القديم الدبلوماسية والسياسية ، وانحسر تأثير اللغة السومرية ، وشارف على الانقراض ، كما انصهرت الفروق بين السومريين والساميين الذين كونوا مجتمعاً بابلياً واحداً .

واستمرت الدولة البابلية الى مابعد حمورابي(١٧٩٢-١٧٥٠ق. م.) في تقدمها الحضاري حتى سقطت على يد الحثيين في عام ١٥٩٥ ، غير أن الكاشيين هم من أفاد من سقوط الدولة البابلية الأولى ، وأقام حكماً مكانها في العام نفسه .

٦ - **عصر الكاشيين** : وفد الكاشيون من المناطق الجبلية الشرقية في عصر الدولة البابلية الأولى ، وتسللوا سلمياً إلى المدن الرئيسة ، حيث اشتغلوا في أعمال الخدمة ، أجراء وموظفين ، وتخصصوا في تربية الخيل . ثم تسنموا مقاليد السلطة حين سقطت الدولة البابلية التي أسستها أسرة حمورابي على يد الحثيين ، واحتفظوا بحكم بابل حوالي خمسة قرون ، فعاصروا الآشوريين ، وفرضوا نفوذهم عليهم ردحاً من الزمن ، كما عاصروا دولة الحوريين الميتانيين ، والدولة المصرية الحديثة ، وأقاموا علاقات وثيقة مع ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، وعاصروا الحثيين كذلك . وعدوا أنفسهم ملوك بابل الشرعيين ، واتخذوا ألقاب ملوكها ، ويدعو المؤرخون دولتهم باسم الدولة البابلية الثالثة ، وعصر الأسرة البابلية الثالثة .

٧ - **الآشوريون** : استوطن الساميون منذ القديم شمالي بلاد مابين النهرين ، ودعوا نسبة إلى حاضرتهم الأولى ، أو إلى إلههم الرئيس آشور. وأنشأوا تنظيماً سياسياً مستقلاً حيناً ، وتحت نفوذ غيرهم حيناً آخر ، منذ عصر المدن السومرية الأولى إلى تاريخ زوال نفوذهم السياسي في

http://www.al-maktabeh.com

عـــام ٦١٢ق . م . ويقسم الباحثون تاريخهم المستقل إلى ثلاثة عصور ، هي : الدولة الآشورية القديمة ، وهي الدولة التي عاصرت الدولة البابلية القديمة حتى عهد ملكها حمورابي . ثم عصر الدولة الآشورية الوسطى ، وأخيراً عصر الدولة الآشورية الحديثة . واستطاع الآشوريون أن يفرضوا سيطرتهم على الجنوب البابلي أحياناً ، كما بسطوا سلطانهم على الجزيرة العليا في معظم أيام مجدهم، وأقاموا امبراطورية واسعة في عصر الدولة الآشورية الحديثة امتدت حدودها حتى جنوبي مصر في زمن الملك آشوربانيبال ، آخر الملوك الآشوريين العظام . وعاصر الآشوريون دولة حوري - ميتاني وخضعوا لنفوذها حقبة من الزمن ، ثم انتقموا لأنفسهم منها بالتعاون مع الحثيين . واشتبكوا مع المصريين في العصور المتأخرة وخلا لهم مسرح السياسة في الشرق الأدنى القديم بعد زوال الدولة الحثية ، وبلوغ مصر دور الشيخوخة ، وضعف الإلاميين ، فسادوا المنطقة بكاملها ، واستغلوا قوة جيشهم ، وصرامة طباعهم في فرض سيطرتهم على الشعوب المعاصرة التي ذاقت على يدهم مر العذاب ، ومن بينها الآراميون (الساميون) في سورية وبعض مناطق بلاد مابين النهرين ، إلى أن نجح فريق من الآراميين بالتعاون مع الميديين (الفرس) من القضاء على الدولة الآشورية . اشتهر الآشوريون ، ولاسيما في عصر الدولة الحديثة ، بمهارتهم العسكرية ، ولكنهم لم يهملوا النواحي الحضارية ، فقد خلفوا تراثاً حضارياً يشهد على طول باعهم في الفن ، والأدب ، والتشريع ، وبناء المدن والمعابد ، وتشربوا الحضارة البابلية ، وحضارة الشعوب المجاورة ، واهتموا بجمع التراث العلمي والثقافي ، ولاسيما في عهد سرجون الثاني ، وعهد حفيده آشور بانيبال .

٨ - **الدولة البابلية الحديثة** : وهي الدولة التي قامت في البداية في جنوبي بلاد ما بين النهرين على أيدي القبيلة الآرامية كلدو ، ولذا فإنها تدعى باسم«الدولة الكلدانية» أيضاً ، ثم بسطت حكمها على شمالي بلاد الرافدين وسورية بعد سقوط الدولة الآشورية في عام ٦١٢ ق . م ووصلت الدولة في عهد ملكها نبوخذ نصر الثاني إلى قمة الازدهار العلمي والاقتصادي ، وشكلت بحق الحلقة الأخيرة في عقد الحضارة البابلية الزاهية الفعالة، ولم يعن سقوط الدولة في عام ٥٣٩ ق . م على يد الفرس زوال تأثير الحضارة البابلية ، بل استمر ذلك

مكتبة المهتدين الإسلامية

التأثير في الشرق وفي الغرب معاً . وقد نقل بعض المؤرخين الإغريق الذين زاروابلاد مابين النهرين مارأوا من مظاهر الحضارة البابلية الحية ، في زمنهم المتأخر ووصفوه للأجيال القادمة .

انتهى استقلال بلاد مابين النهرين بسقوط الأسرة الحادية عشرة في بابل والأسرة الكدانية ، وخضعت بعد ذلك للحكم الفارسي ، ومن بعده لليونان بقيادة الاسكندر المقدوني الذي أحرز نصراً مؤزراً على الفرس في معركة ايسوس في عام ٣٣٣ق . م ، فدان له الشرق الأدنى بكامله .

دول المدن السومرية الأولى

استوطن السومريون المنطقة الجنوبية من بلاد مابين النهرين منذ فجر التاريخ ، كما تؤكد الشواهد الكتابية الأولى التي ظهرت تباشيرها في نهاية الالف الرابع قبل الميلاد ، وانتفعوا من الحضارات التي سبقتهم ، فطوروا أساليب البناء باللبن ، وبنوا كثيراً من معابدهم فوق مسطحات عالية ، تطورت من بعد إلى ماصار يدعى باسم الزقورة ، وهو البناء ذو القمة المرتفعة أو المدببة[1] كما استوطن المنطقة ذاتها جماعات من الساميين الذين شاركوا السومريين بسكنى المدن الجنوبية وتطوير حضارتها . ولكن كثافة السكان الساميين في المدن الشمالية ، فيما يدعى «باسم أرض أكد» كانت أكبر .

وكانت المدينة التي توسعت في عصر ماقبيل الكتابة تقوم حول المعبد الذي يتوسطها ، ويعبد فيه إلهها المحلي ، وقد توجد معابد أخرى ذات صلة بهذا الإله،

---

(١) يعد برج بابل أكثر تلك الزقورات شهرة ، وزقورة أور أحسنها شكلاً بين الآثار التي تم الكشف عنها حتى الآن . وكانت زقورة الإله السومري إنليل في نيبور تدعى باسم « البيت الجبلي » = إكور في اللغة السومرية إشارة إلى مقر الأرباب العالي ، ويرى بعض الباحثين في ذلك أيضاً إشارة إلى أصل السومريين الجبلي . أنظر :فرانكفورت ، فجر الحضارة في الشرق الأدنى ٦٥ ؛

S. Kramer, Newelights on the Early History of the Ancient East, in American Journal of Archaology Vol. 52, 1948, p. 156ff.

http://www.al-maktabeh.com

فيتخذ الاله المحلي حينئذ صفة الإله الرئيس . وكان لتلك المعابد أملاك ضخمة من الأراضي الزراعية التي تحيط بالمدينة وتعد أملاكاً لإله المدينة ، كما يتوضح من عقائد السومريين القديمة التي تشير إلى أن الإنسان خلق لغرض واحد ، هو خدمة الآلهة . ففي إحدى الأساطير السومرية نص يذكر أن إنليل ، وهو الإله الأعظم عندهم، شق قشرة الأرض بفأس حتى ينبثق الناس منها كالنبات، فأحاط الآلهة الأخرى بإنليل ورجوه أن يخصص لهم خدماً من السومريين الذين يطلعون من الأرض[٢]. وكان الكاهن الذي يرأس العاملين في المعبد يدير الأملاك ، ويشرف على العمل في الحقول وداخل المعبد ، وعلى تسلم المحاصيل ، وتوزيع العمل ، وعلى تسجيل الواردات والمخصصات اليومية والشهرية للموظفين ، وغيرها من الشؤون التي تتصل بالأعمال الحرفية والمهنية من صناعة ، ورعي ، وصيد نهري أوبري . فكان اقتصاد المدينة كله يخضع لسلطة الكاهن ، وكان المعبد مركزاً للنشاط الاقتصادي والديني والاجتماعي يديره الكاهن الذي ينوب عن الإله ، مالك المدينة ومن يقيم فيها ، ومابحوزتها من أملاك زراعية وغيرها . ولنا أن نعد الكاهن في هذه المرحلة « الحاكم» لذلك المجتمع المسخر لخدمة الإله ، مادام يتمتع بسلطة دينيه ودنيوية (إدارية) منحه إياها إله المدينة . ويبدو أن السومريين تبنوا هذا التنظيم أو كانوا ممن أسهم في خلقه ، إذ إن الحاكم كان يحمل لقباً سومرياً هو (إن EN) وقد أدى هذا التنظيم الى نشأة الحكم في المدينة الذي كان أول من تولاه رجل دين ، كانت مسؤوليته في البداية دينية صرفة ، ثم تعداها الى الأمور الاجتماعية ، من زواج وطلاق وسواهما ، ومنها إلى الأمور الاقتصادية ، ثم إلى الأمور السياسية لما بين هذه الأمور كلها من صلات وثيقة في مجتمع المدينة الصغير . ويبدو لنا أن هذا التطور عرفته المجتمعات كلها في تاريخها القديم ، كما يتبين من استطلاع تاريخ الشعوب وتنظيمات مجتمعاتها الأولى .

وظل الكاهن الحاكم (إن) يجمع بين السلطتين الدينية والزمنية إلى أن تعددت المسؤليات وكثرت الأعباء التي تأتت من اتساع المدينة ، وازدياد السكان ، مما زاد من أعباء الحاكم الكاهن وحمله مسؤولية سياسية خالصة إضافة الى مسؤوليته الأساسية . فصار لزاماً على السلطتين الدينية والدنيوية أن تنفصلا

---

(٢) فرانكفورت ، فجر الحضارة في الشرق الأدنى ، ٧٢.

مكتبة المهتدين الإسلامية

عن بعضهما ، وأن يتخصص الحاكم بالأمور السياسية وما يستتبعها من شؤون، ويتفرغ كلية لإدارة المدينة وتدبير أمورها الدينية المتنوعة ، ويترك للكاهن تصريف كل ماله صله بالدين . فظهر الحاكم الذي كلف هو الآخر بتفويض من الإله بشغل منصب يدعى باسم إنسي ENSI ، وتحددت صلاحياته بإدارة المدينة بالوكالة عن إله المدينة. ثم مالبث الحكام أن تقلدوا لقباً آخر، وهو لوجال LUGAL، وهي عبارة في السومرية تعني حرفياً «الرجل الكبير» ، ولكنها لقب للحاكم الكبير وهو «الملك» الذي يتخذه حاكم المدينة الكبيرة ، ذات الأملاك الواسعة من الأراضي الزراعية ، والتي تهيمن بسلطانها على مدن أخرى في الغالب . فظهر القصر الملكي E. GAL حينئذ في المدينة إضافة إلى المعبد .

قام التنظيم السياسي عند السومريين على أساس تكوين حكم يترأسه مفوض من الإله في كل مدينة ، يدعى إن ، أو إنسي ، أولوجال . وكان لكل مدينة استقلالها وحكومتها المستقلة التي تبسط سلطانها على رعايا المدينة ، وتدير شؤونها المختلفة ، وتشرف على الأراضي الزراعية التي تملكها ، وعلى تأمين مستلزماتها ، من تنظيم الري وشق القنوات المائية وصيانتها ، وتحرص على تيسير عمليات التبادل التجاري مع الجيران وتنظيمها . وكان ثمة«مجلس المدينة» الذي يضم الشيوخ والوجهاء ، و«الجمعية العمومية» التي تشتمل على المواطنين الأحرار ؛ وهما مؤسستان كان الملك يلجأ إلى جمعهما في الظروف الخطيرة التي كانت تتطلب رأياً يمثل موقف المواطنين فيها ، دون أن يكون لهما صلاحيات تنفيذية تتعدى حدود الصفة الاستشارية غير الإلزامية . وقد يشير وجودهما في دويلات المدن السومرية إلى اعتماد الحكم فيها على أساس من الديمقراطية[٣]

---

(٣) يرد في ملحمة جلجا مش السومرية أن (جلجا مش) ، وهو حاكم مدينة (أوروك) ويحمل لقب (إن) ، عندما جاءه رسل ملك كيش(أجا) لمطالبته بالخضوع لسلطانه عرض المسألة على مجلس الشيوخ لأنها تتطلب قراراً يقضي بالإذعان والخضوع لمشيئة ملك كيش أو الحرب ، فارتأى الشيوخ الرضوخ لطلب ملك كيش . ولكن الرأي الشخصي للبطل جلجا مش لم يكن يتوافق مع رأي الشيوخ المتخاذلين . ففرض الأمر على الجمعية العمومية التي تضم شباب المدينة فهب هؤلاء مطالبين بقتال جيش كيش والذود عن كرامة أوروك . ويرى الباحثون في هذه القصة شاهداً على سيادة الديمقراطية في المدن السومرية . مع أنها حالة خاصة وردت في سياق الملحمة الأسطورية ذات المغزى المحدد : أنظر

Edzard, in FW, 2, 82; Kramer, Die Geschichte beginnt mit Sumer (1959), S.138.

http://www.al-maktabeh.com

اتسمت بداية العصر التاريخي في جنوبي بلاد مابين النهرين ، حيث أقام السومريون والساميون عدداً من المدن الكبيرة الرئيسية التي ورد ذكرها في قائمة الملوك السومريين ، بظهور حكومات المدن المستقلة إذاً ، وقد تسيطر إحداهما على مدن صغيرة أخرى ، وعلى قرى تابعة لها ، فتتخذ المدينة الرئيسية حينئذ مركز العاصمة ، ولما كان لكل مدينة رئيسة حاكمها ، ومعبدها ، ومؤسساتها الإدارية الكاملة ، وكيانها السياسي الخاص، فإن كل مدينة كانت تعد نفسها دولة مستقلة ذات سيادة، وكانت تسعى إلى الحفاظ على كيانها بكل ماتراه من وسائل ، ومنها بناء الأسوار. ولم يخطر ببال تلك الدول ، أو بالأحرى دويلات المدن أن تتوحد في دولة واحدة. وعلى الرغم من تلك الفرقة السياسية بينها ، فان التآلف الحضاري كان واضحاً ولايقتصر على السومريين وحدهم ، بل كان يبدو من خلال التعامل مع السكان الساميين أيضاً الذين تفاعلوا إيجابياً معهم ، ولم تظهر الخلافات بين الطرفين في أي من مراحل ذلك العصر أوبعده .

إن المعلومات عن الأحوال السياسية عن الدويلات المدن السومرية ضئيلة ، ولاتتناسب مع طول تلك الحقبة التاريخية التي تمتد بين بداية العصور التاريخية التي تتحدد باختراع الكتابة ، وظهور الدولة الأكدية في حوالي عام٢٣٤٠ق . م . ويقسم هذا العصر الى ثلاثة أدوار حضارية متمايزة : الأول يمتد من بداية العصور التاريخية إلى زمن كتابات أور المسمارية الأولى (حوالي منتصف القرن٢٩ وبداية القرن ٢٨ ق . م.) ، وهو دور لم يصلنا منه أشياء مدونه يعتد بها. ثم الدور الثاني ويبدأ مع ظهور أسوار المدن في جنوبي بلاد مابين النهرين، كما تظهر فيه بعض الكتابات التاريخية . أما الدور الثالث فيبدأ مع تاريخ محفوظات مدنية شوروباك (حوالي بداية أو منتصف القرن٢٦) ، وتكثر فيه إلى حد ما الكتابات السومرية ، وينتهي بظهور سرجون مؤسس الدولة الأكدية ، لذلك يدعى عصر دول المدن السومرية الأولى باسم«عصر ماقبل سرجون» إشارة إلى الأهمية البالغة للدولة الأكدية ولمؤسسها في تاريخ بلاد مابين النهرين. بينما تعكس تسمية «عصر دول المدن السومرية» دور السومريين التاريخي وتشير إلى كثرة الأسر الحاكمة السومرية التي أوردت قائمة الملوك السومرية أسماء ملوكها

استغرق عصر دول المدن السومرية حوالي خمسمائة سنة ، وتميز بظهور

مكتبة المهتدين الإسلامية

أسرات حاكمة في المدن الكبرى التي كانت تدار من قبل من المعبد . وقد نوهنا بقلة المصادر الكتابية عن هذا العصر بعامة على الرغم من أن عدداً من حكام تلك الأسرات خلف لنا بعض الكتابات المقتضبة ، ووصلنا منه عدد من النصوص الأدبية التي تتحدث عن مآثر بعض ملوك العصر وحكامه . وقد ظهرت منذ زمن الملك أورنانشه ، مؤسس الأسرة الحاكمة في لجش(حوالي عام ٢٥٢٠ق . م) سلسلة من الكتابات الملكية تضمنت اسم الملك وابنه ، الواحد بعد الآخر . ثم ألف الكتاب من بعد قوائم بأسماء الملوك السومريين الذين حكموا البلاد في «عصر ماقبل الطوفان » ، والملوك الذين ورد ذكرهم ضمن أسرات حاكمة وكان حكمهم «بعد الطوفان» . وظهرت جملة من تلك القوائم ، كانت آخرها نسخة دونت في نهاية عصر أسرة إيسن الأولى (حوالي عام١٧٩٤ق . م) ، وتضمنت الأسر الحاكمة في جنوبي بلاد مابين النهرين بما فيها منطقة ديالى ، وكذلك مدينة ماري الواقعة على الفرات الأوسط ، وكأن هذه المناطق كلها تؤلف منطقة حكم واحدة . وقد رتبت القائمة الأسرات بحسب دورها في الحكم بحيث تحل الواحدة منها في الحكم بعد الأخرى، بعد أن تقهرها في الحرب وتستولى على الحكم، فتنتقل الملكية إليها ولم يتنبه الكتاب إلى أن بعض تلك الأسرات كانت في الواقع تتعاصر مع بعضها ، جزئياً وفي فترة محددة ، أو كلياً ، وأن كثيراً منها لم يعقب الآخر في الحكم ، كما تصور لنا القائمة . كما يتبين من المصادر الأخرى أن « قائمة الملوك» أغفلت ذكر بعض الأسرات الحاكمة المعروفة ، ومنها أسرة لجش المشهورة ، وأسرة أوما، ونيبور ، كما بالغت في عدد السنين التي حكم خلالها الملوك بعامة .

وتقدم القائمة بيانات عن كل أسرة على حدة ، فهي تذكر إسم المدينة مقر الملكية ، واسم بعض الاحداث من عهده . ثم تذكر أخيراً مجمل عدد الملوك وسني حكمهم (٤) .

---

(٤) Edzard, op. cit. 59f.

وانظر حول قوائم الملوك السومرية :

Th. Jacobson, The Sumerian King Lists (Assyriolo gical Studies 11, Chicago 1939; M. B. Rowton, in JENS (1960) , p. 156 ff.; ANET, 211 ff.; M. Mallwan, in CAH, I, Part II; Kramer, The Sumerians 328-331; Oppenheim, in ANET, 265-266.

http://www.al-maktabeh.com

وتذكر قائمة الملوك السومرية أن الملكية (نام - لوجال بالسومرية) نزلت لأول مرة من السماء في مدينة إريدو (أبو شهرين حالياً ، وتقع في أقصى الجنوب ، غربي نهر الفرات وجنوبي غربي أور) ، حيث حكم الملك ألوليم ، وبعده ملك آخر . ثم هجرت إريدو وانتقلت ملكيتها الى باد تبيرا التي حكمها ثلاثة ملوك ، وكان بينهم دوموزي الراعي الذي طال حكمه ٣٦ ألف عام . ثم انتقلت الملكية إلى مدينة لاراك التي حكم فيها ملك واحد ، ومنها إلى سيبار حيث حكمها ملك واحد أيضاً . ثم انتقلت الملكية إلى شروباك التي حكم فيها ملك واحد كذلك . فبلغ عدد الملوك الذين حكموا البلاد ثمانية ملوك ، بحسب ماجاء في القائمة ، وكانت مدة حكمهم ٢٤١ ألف عام . ثم جاء الطوفان ، فاكتسح الأرض بمن عليها باستثناء رجل الطوفان زيوسدرا . ويشير مؤلف القائمة الملكية بوضوح إلى اعتقاد جازم عند السومريين بأن السماء ، حيث يقيم الآلهة ، هي مصدر الحكم والملكية ، وأن الآلهة هي التي تحكم البشر عن طريق من تفوضهم أو تنيبهم لممارسة سلطة الحكم على الأرض من الملوك الدنيويين .

ثم تذكر قائمة الملوك السومرية أنه بعد أن أنتهى الطوفان نزلت الملكية ثانية في مدينة كيش (تل الأحيمر اليوم ، شمالي أرض أكد ، حيث تقيم أكثرية سامية) ، حيث حكم فيها ثلاثة وعشرون ملكاً ، ثم قهرت كيش(في الحرب) وانتقلت الملكية إلى أوروك (الوركاء). ويعود حكم هاتين الأسرتين الى الدور الثاني من عصر الأسرات السومرية المبكرة ، وهو الدور الذي كان فيه لمدينة كيش دور سياسي بارز ، إذ يبدو ملوك كيش وكأنهم نجحوا في إقامة شكل من الوحدة الداخلية لدويلات المدن ، وحملوا ملوك المدن الأخرى على الإذعان لتوجياتهم وسلطتهم العليا ، كما يتوضح من علاقة أحد ملوك كيش ، وهو الملك أجا ، مع الملك الخامس لأوروك جلجا مش بطل الأسطورة المعروفة[٥] .

---

(٥) أنظر الحاشية السابقة رقم ٤ . ويشير إلى مركز كيش وملكها المتفوق لقب اتخذه بعض ملوك المدن الأخرى ، وهو «شركيشاتي» في اللغة الأكدية ، أي «ملك كيش» في الأزمنة التالية للتعبير عن سيادتهم على البلاد بكاملها .

مكتبة المهتدين الإسلامية

كما يتوضح من الاطلاع على أسماء ملوك كيش أن نصفهم كانوا يحملون أسماء سامية ، مثل الملك كلبم ، أي الكلب ، وقلمم ، أي الحمل ، وأروبئم ، أي الغزال (أروى)، وزقاقب ، أي عقرب ، وغيرهم . ويؤكد هذا أن الساميين كانوا يستوطنون جنوبي بلاد الرافدين منذ أزمان سحيقة (٦). وللأهمية التي كانت تتمتع بها مدينة كيش تذكر القائمة قيام أربع أسرات حاكمة فيها من بين أربع عشرة أسرة حكمت في عصر الأسرات المبكرة.

ثم تورد قائمة الملوك السومرية أسماء ملوك الأسرة التي حكمت في أور(الأولى) ، بعد قهر أوروك ، وتسمي مؤسس أسرة أور الأولى ميسانيبادا وقد كشفت التنقيبات الأثرية على يد العالم Wooley . عن الجبانة الملكية وقبورها الفخمة التي قدمت معلومات أوفى من السابق عن هذا الدور من عصر الأسرات السومرية المبكر ، ولاسيما أن بعض ملوك هذه الأسرة خلفوا كتابات بأسمائهم وألقابهم وبعض أعمالهم المتعلقة ببناء المعابد . ويرى صمويل كريمر ، عالم السومريات المعروف ، أن ملك كيش أجا ، وملك أوروك جلجامش ، وملك أور ميسانيبادا عاصروا بعضهم بعضاً ، أي الفترة الأخيرة من حكم أسرة كيش الأولى عاصرتها أسرتا الوركاء الأولى وأور الأولى (٧) .

وتجدر الإشارة إلى أن القائمة تذكر بعد أسرة أور الأولى أسرة حاكمة في أوان ، وهي مدينة عيلامية كانت أول عاصمة لعيلام المجاورة لسومر من الشرق، كما تذكر أسرة حاكمة عيلامية ثانية ، هي أسرة خمازي التي كان مقرها الى الشرق من أرض أكد ، وقد قهرت هذه أسرة كيش الثانية قبل أن تباشر حكمها. ثم انتقلت الملكية إلى أوروك (الأسرة الثانية)، ومنها إلى أسرة أور الثانية. ثم تذكر أدب، وبعدها ماري، ثم كيش للمرة الثالثة، ومن ثم أكشاك ، ثم أسرة كيش الرابعة، ومنها إلى أسرة أوروك الثالثة حيث حكم لوجال زاجيزي آخر الملوك السومريين الذي لقي مصرعه على يد سرجون الأكدي .

---

(٦) أنظر : عبدالكريم عبدالله ، ملامح الوجود السامي في جنوب العراق قبل تأسيس الدولة الأكدية ، مجلة سومر ، ٣٠ (١٩٧٤) ، ص ٦٥ ومابعد .

(٧) Kramer, The Sumerian 49 - 50 .

http://www.al-maktabeh.com

ميسالم ملك كيش

تبرز قائمة الملوك السومرية منزلة مدينة كيش بجلاء بين المدن الأخرى في عصر دول المدن السومرية الأولى من خلال ذكر أربع سلالات حاكمة فيها ، ومن خلال ذكرها في رأس القائمة عندالحديث عن نزول الملكية ثانية على الأرض . ويبدو أن مركز ثقل الحضارة قد انتقل فعلاً من أقصى الجنوب على الخليج العربي إلى المنطقة التي تجاورها في الشمال حيث تقع كيش في المرحلة الأخيرة من فجر تاريخ بلاد مابين النهرين ، وهي المنطقة التي كان الساميون يشغلونها ويمثلون غالبية سكانها ، والتي انطلقت منها منذئذ التأثيرات السياسية والحضارية لتعم المنطقة بكاملها .

ويبدو لنا أن تاريخ مدينة كيش أوضح بكثير من مدينة أوروك الرائدة في الجنوب في مايسمى بالدور الثاني والدور الثالث من عصر دول المدن . فقد وصلنا من زمن ملك كيش ميباراجيزي ، وهو الملك قبل الأخير في أسرة كيش الأولى بحسب قائمة الملوك السومرية ووالد الملك أجا خصم جلجامش ، ملك أوروك الخامس ، وصلنا نص معاصر نقش على إناء من المرمر ، ونصين آخرين تم العثور عليهما في المنطقة الواقعة إلى الشرق من نهر دجلة وإلى الجنوب من ديالي وكانت إحداهما في قلب المعبد البيضوي في خفاجي . وتذكر قائمة الملوك السومرية قيام الملك المذكور (الذي صار إسمه إنميباراجيزي حيث تداخل لقب الحاكم إن بالإسم الأصلي) بحملة عسكرية ضد عيلام ، حقق بها نصراً مؤزراً عليها . ويعد هذا أول ذكر للصراع مع عيلام [٨]، وهو صراع استغرق قروناً مديدة بحالها بين دول بلاد مابين النهرين وبين عيلام ، حتى توج بالقضاء النهائي على دولة العيلاميين وتدمير عاصمتهم سوسة في عهد الملك الآشوري آشوربانيبال (٦٦٩-٦٣١ق .م). كما تشير الآثار العائدة إلى عهد الملك ميباراجيزي إلى قيامه ببناء معبد الإله السومري إنليل في مدينة نيبور[٩] ، الذي

---

(٨) Edzard, in FW, 2, 69.

(٩) Kramer, op. cit. p. 46.

مكتبة المهتدين الإسلامية

صار معبداً رئيساً له ، ورفع من مكانة نيبور الدينية، وبوأها شهرة دينية انفردت بها ، واحتفظت بدورها الديني طوال العصور التالية ، على الرغم من أن قائمة الملوك السومرية لاتذكر أسرة حاكمة واحدة ظهرت فيها .

وتؤكد هذه الكتابات أن أسرة كيش المذكورة عرفت شخصيات تاريخية حقيقية ، بينما نفتقد الآثار الكتابية المعاصرة التي تذكر أسرة أوروك الأولى . وينطبق هذا على أشهر ملوك هذه الأسرة الأسطوريين دوموزي وخليفته جلجامش[١٠] ، بطل الأسطورة الأكدية ، والذي عاصر أجا آبن الملك ميباراجيزي، وخاض معه حرباً تسبب فيها ملك كيش الأخير أجا ، عندما طلب خضوع أوروك لسلطان كيش كغيرها من المدن. وتبرز مكانة مدينة كيش ، ويتأكد نفوذ ملوكها بخاصة منذ عهد الملك ميسالم (أوميسيليم) ، وهو ملك يشير اسمه إلى أصله السامي ، وقد عثر على نقوش كتابية باسمه في مدينة أدب الواقعة وسط المنطقة الحضارية ، وفي لجش في الجنوب . ولما كان حكام تلك المناطق يحملون لقب إنسي فيبدو لنا أن ميسالم كان له نفوذ سياسي عليهم . ومع ذلك فإن قائمة الملوك السومرية لاتورد ذكر هذا الملك التاريخي في أسرة كيش الأولى ، وهو الذي تذكر أخبار لجش وأوما المتجاورتين أنه تدخل لفض النزاع الذي نشب بينهما حول حدود كل واحد منهما ، وفرض بينهما حدوداً فاصلة بعد أن أقنعهما بأن الإله إنليل نفسه هو الذي أوحى إليه بالتدخل ، ثم أقام نصباً ثبت عليه حكمه . وتأكيداً لنفوذ الملك ميسالم ، ومدينة كيش التي كانت دولة تشتمل أراضيها على منطقة ديالى أيضاً إضافة إلى المناطق المحيطة بها ، صار ملوك كثيرون وإن كانوا لايقيمون في مدينة كيش نفسها يحملون لقب «ملك كيش» ، ونذكر منهم الملك ميسانيبادا، ملك أور ومؤسس سلالتها الحاكمة الأولى، والملك إ أناتوم، ملك لجش، من ملوك عصر دول المدن الأولى. كما توارث هذه اللقب الملوك الأكديون، واستمر من بعدهم عرفاً سياسياً عند كل الملوك الذين كانوا

---

(١٠) أقدم ذكر لجلجا مش ورد في قائمة بأسماء الآلهة مصدرها مدينة شروباك ، ويعود تاريخها الى القرن ٢٦ ق . م . وتجعله القائمة مع والده لوجال باندا بطلين ألها من بعد موتهما . .FW, 2, 86

http://www.al-maktabeh.com

يقومون بفرض سلطتهم على المدن الأخرى والدول المجاورة ، حتى صار يعني اللقب (شركيشاتي) في اللغة الأكدية يعني «ملك العالم» ويشير هذا اللقب الى المكانة الهامة التي كانت تحوزها مدينة كيش ، ولاسيما في عهد الملك ميباراجيزي والد أجا ، وهو الملك قبل الأخير في كيش ، كما تذكر قائمة الملوك السومرية التي أغفلت ذكر ميسالم لأسباب مبهمة .

أسرة لجش الأولى

لم تذكر قائمة الملوك السومرية الأسرة الحاكمة في لجش (تلّواليوم) التي نافست أسرة أور الأولى . غير أن التنقيبات الأثرية التي قام بها العالم سارازك كشفت عن الآثار السومرية الأولى التي اشتملت على وثائق كتابية أفصحت عن أسماء حكام المدن وألقابهم السومرية ، وقدمت لنا معلومات مفصلة خلفها ملوك المدينة من دون انقطاع عن الأحداث السياسية ، وعن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في سومر بعامة في الدور الثالث من عصر دول المدن السومرية الأولى ، منذ أن وصل الملك أورنانشه (حوالي عام ٢٥٢٠ ق. م) إلى الحكم ، وأسس أسرة حاكمة في مدينة لجش .

سبق أورنانشه إلى حكم لجش عدد من الحكام . وقد ذكرناأن الملك ميسالم ، ملك كيش ، تدخل لفض الاشتباك بين لجش وجارتها أوما اللتين كانتا تختلفان حول سير الحدود الفاصلة بينهما ، وحول الإفادة من المياه التي تجري في أراضيهما الزراعية ، حيث تقع المدينتان على أحد فروع الفرات الداخلية ، وحول ملكية منطقة المراعي المسماة . جو - إدينا «طرف عدن» ، وهي خلافات يعود تاريخها إلى ماقبل زمن ميسالم ، وقد حدد هذا سير الحدود بين المدينتين المتنافستين بصفته الحاكم الأعلى للمدينتين للمرة الأولى .

اشتهر الملك أورنانشه بأعماله السلمية ، كما يتوضح من النصوص التي خلفها ، إذ تذكر قيامه بتشييد المعابد ، وإقامة التماثيل للآلهة ، وشق القنوات

مكتبة المهتدين الإسلامية

المائية لسقاية المزيد من الأراضي واستصلاحها ، وبناء سور لمدينته لحمايتها وتأمينها من هجمات الأعداء المحتملة ، ولاسيما من أوما التي لم يقنع سكانها بالاتفاق الذي أرغموا على قبوله زمن ميسالم ، كما تفيد نقوشه بأن سفن دلمون (أوتلمون وهي البحرين اليوم) كانت تنقل إليه الخشب من الجبال ، ويعد ذكر دلمون في هذا النص أول ذكر لها في النقوش الكتابية [١٢] .

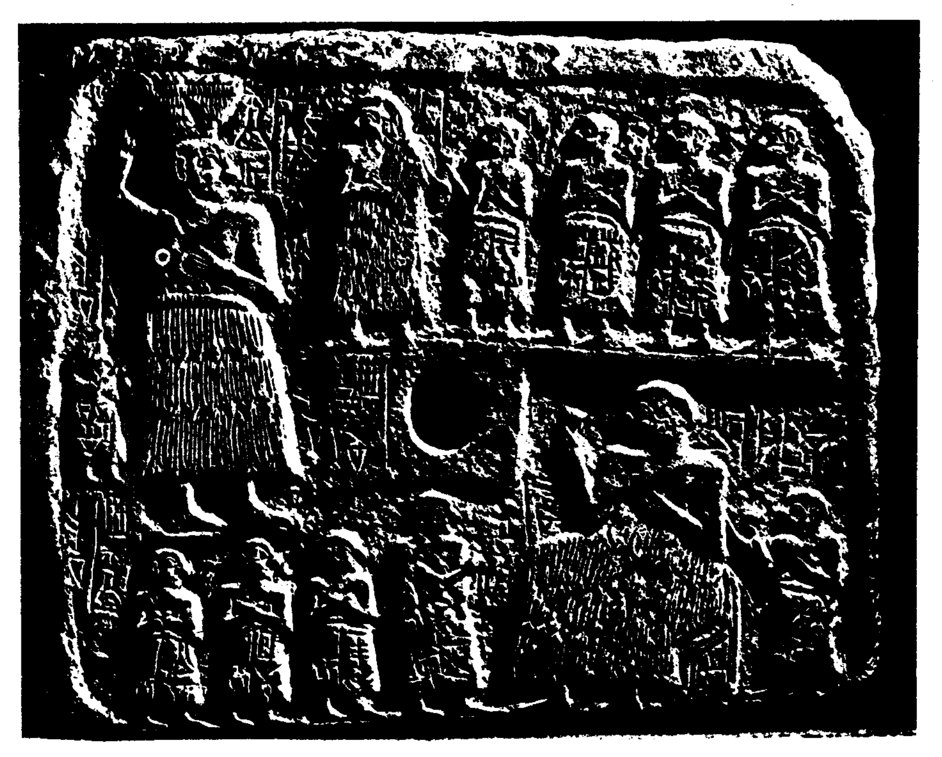
وقد صوره فنانه على لوح صغير من الحجر وحوله أفراد أسرته وبعض أتباعه ، وهو يحمل على رأسه سلة تعبيراً عن قيامه ببناء ، يحتمل أن يكون بناء دينياً ، وإلى الأسفل من هذه الصورة يظهر الملك جالساً ويتناول شراباً ، وكأنه يحتفل بإنجاز البناء وحوله يقف أولاده وأفراد حاشيته ، وقد مثلوا بحجم أصغر، ويبدو أن أورنانشه تمكن من فرض سلطانه على أور نفسها حيث عثر في أنقاضها على صورته واسمه منقوشين على لوح حجري . وفي عهد حفيده إأناتوم (حوالي عام ٢٤٦٠ ق .م) ارتفع شأن لجش بين المدن السومرية ، وبرزت إمكاناتها العسكرية بعد المجابهة التي حدثت بينه وبين حاكم المدينة المجاورة أوما (تل جوخة اليوم) ، والتي كان بسببها الخلافات بين المدينتين حول الأراضي الزراعية والمياه الواقعة على الحدود الفاصلة بينهما ، وهي خلافات بدأت من قبل كما رأينا ، ثم مالبثت أن تفاقمت في عهده بعد أن احتل أهل أوما أطراف أراضي لجش ، وأظهروا لأهلها العداوة . وتذكر نصوصه أنه زار معبد إله مدينته نينجرسو ، واستفتاه في حرب أهل أوما المعتدين ، فأيده الإله ووعده بأن ينصره. فبادر لتوه إلى اجتياح أراضي أوماالزراعية نفسها ومراعيها ، ثم تقدم نحو أسوار المدينة واستطاع أن يقتحمها ، فسقطت المدينة بيده ، وأعمل يد القتل في أهلها ، وجرت معركة عنيفة أدت إلى سقوط الكثير من الطرفين ، وتم له أخيراً النصر الساحق على الأعداء ، فترك جثث قتلاهم في العراء فريسة للطيور الجارحة والحيوانات الضارية . وقد صورت المعركة على لوح حجري دعي باسم «لوح العقبان» تخليداً لذكرى انتصار ملك لجش الحاسم ، أمر الملك بنصبه

---

(١٢) المصدر السابق ، ص ٢٨١ ومابعد ؛ C. J. Gadd, in CAH, Vol. I, Part II, p. 117.

http://www.al-maktabeh.com

على الحدود القديمة بين لجش وأوما . ويحمل اللوح نقوشاً على الوجهين تمثل الملك وهو يحارب راكباً على عربة ، وراجلاً ، ومعه جنوده المشاة . وتظهر جثث الأعداء عارية ممدة تحت أقدام محاربي لجش ، كما تبدو صور بعضها الآخر تنهشها الوحوش والعقبان .



ملك لجش أورنانشه مع أسرته وأتباعه

اتخذ إأنا توم لقب«ملك كيش» الفخري ، على الرغم من اتخاذه لقب «إنسي لجش» في بعض من نقوشه الكتابية. وتتحدث نصوصه عن معارك حربية خاضها ضد عدد من المدن ، وهي أور ، وأ وروك في الجنوب ، وكيش ،وأكشك في الشما ل . كما يذكر انه قهرعيلام ، وماري التي قام ملكها بحملة على بلاد بابل . وخرج من كل تلك المعارك منتصراً ، فاستحق لقب « ملك كيش» عن

مكتبة المهتدين الإسلامية

جدارة ، وأطلق على نفسه صفة «قاهر كل البلاد الأجنبية»، ويفتخر بأنه قام بذلك من أجل معبوده نينجرسو الذي صوره الفنان عل لوح العقبان في هيئة شيخ جليل ، وهو يمسك بيسراه شبكة ضخمة أوقع فيها الأعداء الذين يتخبطون داخلهاكالأسماك ، ويشهر مقمعته بيمناه مهدداً الآخرين ، وقد عثر على آثار كتابية له بالفعل في مدينتي أور ، وأوروك ، وعلى آثار كتابية لابن أخيه إنتيمينا في أور ، وبادتيبرا ، وفي هذا دلالة صريحة على نفوذ لجش في تلك المدن في زمن هذين الملكين [١٢] . غير أن الصراع استمر في عهد خلفاء إأنا توم بين لجش وبين جارتها أوما برغم الهزائم المتتالية التي ألحقها لجش بمدينة أوما .

خلف أورنانشه أربعة ملوك من أسرته، كما يبدو، ثم آل أمر لجش إلى الضعف والتردي في مشاكل داخلية غامضة، أدت إلى أن يتمتع الكهنة بنفوذ كبير، ويزيدوا ثراء معابدهم ، ويضاعفوا الرسوم التي كان المواطنون يدفعونها لهم ، ويشتطوا في طلب الأجور من الناس لقاء ماكانوا يقومون به من خدمات دينية واجتماعية ، كالزواج و الطلاق ، ودفن الموتى ، كما أساء الموظفون الحكوميون إلى المواطنين ، مستغلين مناصبهم ، وأرهقوهم بطلباتهم الشخصية واغتصاب الأملاك، وتسخير الناس لأداء الأعمال الخاصة بهم. فتفاقمت الأمور وازدادت سوءاً إذن في غياب حاكم قوي يخلف أسرة أورنانشه حتى وصل إلى الحكم الملك **أوروكاجينا** الذي اتخذ لقب لوجال ، وشرع في وضع تدابير إصلاحية، ووجه همه إلى انتشال البلد مما أوقعها فيه الكهنة والموظفون بخاصة. فأصدر عدداً من القرارات ، لنا أن نعدها بداية متواضعة من التشريعات، حاول من خلالها إصلاح الفساد العام الذي ساد البلد. وتحدث في بداية إصلاحاته عن المساوئ التي سبقت عهده، ومنها اغتصاب الكهنة والموظفين أرزاق الناس، واستغلال مزارع المعابد وماشيتها، وكأنها ملك خاص لهم. وصرح عن وقوف ربه إلى جانبه وتأليف قلوب رعاياه، والأخذ بيده لرفع الظلم عن كاهلهم. فخفف عن الملاحين عبودية العمل في مراكبهم لمصلحة موظفي الملاحة، وعن

---

(١٢) المصدر السابق ، ص ٨٣ – ٨٤

http://www.al-maktabeh.com

الرعاة تسخير الموظفين لمصلحة الموظفين المسؤولين عن الماشية ، ووضع حداً لتسلط الكهنة على الجماهير ، وأعاد في الوقت نفسه للمعبد هيبته واعتباره ، ومنع كبار رجال الدين من التدخل في شؤون الحكم .وعاهد ربه نينجرسو أن يرعى الأرامل والأيتام ، وأن يحمي الفقراء من الأغنياء . وقد خفض في قراراته أجر كاهن الدفن ، ومرتبات بعض الكهنة إلى النصف ، وألزم العرافين في المعابد بأن يقدموا تنبؤاتهم من دون مقابل بعد أن كانوا يغالون في الحصول على الأجر ، وأبعد المراقبين عن السفن . وعزل نظراءهم من المسؤولين عن الرعاة وعن الصيادين ، ومراقبي الضرائب عن مخازن الحبوب .

وبينما كان أوروكا جينا منشغلاً بإصلاحاته الداخلية، وإعادة النظام الى مدينته التي كانت تعاني من الضعف والفرقة ، ومن غياب الحاكم القوي ، كانت عدوة لجش التقليدية أوما قد استجمعت قواها ، ووصل إلى زعامتها ملك طموح يدعى **لوجال - زاجيزي** اغتصب الحكم في أوما ، وبادر إلى مهاجمة لجش ، فدمرها ، ونهب معبدها وممتلكاتها ، وأضرم النيران في مؤسساتها . فلم يجد ملكها أوروكا جينا سبيلاً للدفاع عن مدينته المنهارة غير الشكوى مما حل بها وتحميل إلهة أوما المسماة نيسابا إثم مااقترفت يد لوجال زاجيزي ، وانتهى بذلك حكم أوروكا كاجينا الذي دام حولي ثماني سنوات . ولكن زاجيزي، لم يكن هدفه الانتقام من لجش ، بل كانت هذه الخطوة الأولى التي افتتح بها طريق مسيرته الذي انتوى أن يوصله إلى تحقيق غاية أسمى ، وهي حكم سومر وأكد معاً ، بل وربما السيطرةعلى البلاد المجاورة . وقد شرع بتنفيذ مآربه باغتصاب الحكم في مدينة أوروك بعد انتصاره على لجش ، وهناك أطلق على نفسه لقب «ملك أوروك وملك سومر» ، وهذا لقب جديد عبر به عن طموحه الشخصي ، وفي الوقت ذاته عن تطلعه إلى تجاوز نظام حكم دولة المدينة إلى حكم الدولة بوضوح أكثر مما فعل أسلافه من ملوك المدن الذين نجحوا في ضم بعض المدن الأخرى إلى حكمهم ، واكتفوا بحمل لقب «ملك كيش» الفخري. ويبدو أنه تبنى فكرة إقامة دولة سومرية موحدة ، وتابع تنفيذ خطته وحقق نصراً جديداً في مدينة كيش«السامية» وأخضع دويلات المدن السومرية الأخرى ، وزعم أن آلهتها كلها باركت خطواته ، وأن الإله إنليل نفسه سلمه مقاليد الحكم ، فخلع على نفسه

مكتبة المهتدين الإسلامية

ألقاباً تعقد بينه وبين كبار الآلهة السومرية صلة قوية ، مثل «كاهن الإله آن (رب السماء وإله مدينة أوروك الرئيس) ، الإنسي القديم لإنليل (رئيس الآلهة السومرية، وإله مدينة نيبور الرئيس ومعبدها السومري المركزي) ، الوزير الكبير للإله سو إين (إله القمر في مدينة أور، وهو الاسم الأكدي المقابل لإله القمر السومري نانا) ، وإلى الإله أوتو (إله الشمس، والإله الرئيس في لارسا). كما سقطت مدينتا أدب وإريدو بيده وخضعتا لحكمه بالإضافة إلى كل تلك المدن السومرية التي مر ذكرها، كما يوضح في نقشه الوحيد الذي خلّفه وتحدّث فيه عن سيرته الذاتية ونجاحاته في تحقيق طموحه الذي قاده إلى إخضاع البلدان من «مطلع الشمس حتى مغربها، من البحر السفلي (وهو الخليج العربي) عبر دجلة والفرات حتى البحر الأعلى (أي البحر الأبيض المتوسط) ، مهد له إنليل الطريق ومنحه السلطة ». ثم يتوجه بالدعاء إلى إنليل ، قائلاً : ياإنليل ، يامك البلدان ، ليت آنو يبلغ أباه المحبوب رجائي ، ليضيف إلى عمري عمراً آخر ويجعل البلدان تعيش بأمان. ليمنحني من المحاربين بعدد الأعشاب، ويزودني بقطعان السماء.. وأن لاتغيّر الآلهة حظي السعيد الذي حددته لي ..» [١٣] .

ويشير نصه بوضوح إلى أن نفوذه بلغ إتساعاً أوصله إلى شمالي سورية وصولاً إلى البحر المتوسط، وهي مناطق يفصح لوجال زاجيزي من خلال ذكره لها عن المدى الذي كان السومريون تصل إليه معرفتهم بالعالم القديم، والحدود التي كانوا يتصورونها عن العالم آنذاك . ولكن هذا لايؤكد طبعاً أن لوجال زاجيزي أقام امبراطورية كالتي أقامها سرجون من بعده فعلاً، وإنما كان يبالغ في التعبير عن إنجازات تعد بحق كبيرة في زمنه، ونسبة إلى إمكاناته المحدودة وطموحه . ولعله كان يقصد السيطرة على طرق التجارة الرئيسية التي تؤدي إلى الشمال حيث تصل إلى سورية والبحرالأبيض المتوسط . ويزكي ماذهبنا إليه أن معاصره إنسي مدينة أدب يذكر في كتابة له استيراده خشب البناء من أرض «جبال الأرز» ، والمقصود هو جبال الأمانوس[١٤] المطلة على البحر الأبيض

---

(١٣) توفيق سليمان ، دراسات في حضارات غرب آسيه القديمة ١١٦؛ FW,2,85.

(١٤) Ibid, p.85 .

http://www.al-maktabeh.com

المتوسط الغنية بأشجار الأرز والصنوبر التي كانت تمثل غاية يسعى إلى بلوغها كل حكام دول بلاد مابين النهرين. وسنرى في نقوش ملك لجش جوديا في العصر السومري الحديث تعبيراً مشابهاً لتعبير لوجال زاجيزي ، ذلك الإنسي المسالم والتقى الورع الذي لم يفكر في يوم من أيام حكمه باستخدام القوة للحصول على مايريد من سلع تجارية ومن أخشاب جبال الأرز.

لقد نجح لوجال زاجيزي في السيطرة على المدن السومرية فعلاً، وحاول أن يوحد دويلات المدن السومرية في ظل نظام جديد يتولى رئاسته، ولكنه عرف في الوقت ذاته أن إمكاناته السلطوية بحاجة إلى دعم بشري يقدم له القوات العسكرية اللازمة لفرض حكمه، والدفاع عن نظامه الوحدوي الجديد الذي لم تعرفه البلاد ، ولم يَسْعَ إليه السومريون من قبل ، ولاخطر على بالهم ، وهم الذين تعودوا على الحياة مع الساميين من دون أن يتبادر إلي أذهانهم أنهم مختلفون في النشأة والأصل ، وفي طريقة التفكير العام ، وقد رأينا أن نسبة كبيرة من أسماء ملوك المدن كانت سامية، حتى في سومر نفسها حيث كانت الأغلبية من السكان سومرية. ولم تشر أحداث عصر الأسرات المبكرة في جنوب بلاد مابين النهرين ألبتة إلى قيام منازعات، أو ظهور عداء بين السومريين والساميين قبل قيام أسرة أكد السامية التي فقد السومريون في عهدها السلطة والتفوق الاساسي. وقد عبّر لوجال زاجيزي ذاته عن رغبته في توافر المحاربين بأعداد كبيرة «بعدد الأعشاب» لتثبيت حكمه وللذود عن مشروعه الوحدوي، ولكن من أين له الحصول عليهم وشعبه السومري محدود العدد، ولايتلقى أية إمدادات ، على عكس الساميين – إن كان يفكر فعلاً تفكيراً قومياً – الذين كانت جماعاتهم تنمو باستمرار عن طريق الهجرات الوافدة من الغرب بخاصة، من مثل الأموريين (الساميين) الذي بدأوا تحركاتهم آنئذ، ومنذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد باتجاه بلاد مابين النهرين ومناطق الهلال الخصيب بعامة. وقد أحس لوجال زاجيزي بالخطر الحقيقي الذي يتهدد حكمه، منذ بداية تنفيذه لمشروعه الكبير، والذي يتأتى من أرض أكد ، حيث كانت مدينة كيش (السامية) تفرض هيبتها على المدن السومرية الأخرى، فأسرع إلى مهاجمتها فور اتخاذه أوروك (التي

مكتبة المهتدين الإسلامية

ذكرت قائمة الملوك السومرية أنه أسس أسرتها الثالثة) مركزاً لدولته التي شرع في توسيعها. وليس من وثيقة كتابية تؤكد بسط حكمه على المنطقة الشمالية من بلاد بابل طوال حكمه الذي استغرق حوالي خمسة وعشرين عاماً، بل أغلب الظن أن سلطانه اقتصر على أرض سومر فحسب، وكان يخطط للاستيلاء على أرض أكد ويعد العدة لذلك، ولكن مفاجأة سريعة كانت تنتظره هناك أحبطت مساعيه، وأفشلت خططه ، بل كلفته حياته أيضاً، إذ ظهر منافس خطير له في أكدّ ، لم يوحد دول المدن السومرية تحت سلطته فحسب، بل وحد بلاد مابين النهرين كلها، وضم إليها سورية الشمالية ، ووصل فعلاً إلى جبال الأرز بجيشه الظافر الكبير، وفرض نفوذه على طول الساحل الغربي للخليج العربي وصولاً إلى عمان في أقصى الجنوب، إذ وضع ظهور الملك الأكدي سرجون نهاية لحكم لوجال زاجيزي ولأسرة أوروك الثالثة ، بل لعصر الأسرات المبكرة لدول المدن الأولى، وبدأ بقيام الدوله الأكدية السامية الأولى في بلاد مابين النهرين عصر جديد نقل بلاد بابل من نظام دول المدن إلى نظام الدولة الحقيقي بكل مقوماته وشروطه.

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الثاني

الدولة الأكدية

(٢٣٤٠ - ٢١٩٨ ق . م)

شارك الساميون قروناً طويلة السومريين في بناء الحضارة في بلاد مابين النهرين ، وظهر من بينهم رجال وصلوا إلى حكم بعض المدن في عصر الأسرات السومرية المبكرة ، ولاسيما في منطقة كيش ومايجاورها ، وفي منطقة الديالى ، حيث كانوا يشكلون أكثرية السكان . وكان من بين ملوكهم الأوائل الذين وصلت إلينا أسماؤهم ميباراجيزي وميساليم في كيش . وعلى الرغم من بروز الدور السياسي والحضاري للسومريين فإنه كان للسامين دور واضح في مجالات الفنون التشكيلية ، ولاسيما في النحت وفي فن العمارة ، في الدور الثاني من عصر دول المدن السومرية الأولى . ودخلت اللغة السومرية ألفاظ سامية منذ ظهور الوثائق التاريخية والاقتصادية الأولى ، ممايدلل على عمق العلاقات اللغوية أيضاً بين الجانبين ، كما دخلت اللغة الأكدية ، وهي أول اللغات السامية التي كتبت في بلاد مابين النهرين ، دخلتها ألفاظ سومرية عديدة . منذ ظهور آثارها الكتابية الأولى [١] . واستمرت عملية التأثير الحضاري والتأثر بين الفريقين من دون انقطاع في بداية العصور التاريخية .

ـــ ولكن ما أن انتزع الملك سرجون السلطة في كيش حتى بدأ الساميون دورهم الرائد في تطوير الحضارة البابلية ونشرها في كل أنحاء الشرق القديم ، واستلام زمام المبادرة السياسية في بلاد مابين النهرين .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٨ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

سرجون

يرجع أصل الأكديين إلى فريق من الأقوام السامية التي ولجت إلى المناطق الجنوبية من بلاد مابين النهرين في حوالي منتصف الألف الرابع قبل الميلاد ، قادمة من الصحراء العربية الشامية ، كما يتبين من موجات الهجرات السامية اللاحقة وخط سيرها الواضح ، ولاسيما هجرة الأموريين الذين سماهم أسلافهم من الأكديين «أمورو» ودعاهم السومريون «مارتو» أي «القبائل البدوية الغربية» ، لأنهم كانوا يعرفونهم بدواً يتجولون في الغرب ، وفي البادية السورية بالذات . وعندما وفدوا إلى بابل ، إنما قصدوها من الغرب ، ومن الشمال الغربي ، من جهات الفرات الأوسط ، حيث كانت مدينة ماري تقوم ، ويستوطنها قوم من الأكديين منذ ماقبل الدور الثاني من عصر الأسرات المبكرة/ وعندما وصلت تلك الموجة من الهجرات السامية إلى بلاد بابل حطت رحالها في المنطقة الشمالية منها ، كما ذكرنا ، حيث يقترب نهرا دجلة والفرات اقتراباً شديداً من بعضهما ، وتضيق المسافة بينهما كثيراً ، ثم يعودان إلى الابتعاد عن بعضهما ثانية ، وحيث تقع كيش القديمة ، ثم تابعت أفواج منها الانتشار في منطقة الديالى ، وقصدت جماعات منها قلب الأراضي السومرية في الجنوب وتغلغلت فيها ، وتوجهت جماعات أخرى منها إلى الشمال حيث استقرت في أراضي آشور [٢] .

---

(٢) ويؤكد ماذكرنا ظهور نموذج من التماثيل دعاه علماء الآثار باسم «المتعبد» ، وهو يمثل رجلاً في هيئة من يقف أمام الإله متضرعاً ومتعبداً ، وعثر عليه في ماري ، وفي آشور ، وفي تل حويرة عند منطقة ينابيع نهر الخابور في الجزيرة العليا ، ووصل في الدور الثالث من عصر الأسرات المبكرة إلى سومر في الجنوب ، وهو نوع من التماثيل التي لم تكن من ابتكار السومريين في أي حال ، وإنما كان ظهوره مترافقاً مع استقرار المهاجرين الجدد من الساميين ، أو كان من إنجاز الساميين القدماء الذين سبقوهم إلى استيطان تلك المناطق ، ويبقى احتمال ثالث بأن الفنان الذي ابتكر هذا الشكل من التماثيل إنما كان موطنه في الجزيره العليا . أنظر المصدر السابق ٦٣- ٦٥ .

http://www.al-maktabeh.com

اغتصب سرجون الحكم في مدينة كيش ، واعتلى عرشها باسم شروكين «الملك الشرعي»[٣] ، ثم اتخذ عاصمة جديدة قريبة من كيش عرفت باسم أجاده (السومري) ، واسم أكد (السامي) ، قد يكون هو من بناها أو عمل على تجديدها ، فقد كانت من المراكز الرئيسية في بلاد مابين النهرين لعبادة الربة إشتار (عشتار) التي عدها راعيته منذ صغره ، وكان فيها معبدها المسمى أولماش . وقد تميز عهده منذ بدايته ليس بنقل عاصمة المنطقة إلى مدينة جديدة معمورة فحسب ، بل بنظام الحكم الذي اعتمده ، وسار على نهجه خلفاؤه من أسرته ، واستمرت عليه كل الدول التي قامت في بلاد مابين النهرين . فلقد أصبحت العاصمة أكد مدينة دعي سكانها الساميون من جماعة سرجون نسبة إليها باسم «الأكديين » ، والدولة التي أنشأها سرجون باسم« الدولة الأكدية» ، والقسم الشمالي من بلاد بابل أمسى يدعى نسبة إليها باسم «أرض أكد» مقابل، «أرض سومر» في الجنوب .

أما نظام الحكم الذي سار عليه سرجون فيختلف شكلاً ومضموناً عن نظام دول المدن الذي كان سائداً من قبل ، ولاسيما بعد أن أقام سرجون مملكة مترامية الأطراف ، بل امبراطورية مختلفة الشعوب والأجناس ، تتطلب إدارتها نظاماً يستند إلى فكر سياسي يضمن للدولة الكبيرة ، وليس للمدينة ، استمراريتها . فالحكم التيوقراطي السابق يتوافق مع دول المدن ، ويناسبها ، ولكنه لايصلح مع الدول الكبيرة التي ينبغي أن تديرها مؤسسات متنوعة

---

(٣) يذكر سرجون ، وهو الاسم الشائع المحرف عن شروكين ، عن نفسه في نقوشه أنه لم يعرف أباه البدوي ، وأن عمه عاش في الجبال ، وكانت أمه كاهنة ، فولدته خفية في مدينة أزوبيرانو على ضفة نهر الفرات ، ووضعته في صندوق من القصب ، وألقت به في النهر ، فاحتمله الماء حتى انتشله منه بستاني يدعى أكي فتعهده بالتربية وتبناه ، ثم شملته الربة إشتار برعايتها وحبها ورفعت قدره ، فتوصل بفضلها إلى حكم «ذوي الرؤوس السود» . ويرى العالم FW, 2, S. 100 Bottéro أن مسقط رأس سرجون يقع في مكان ماعلى نهر الفرات الأوسط بين مصب نهر البليخ ونهر الخابور . ثم شغل الشاب سرجون منصب ساقي الملك في كيش ، المسمى أور - زابابا، الملك الثاني في أسرة كيش الرابعة ، بحسب قائمة الملوك السومرية ، ومالبث أن وثب عليه في ظروف غامضة واحتل مكانة على العرش .

مكتبة المهتدين الإسلامية

الهياكل، ومتعددة الأغراض ، ولابدلها من قيادة قوية تتمثل في شخص الملك الذي يجسد القيادة السياسية والعسكرية . ويلزمها جيش منظم ومدرب قادر ، على تنفيذ المهمات القتالية والأمنية ليس لصالح المدينة الواحدة ، بل لصالح الدولة المركزية الواحدة . ولم يعد رئيس الدولة هو إله البلاد ومالكها ، والملك نائبه ووكيله أعماله ، بل غدا الملك نفسه إلهاً ، ورئيس الدولة ، والآلهة تؤازره وتؤيده ، وتدعمه من الناحية الشكلية .

انصرف سرجون منذ بداية توليه الحكم في أكد في عام ٢٣٤٠ ق . م إلى تكوين جيش متميز بتدريبه وبأسلحته وبنظام قتاله . وصب اهتمامه على الارتقاء بأساليب القتال وفنونه ، فاعتمد على المبارزة الفردية التي كان البدو بخاصة يفضلونها ويتفوقون بها ، بحيث يقابل رجل رجلاً ، بدلاً من طريقة القتال السومرية التي تعتمد على المجموعات القتالية التي تحميها جماعة حملة التروس. وزود مقاتليه بأسلحة برونزية حديثة ، وشكل منهم فرقاً من رماة الأقواس والرماح ، وقد عزز تدريب الجيش وتنظيمه وتسليحه الحديث موهبة سرجون القيادية وتكتيكه الحربي[٤].

ثم شرع في توسيع حكمه على المناطق المجاورة الجنوبية التي كانت تخضع لسيادة ملك أوروك لوجال زاجيزي الطموح، وكان لابد من أن يقع الصدام بين الملكين. وبعد أن حقق النصر على ملك «سومر» لوجال زاجزي واحتل عاصمته أوروك ، وأخذه مصفداً بالأغلال في يده ورقبته ، داخل قفص إلى مدينة نيبور حيث يقوم معبد الإله الرئيس عند السومريين إنليل إمعاناً في إذلاله ، ولإظهار الخضوع والطاعة لعظيم الهة السومريين والساميين معاً ، وكسب رضاهم وولائهم . ثم تابع احتلاله للمدن السومرية الجنوبية الرئيسة وبينها أور ولجش وأوما ، واضطر إلى تدمير بعض المدن التي لم تعلن استسلامها ، ودك أسوارها ، حتى وصل إلى الخليج العربي حيث غمس سلاحه في مياهه رمزاً للسلام ونجاح مهمته. وتم له حينئذ إخضاع سومر بكاملها إلى

---

(٤) مورتكات، تاريخ الشرق الأدنى القديم ٨٧.

http://www.al-maktabeh.com

حكمه، وصار السيد الوحيد على أرض سومر وأكد، فاتخذ لقب «ملك سومر وأكد» (شرو مات شومري أو أكدي)[٥] وبعد أن تحقق له ماخطط له في بلاد بابل، وجه همه إلى ماوراء حدود جنوبي بلاد مابين النهرين، ولاسيما بعد أن توافرت لدولته الموحدة منذ ذلك الحين إمكانات بشرية ، وموارد اقتصادية ضرورية للفتوحات التي انتوى القيام بها . فهاجم عيلام المجاورة لبلاده في الجنوب ، ووصلت سفنه إلى دلمون في الخليج العربي . ثم وجه قواته إلى المناطق الشمالية حيث تقوم جبال زاجروس لكسر شوكة الجوتيين الأشداء الذين كانوا يروعون سكان المدن السهلية ، ولردعهم حتى لايفكروا في النزول إلى المدن . وفرض نفوذه على كل المناطق الشمالية من بلاد مابين النهرين ، وهي ماكانت تحمل اسم سوبارتو ، بما فيها منطقة آشور ، وعاد منها بغنائم كثيرة . وعندما قامت ثورة فيها ضده دمر حواضرها تدميراً شاملاً ، حتى «أن العصافير نفسها لم تجدلها مأوى فيها»[٦].

وبعد أن أحكم سيطرته على معظم بلاد مابين النهرين ، وجد أن أمر الاستيلاء على الجهات الشمالية الغربية منها قد تهيأت له كل الظروف المواتية ، وأن ذلك ضروري للتحكم فيما تبقى من طرق التجارة الرئيسة الأخرى الواقعة في سورية ، حيث تتوافر المواد الأولية، ولاسيما أخشاب الأرز والصنوبر، فقرر غزو تلك المناطق ، وبادر إلى تنفيذه على مرحلتين فوصل في المرحلة الأولى إلى مدينة ماري مروراً بمدينة توتول، وسيطر على منطقة الفرات الأوسط بكاملها في العام الثالث لحكمه، فأكمل احتلال كل مناطق بلاد مابين النهرين، وهي المناطق التي أوردت قائمة الملوك السومرية ذكرها، وعددت أسرها الحاكمة، ومن بينها

---

(٥) اتخذ سرجون في البداية لقب« ملك أكد» ثم أضاف إليه لقب «ملك كيش» لما يرمز إليه هذا اللقب من معنى قديم حتى بعد سقوطها وضياع نفوذها . ثم حمل لقب «ملك سومر وأكد» ولقب«ملك البلاد» بعد أن قضى على خصمه لوجال زاجيزي الذي كان يسانده خمسون إنسياً ، وبعد أن خاض ضده ٣٤ معركة . .FW, 2, 102

(٦) المصدر السابق ٨٩ . ويجدر التنويه هنا بأن تسلسل فتوحات سرجون غير معروف ، ويقوم على تصور مايمكن أن يكون حدث فعلاً من الناحية التاريخية والمعطيات الجغرافية فحسب ، وسبب ذلك غياب النصوص التي توضح سير الأحداث.

مكتبة المهتدين الإسلامية



سرجون الأكدي

الأسرة الحاكمة في ماري . ثم أقدم في العام الحادي عشر من حكمه على تنفيذ المرحلة الثانية ، وهي التي قادته إلى فتح مناطق واسعة تقع خارج أراضي بلاد مابين النهرين، وتمثل بحق أكبر مغامرة خاضها في تاريخ توسعاته وحروبه ، وتعني إضافة جديدة وفعلية إلى ماسيطر عليه من مناطق . وماكان لوجال زاجيزي قد ذكره مبالغاً ، وتباهى بتحقيقه ، إذ قال إنه « أخضع البلدان من مطلع الشمس حتى مغربها ، من البحر الأسفل (أي الخليج العربي) إلى البحر الأعلى (أي البحر المتوسط)» ، وكان في الحقيقة يحلم بالوصول إليه ، حققه بالفعل سرجون في العام الحادي عشر من حكمه ، حين غزا إبلا ثم تجاوزها إلى يرموتي (التي تجاور شمال شرقي سواحل البحر الأبيض المتوسط ؟) ، ووصل إلى غابة الأرز (وهي الأمانوس) ، وإلى جبال الفضة (والمقصود جبال طوروس) في جنوبي آسية الصغرى . وتتحدث الأخبار التي ألفها من بعده أنصار سرجون والمعجبون بشخصيته التاريخية الفذة وبانتصاراته المظفرة، عن عبوره مياه البحر الأبيض المتوسط إلى بلاد القصدير (ولعلها جزيرة قبرص أو السواحل الجنوبية لآسية الصغرى) وإلى جزيرة كريت لاحتلالها. بل وتتحدث عن تقدمه بجيوشه حتى قلب الأناضول (في آسية الصغرى) حيث تقيم بوروش خاندا عند بحيرة الملح الكبرى ، وهي المدينة التي

http://www.al-maktabeh.com

كانت تقيم فيها جالية أكدية وتعرضت لاضطهاد أحد حكامها ، فأسرع سرجون لتخليص بني جلدته من أذى ذلك الحاكم ، ويبدو أنها المدينة ذاتها التي أقامت فيها جالية آشورية ، وعرفت باسم كانيش فيما بعد. وقد يكون لمثل هذه الروايات الأسطورية شيء من الحقيقة على الرغم من غياب الوثائق التاريخية المعاصرة لتلك الأحداث التي رويت عنه . ولكن شهرة سرجون الواسعة التي قامت على إنجازات فعلية على الصعيد الحربي، ونتيجة الفتوحات العظيمة التي حققها ، جعلته أهلاً لكل أمر عظيم ، وتركت صدى عميقاً في نفوس معاصريه وخلفائه الذين عبروا عن إعجابهم الشديد ، وتقديرهم لشخصيته المتميزة بتأليف الروايات الأسطورية التي نسجوها من عالمه الحقيقي وعالم الأبطال الخارقين . ولكن الحقيقة التاريخية الموثقة تتأكد من خلال آثاره الكتابية ، والآثار المعاصرة له . ومن قبيل ماذكر بنفسه عن احتلال منطقة الفرات الأوسط ، وإلحاق مناطق سورية الشمالية والغربية الشمالية وجنوبي آسية الصغرى ، قوله :«إن الإله إنليل أعطاني البلاد العليا ماري ويرموتي وإبلا حتى جبال الأرز والفضة ..» ويذكر في نص آخر أنه أدى طقوس العبادة «للإله داجان في مدينة توتول ، فأعطاه (داجان) منذئذ الأرض العالية ماري ويرموتي وإبلا حتى غابة أخشاب الأرز وجبل الفضة»(٧) . كما يقول في نص مماثل : إن إنليل منحه كل المنطقة «من البحر الأعلى إلى البحر الأسفل ، وأقام أبناء أكد على حكم المدن حتى البحر الأسفل جنوباً ، وجعل رجال ماري وعيلام في خدمته» .(٨)
كما أكدت التنقيبات الأثرية الحديثة في تل مرديخ حيث تقع إبلا، وفي تل الحريري ، حيث كانت تقوم ماري تعرض المدينتين لحرائق وتدمير يعود تاريخه إلى تلك الفترة التي قام فيها سرجون باحتلال المدينتين .

---

(٧) A. L. Oppenheim, Sargon of Agade , in ANET P. 267 ; Kramer, The Sumerians, P 324; Klengel, Geschichte und Kultur Altsyriens, S. 23; Hirsch, Die Inschriften der Konige von Agade, in Afo, 20. (1963), S. 34.

(٨) محمد عبداللطف محمد علي ، تاريخ العراق القديم ٢٥٨ . Kramer, op. cit; 324

مكتبة المهتدين الإسلامية

لقد تمكن سرجون الأكدي أن يبني مملكة واسعة الأرجاء ، امتدت حدودها بين إيران حيث ترتفع جبال زاجروس ، في الشرق ، والساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط غرباً ، وبين الأناضول وجبال طوروس شمالاً ، والخليج العربي وعيلام جنوباً كما فرض نفوذه على طول الساحل الغربي للخليج العربي حيث كانت دلمون (البحرين) وماجان (عمان) وملوخا (الساحل الغربي المقابل لعمان) ترسل سفنها لتصل إلى العاصمة أكد من دون عوائق .

واستعان سرجون للسيطرة على تلك المناطق الواسعة ، وإدارة شؤونها بالأكديين من بني قومه ، ممن أولاهم ثقته ، وتوسم فيه الكفاءة الإدارية ، وكان أولئك الحكام يحملون اللقب السومري«إنسي» ، أما هو فكان لقبه الرسمي«شرو» ، أي «الملك» في اللغة الأكدية ، وهو اللقب المقابل للتسمية السومرية «لوجال». وبعد أن بسط سلطانه على كل مناطق بلاد مابين النهرين وشمال غربي سورية وجنوبي آسية الصغرى أتخذ لنفسه لقباً جديداً هو«ملك الجهات الأربع» وهو لقب اعتاد أسلافه أن يصفوا به آلهتهم الكبرى ، فانتحله لنفسه تأكيداً لعظمة نفسه وضخامة أعماله التي لم يسبقه إلى إنجازها ملك من قبل . وقد أعجب خلفاؤه من الملوك بهذا اللقب فحمله عدد منهم .

وطال حكم سرجون نحو ستة وخمسين عاماً (٢٣٤٠ -٢٢٨٤ق.م) ، كما تذكر قائمة الملوك السومرية ، وهي مدة كافية لإنجاز الكثير من الأعمال ، وتحقيق العديد من المشاريع مع توافر الهمة ، والطموح ، والإمكانات المادية ، وتأتى من فتوحاته الواسعة أن تدفقت الثروات من البلاد المفتوحة ، وانفتاح طرق التجارة المعروفة في ذلك العصر أمام سكان بلاد بابل ، وبلاد الشرق القديم . فأفاد أهل تلك البلاد جميعاً ، ونعم مواطنو سومر وأكد بالرخاء نتيجة لهذا كله ، وقد وصف نص يطلق عليه اسم «لعنة أكد» أحوال المواطنين في أكد بالعبارات التالية :

« في هذه الأيام (من عهد سرجون) امتلأت مدينة أكد بالذهب ، واكتظت منازلها المتألقة ضياء بالفضة . وجلب إلى مخازنها النحاس والرصاص وألواح اللازورد ، وتضخمت جوانب صوامع غلالها (من كثرة ماتكدس فيها من حبوب)

http://www.al-maktabeh.com

. ووهبت نساؤها المسنات الرأي (السديد) ، ووهب رجالها المسنون فصاحة (القول) ، ووهب شبابها(القوة بالسلاح) ، ووهب أطفالها الصغار قلوباً مرحة .. وانتشرت في داخل المدينة وفي خارجها الموسيقى .. ولم يشهد أهلها غير السعادة ..» [٩].

وذكرت نصوص الملك سرجون أن أهل قصره سكنوا حول مقره في مساحة تقدر بخمسة أميال مربعة ، وأن حراس قصره بلغوا ٥٤٠٠ جندي ، وكانوا يتناولون طعامهم يومياً على موائده . ويشير هذا إلى تعظيم نفسه واعتداده بأبهة سلطانه ؛ وقد حملت شهرته الحربية ، والمدى الواسع الذي وصلت إليها فتوحاته المتتالية للبلاد البعيدة التي لم يكن مواطنوه قد سمعوا بأسمائها ، ولاأسماء شعوبها الغريبة ذات الوقع العجيب في نفوسهم ، حملت الشعب والشعراء على التغني بأمجاد ملكهم ، وإطلاق العنان لخيالهم لنسج الروايات الأسطورية ، ونظم القصائد الطويلة التي تصور بطولاته وانتصاراته في كل مكان وصل إليه .

ونتج عن اتساع المملكة ، وتعدد أجناس شعوبها التي أكرهت على الخضوع لحكم الملك الأكدي ، ظهور القلاقل السياسية ، والمشاكل الداخلية والخارجية ، كما يتضح من أخبار النصوص المتأخرة ، التي تتطرق إلى الحديث عن أواخر عهده . فقد نشبت بعض الثورات في المناطق المحتلة ، ومن أبرزها ثورة اندلعت في سوبارتو ، وهي المناطق الشمالية من بلاد مابين النهرين . وبلغ من عنفها أن حاصر الثوار العاصمة أكد ذاتها . ولكن سرجون تصدى لهم بجيشه ، وشتت شملهم ، ثم جرد حملة عسكرية قادها بنفسه ضدهم ، فدمر مدنهم ، وانتقم من ذويهم شر انتقام ، على الرغم من شيخوخته . ولكنه لم يخلف لورثته مع ذلك تركة يسهل الحفاظ عليها . وترد بعض النصوص المتأخرة تدهور أحوال الدولة في خواتيم عمره إلى انتقام الإله مردوك منه لأنه نكل بمدينة بابل في ثورة غضب انتابته ، جعلته يهد أساسات المدينة ، وهي مركز عبادة مردوك ،

---

(٩) يعود تاريخ هذا النص إلى أواخر الألف الثالث ، أو أوائل الألف الثاني قبل الميلاد . أنظر محمد عبداللطيف محمد علي ، المصدر السابق . ص٢٧١ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

ثم أعاد بناءها وفق مخطط ناسب هواه . فغضب عليه الإله مردوك فأهلك شعبه ، وحول عنه الشعوب من الشرق إلى الغرب ، وابتلاه وقومه بالمجاعة ، وقضى عليه بعدم الراحة في قبره . مع أن عبادة مردوك لم يكن لها شأن كبير في أيام سرجون (١٠).

خلفاء سرجون

خلف سرجون على عرش أكد ابنه ريموش الذي لم يطل حكمه أكثر من تسعة أعوام (٢٢٨٤-٢٢٧٥) ، وكان عليه منذ اليوم الأول لاستلامه الحكم أن يتصدى لعدد من الثورات التي جابهته في سومر : أور ، لجش ، أوما ، أدب ، أوروك ، وكزالو . فبادر إلى مهاجمة مدينة أور التي تزعمت ثورات السومريين ، ونجح في قمع تمرد ملكها ، وعمد إلى تدمير سورها ، ثم تابع في العام الثالث من حكمه سفك دماء المتمردين في المدن الأخرى بلا رحمة ، وتهديم مدنهم وتسوية بيوتها ومنشآتها العمرانية بالأرض ، وانصرف بعد ذلك إلى تأديب ملك عيلام وحليفه ملك واراخشي في الشرق ، اللذين تعاهدا على التخلص من حكم الأكديين ، وردهما إلى حظيرة حكمه . ورغم التنكيل الشديد بأعداء الدولة من السومريين فإنه كان حريصاً على إظهار تبجيله للإله إنليل سيد الآلهة السومرية، أسوة بأبيه سرجون ، فأهدى معبده الرئيس في مدينة نيبور عدداً من تماثيله لإقامتها فيه، وكمية من الذهب والنحاس والآنية المرمرية التي غنمها من حربه ضد عيلام. وتشير آثار من عهده إلى أن نفوذه على المناطق الشمالية من بلاد مابين النهرين كان واضحاً، ولم يتراجع بعد أن قام والده بحملته الأخيره إلى تلك المناطق ، حيث تم العثور في مدينة آشور على رأس صولجان نقشت عليه عبارة «ريموش ، ملك الجهات الأربع». كما عثر في تل براك ، في الجزيرة العليا، على إناء يحمل عبارات :«ريموش ملك الجميع ، الذي ذبح عيلام

---

(١٠) عبدالعزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ، ص٤٢١

Oppenheim, The Sargon Chronicle, in : ANET, P. 266.

http://www.al-maktabeh.com

ووراخشي» . كما ينسب إليه بناء مدينة باسمه إلى الشمال من مدينة نينوى ، في المنطقة الآشورية[11] . ولم يتخل ريموش عن اللقب الفخري القديم «ملك كيش» ليؤكد صلته بالمدينة السامية القديمة وبإلهها آن . ويبدو أن نهاية حياته كانت مأساوية إذ دبر رجال القصر مؤامرة سقط ضحية لها ، وقد يكون أخوه وخليفته في الحكم ممن اشتركوا في مؤامرة التخلص منه .

خلف الملك مانيشتوسو (٢٢٧٥ - ٢٢٦٠ ق . م) ابن الملك سرجون الكبير أخاه ريموش في الحكم . وقد نعمت البلاد في بداية عهده بهدوء نسبي، إلا أن القلاقل بدأت تظهر بعدها في أنحاء متعددة من المملكة . فقد تمردت في الشرق أنشأن وشيريكو ، جارتا عيلام ، وكان عليه أن يتحرك بسرعة لإخضاعهما ، قبل أن تتفاقم الأمور في المناطق الأخرى وتزداد سوءاً ، فأسرع لإركاعهما ، واضطر إلى خوض المعارك ضد اثنتين وثلاثين مدينة في عيلام نفسها حتى حقق النصر على المتمردين فيها وعلى أطرافها الشمالية . ثم تحرك بجيشه إلى منطقة محاجر البازلت الواقعة على الطرف الغربي لساحل الخليج العربي لاحتلالها ووضع يده عليها . وأما في المناطق الشمالية فقد أبدى اهتماماً خاصاً عبر عنه بتأسيس معبد للربة عشتار في مدينة نينوى ، ورد ذكره في نص للملك الآشوري شمشي أداد الأول . وكان يتصرف بقسوة ، مثل أبيه وأخيه مع المتمردين ، إذ يروى عنه أنه ساق ملك أنشان ، بعدأن ذبح الكثير من قواده ، مكبلاً بالأغلال إلى معبد إله الشمس في سيبار ، ومعه الغنائم الكثيرة التي حصل عليها من بلاده ، وقدمها هدية إلى إله المعبد . وقد حافظ ، مثل أخيه ووالده على لقب «ملك الجهات الأربع» ، أي «ملك العالم» . طال حكم مانيشتوسو حوالي ١٥ عاماً، وانتهى بموته غيلة بمكيدة حيكت في قصره الملكي كاخيه قبله[12] .

---

(١١) Bottéro, in : FW, 2, 104.

(١٢) C. J. Gadd, Babylonia, in : CAH, Vol. I, Part II,

مكتبة المهتدين الإسلامية

ورث عرش أكّد بعد مانيشتوسو ابنه **نَرامْسين** (٢٢٦٠-٢٢٢٣ ق.م) الذي يقرن نشاطه العسكري وسيرته بجده سرجون. فقد كان لزاماً عليه أن يخمد ثورات نشبت في بداية عهده في أرجاء مختلفة من المملكة التي تعوّد سكانها على التمرد ضد سلطة الدولة الأكدية كلما جاء ملك جديد، وكأنه يعيد فتح كل المناطق التي كان جده قد أقام عليها الدولة. فثمة نص يعود تاريخه إلى بداية الألف الثاني ق.م. يذكر قيام ثورة عامة اجتاحت غالبية البلاد التي كانت تخضع للدولة الأكدية. ففي الجنوب في بلاد بابل، تمردت مدينة كيش، أقرب المدن إلى العاصمة، ومدن كوثا، كزالّو، أومّا، ونيبور التي يقوم فيها معبد كبير الآلهة السومرية والأكدية إنليل، وأوروك، وسيبار . وكذلك ماجان في الخليج العربي. وفي الشرق والشمال الشرقي عيلام ووارخشِه، وسيموروُم. وفي الشمال نامار وأبيشال وفي الغرب مدينة ماري. ونستخلص من هذا النص أن نرامسين واجه أوضاعاً بالغة التعقيد، لم يتعرض لها أسلافه، باستثناء جده الذي قهر تلك المدن كلها، وزاد عليها مدناً أخرى. ويتوضح من خلال آثار نرامسين الكتابية نفسها أن تلك المدن، وغيرها كثير، أعلنت العصيان عليه فعلاً في أوقات مختلفة من سنوات حكمه التي طالت حوالي سبعاً وثلاثين عاماً. وكان عليه أن يقطع البلاد من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب سعياً وراء الحفاظ على وحدة المملكة التي خلفها له أسلافه، مترسماً بدقة خطى جده سرجون، بل ومتشبهاً به وبطريقة تعبيره الذي ينم عن كبرياء وعظمة الأبطال، والذي لايخلو من ألفاظ المبالغة والتفاخر، إذ يذكر في نقوشه أن جيوشه وطئت أراضي وبلاداً لم يغزُها أحد من قبله. فهو يقول عن غزوه سورية : «منذ الأزل، منذ خلق البشر لم يخضع أي ملك من الملوك أرمان وإبلا. نيرجال (الإله) فتح الطريق لنرامسين القوي وأعطاه أرمان وإبلا، وأهداه جبال الأرز، والبحر الأعلى. وبسلاح داجان الذي جعل مملكته كبيرة أخضع نرامسين القوي أرمان وإبلا» (١٣) .

---

(١٣) Oppenheim, Naram -Sin in the Cedar Mountain, in : ANET, p. 268; Bottéro, in : CAH, vol. I, Part II, p. 325 f.

http://www.al-maktabeh.com

وتذكر نصوصه أنه هاجم قبائل اللولوبيين (والجوتيين) الجبلية في الشمال الشرقي من البلاد ، وحقق انتصاراً ساحقاً عليهم خلده في أثرين من عهده ، الأول نقش كتابي خلفه في منطقة المعركة ، والثاني لوح يعرف باسم «لوح النصر» ، تم العثور عليه في مدينة سوسه العيلامية (وهو موجود اليوم في متحف اللوفر بباريس) . ولكن اللولوبيين (ومنهم الجوتيون) لم يرهبهم هجومة وانتصاره ، كما لم ترهبهم مهاجمة جده سرجون من قبل ، بل ما انفكوا يتربصون بدولته الدوائر ، وينتظرون الفرصة للانقضاض عليها ، حتى تم لهم ذلك ، كما سنرى . ويبدو أنه أرسل حملة أخرى ضدهم لم تؤد إلى الوصول إلى الغاية المأمولة .

كما ذكرت نصوصه أنه وسع دائرة حكمه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط في الغرب ، وإلى آسية الصغرى في الشمال ، وحتى ماجان (عمان) في الجنوب ، وإلى عيلام في الشرق ، واتخذ مثل أسلافه لقب«ملك الجهات الأربع ، ملك العالم» وزاد عليهم صفة إلهية ، وهي صفة«إله أكد» ، إذ ظهرت العلامة الدالة على الآلهة ، وهي (دينجير) DINGIR في اللغة السومرية ، و(إيلوم) Ilum في اللغة الأكدية ، أمام اسمه في الكتابات الخاصة بأخباره (١٤).

ولكن التمعن في نصوص نرامسين يؤدي إلى إكتشاف حقيقة أن أوضاع الدولة المترامية الأطراف لم تكن تحمل على الاطمئنان ، على الرغم من حديثه الدائم عن الانتصارات الساحقة التي حققها على أعدائه ، فإن ثمة مايشير إلى توقع وقوع الكارثة التي ستودي بالدولة وتعصف بقواها الظاهرة الخادعة .

---

(١٤) Battéro , in FW, 2, S. 109 .

ويعبر عن تأليهه نفسه في لوح النصر المذكور بالخوذة التي يعلوها قرنان ، كانا يزينان عادة رؤوس الآلهة في هذا العصر كما تؤكد ذلك الأختام الأسطوانية العائدة للعصر ذاته. أنظر الصورة في الصفحة التالية.

Moortgat, Vorderasiat . Rollsiegel , 1940, No, 65 - 66.

مكتبة المهتدين الإسلامية



نرامسين (لوح النصر)

http://www.al-maktabeh.com

ومثال تلك النصوص واحد يتحدث عن عقد معاهدة بينه وبين ملك عيلام ، العدو التقليدي لأكد ، الذي ماعاد ، كما يبدو ، يخضع لأوامر الملك الأكدي ، كما كان من قبل في عهد أسلاف نرامسين ، حين كان يرغم على الخنوع ، كلما حاول التخلص من نير التسلط الأكدي . كما يستدل من النص الذي يتحدث عن قيام نرامسين بحملة عسكرية في مناطق زاجروس الجبلية الوعرة عن شعوره بالخطر الداهم الذي يتهدد دولته من جهة اللولوبيين الفقراء الذين كانوا يطمعون بالنزول إلى السهول الغنية في الجنوب .

وعندما خلف **شركليشري** (٢٢٢٣- ٢١٩٨ ق . م) أباه في الحكم بدأ تفكك الدولة وانفراط عقدها ، فقد اكتفى هذا الملك بلقب« ملك أكد» . ويشير هذا بوضوح إلى الواقع الذي كان الملك يعرفه حق المعرفة ، ويؤكد أن أوضاع البلاد بلغت درجة من الاضطراب لايجدي معها غير توافر ملك قوي ، يردها إلى ماكانت عليه من قبل . ولكن الأحداث تسارعت بوتيرة عالية ، ولم تترك لهذا الملك المتواضع من وسيلة للوقوف في وجهها بحزم وصرامة ، كما كان أسلافه يتصرفون . فقد حاولت أوروك التخلص من الحكم الأكدي ونجحت بذلك ، ولحقت بها عيلام التي استقلت تماماً عن الدولة الأكدية ، ولم تعد تربطها بها أية صلة . بل ذهبت إلى أبعد من ذلك فتجرأت على مهاجمة الدولة الأكدية في عقر دارها ، ووصلت قواتها إلى مدينة أكشاك الواقعة إلى الشمال من العاصمة أكد نفسها . ورغم نجاح شركليشري في رد المهاجمين على أعقابهم إلا أن غزو العيلاميين لأكد ذا دلالة عميقة على مدى استخفافهم بقوة الدولة الأكدية ، وهم الذين كانوا يطأطئون رؤوسهم تحت ضربات الملوك الأكديين من قبل .

ثم تعرضت الدولة لهجمة من القبائل الأمورية من جهاتها الشمالية الغربية والغربية ، وتمكن شركليشري من صدها أيضاً . بل وطاردها حتى جبل البشري في الجهة الشمالية من البادية السورية حيث كانت تجمع قواها ، وتتأهب للعب دورها المرتقب في تاريخ الشرق القديم ، ولم تشرع بعد بانتشارها الواسع في مناطق الهلال الخصيب .

مكتبة المهتدين الإسلامية

ويستدل من مجرى هذه الأحداث أن الدولة لجأت أخيراً إلى اتخاذ موقف الدفاع عن النفس بدلاً من الهجوم ، على الرغم من مطاردة الملك الأكدي للأموريين ، وللجوتيين الذين كانوا يتحينون الفرص بين الحين والآخر لمهاجمة المدن القريبة من الجبال .

وكانت النتيجة المتوقعة لهذه الأحوال أن البلاد أصبحت فريسة للطامعين ، وللفوضى التي ضربت أطنابها في طول البلاد وعرضها بعد اغتيال شركليشري . وتؤكد ذلك عبارة قائمة الملوك السومرية التي تذكر أنه «لم يعد معروفاً من كان ملكاً ، ومن لم يكن» (١٥) .

واستمرت أحوال البلاد في أكد نفسها على اضطرابها حوالي ثلاث سنوات ، ثم ارتقى العرش ملك استطاع أن يهدئ الأوضاع لمدة واحد وعشرين عاماً ، ثم خلفه ابن له لمدة خمسة عشر عاماً ، وقد اقتصرت سلطة هذين الملكين على مدينة أكد والمنطقة القريبة منها وحتى مدينة إشنونا على نهر ديالى الأسفل، وربما كانا تابعين لملكٍ آخر ، هو ملك أوروك ، أو ملك جوتيوم ، إذ أنهما لم يحملا لقب الملك ، فقد انفصلت في أواخر ايام شركلشري أوروك عن الدولة ، وقامت فيها أسرة حاكمة، هي الأسرة الرابعة بحسب رواية قائمة الملوك السومرية قبل أن ينقض الجوتيون على البلاد ، ويضعوا نهاية حزينة للدولة الأكدية في حوالي عام ٢١٥٩ ق . م .

لقد سقطت الدولة الأكدية ، ولكن تأثيرها الحضاري استمر بفعاليته وحيويته واضح المعالم ، فقد اصطبغت حضارات المنطقة ، وحضارات المناطق المجاورة لأطراف بلاد مابين النهرين بصبغة ثقافية متجانسة ، فانتشر الخط المسماري في كل مكان وصل إليه نفوذ الأكديين وحكمهم ، ومعه اللغة الأكدية (السامية) التي غدت لغة الدولة الرسمية إلى جانب اللغة السومرية التي تراجع نفوذها بوضوح ، وازدادت جذور الفن الأكدي في مجال النحت والتصوير

---

(١٥) محمد عبداللطيف محمد علي ، ص ٢٩٥ .Gadd, op. cit. p. 456

http://www.al-maktabeh.com

رسوخاً في هذا العصر . كما تبوأت آلهة الأكديين مكانة رفيعة إلى جانب الآلهة السومرية، ووجدت طريقها إلى قلب المدن السومرية، ومجمع الآلهة السومري الذي تأثر بألقاب وصفات الآلهة السامية المقابلة. وبعد أن كانت الآلهة السومرية محلية غدت بتأثير الأكديين آلهة «عالمية» .

الجوتيون

الجوتيون قبائل كانت تستوطن الجبال الشمالية الشرقية من بلاد مابين النهرين حيث ترتفع جبال زاجروس ، وتجاور اللولوبيين الذين كانوا يشكلون قوام سكان الجبال الأساسي . وكان الجوتيون أشرس تلك القبائل ، وأكثرها عداء لسكان السهول ، وطمعاً في خيراتهم . وكان سرجون الأكدي قد تنبه إلى خطر تلك القبائل وما قد ينجم عن غزواتها المتكررة على مدن السهل البابلي من أضرار بالغة، ولدولته الناشئة من خطر ومعوقات تصرفه عن تحقيق مشروعه التوسعي الكبير، فبادر إلى مهاجمة تلك القبائل الجبلية التي لم تعرف الحضارة والمدنية سبيلاً إلى حياتهم ففرق شملهم، وأنزل بهم ضربات موجعة، لإرهابهم وردعهم، حتى لايعودوا إلى بث الذعر والخوف في نفوس سكان المدن، قبل أن يتابع تنفيذ خطته الرئيسة . ثم رأينا حفيده نرامسين يتصرف معهم تصرفاً مماثلاً، ولأهمية إنجازه في الانتصار عليهم أقام نصبه الذي عرف باسم لوح النصر.

ولكن الجوتيين كانوا قوماً لاينفع معهم الإرهاب ، ولاخسران المعارك ، لأنهم كانوا يطمعون في امتلاك مابحوزة سكان المدن ، وسلب المزارعين ، والاستيلاء على المحاصيل والأرزاق . وليس من قوة مهما بلغت من عنف وقساوة بقادرة على ردعهم ، فقد كانوا خير من يمثل حقد الإنسان المتوحش الجشع الذي لا يأبه لما يعترض سبيله . فعندما تأكدوا من ضعف الدولة الأكدية ، وعرفوا أن الطريق إلى نهب البلاد أصبح ميسوراً ، لم يترددوا في الهجوم على

مكتبة المهتدين الإسلامية

أواسط وجنوبي بلاد مابين النهرين . ولما لم يجدوا من يتصدى لهم ، ويقاومهم ، فإنهم تمادوا في أعمالهم الوحشية ، فقتلوا من صادفوه في طريقهم ، ونهبوا المعابد والقصور والبيوت ، وأسروا أعداداً كبيرة من السكان ، وأضرموا النيران في العاصمة أكد ، إمعاناً منهم في التعبير عن حقدهم الدفين ضد ملوكها ، وبثوا الذعر والهلع في نفوس المواطنين ، وزرعوا الدمار والخراب في كل مكان ، وعاثوا في البلاد فساداً ، في أرض أكد ، وفي أرض سومر على السواء . وقد وصفتهم النصوص السومرية بقولها : إنهم « أفاعي وعقارب الجبال .. اختطفوا الزوجة من بعلها ، والأطفال من أهلهم ، ونقلوا الملكية من سومر إلى الجبال»(١٦) وفي نص آخر تذكر أفعالهم :

«البلاد في أيدي أعداء قساة . لقد سيقت الآلهة إلى الأسر ، وأثقلت كواهل السكان بالضرائب . وجفت الأقنية وشبكات الري، وأصبح نهر دجلة غير صالح لعبور السفن ، ولم يعد بالإمكان ري الحقول ، ولم تعط الحقول محاصيلها» (١٧).

ولكن الدمار في المدن الأكدية كان أكبر من الدمار الذي الحقه الغزاة بالمدن السومرية ، على الرغم من تعرضهم لمدينة أوروك بالحريق لأنها كانت مركزاً لأسرة حاكمة تتمتع بنفوذ سياسي على بعض المدن المجاورة ، ولم تنج مدن شمال بلاد مابين النهرين من أذى الجوتيين ، ومنها آشور ونينوى ، وحتى منطقة تل براك في الجزيرة العليا . وقد ظلت ذكريات الغزو الجوتي الأليمة مطبوعة في أذهان الأجيال اللاحقة ، فلم ينسوا لهم تدنيسهم المعابد الدينية بخاصة ، وسرقتهم تمثال الإلهة أنينوتو- عشتار من مدينة سيبار .

كان الجوتيون متخلفين ، وتنقصهم كل الأسباب للنهوض بدولة حل بها الدمار ، وسادت فيها الفوضى نتيجة لهمجيتهم. وكان كل همهم ينصب على نهب البلاد والسيطرة على ثرواتها ، فلم يعوا ماتتطلب الأوضاع التي تسببوا

---

(١٦) مورتكات ، تاريخ الشرق الأدنى القديم ١٠٣ .Kramer, The Sumerians, p. 325

(١٧) توفيق سليمان ، دراسات في حضارات غرب آسية القديمة ، ص١٤١ .

http://www.al-maktabeh.com

فيها من إصلاح وإدارة حتى يطمئنوا إلى حكم البلاد بعد أن خلت من الحكام . ويبدو أنهم لم يفكروا في السيطرة السياسية على البلاد كلها ، والحلول محل الأكديين ، وفرض سلطة مركزية ، إذ أنهم لم يكونوا مؤهلين لذلك بالفعل ، بل اكتفوا باحتلال أرض أكد ، وربما بعض بقاعها فحسب ، حيث تركوا بعض كتائبهم من قبيل المحافظة على وجودهم ، وإشعار المواطنين بحضورهم . ولما كانوا شديدي التخلف ولايملكون من أسباب الحضارة شيئاً ، فإنهم وقعوا تحت تأثير الحضارة الأكدية ، ولم يقدموا للبلاد إنجازاً حضارياً واحداً ، بل قلدوا السكان في معاشهم ، فتكلموا لغتهم الأكدية ، وكتبوا بالقلم المسماري الأكدي ، واتخذ عدد من ملوكهم المتأخرين أسماء سامية ، ولم يخلفوا أثراً واحداً بلغتهم الخاصة . كما دانوا بالعبادة لبعض الآلهة الأكدية إلى جانب آلهتهم الجوتية التي تأثرت بصفات آلهة الأكديين . فعبدوا الإلهة عشتار ، والإله سين ، وعدوهما من آلهتهم الخاصة . وحمل بعض ملوكهم ألقاب الملوك الأكديين إلى جانب لقب خاص بهم هو « ملك جوتيوم القوي» .

ولم تصلنا عن أحداث العصر سوى معلومات ضئيلة لندرة المصادر التاريخية ، ومن بينها الآثار العمرانية ، لأن الجوتيين لم يبنوا شيئاً يذكر بهم ، بقدر ماخربوا ، ولم يضيفوا جديداً على ماخلف الأكديون ، بل تقمصوا حضارة هؤلاء من دون وعي واستيعاب حقيقي لتلك الحضارة ، على الرغم من طول حكمهم النسبي الذي طال حوالي المائة عام ، كما تذكر قائمة الملوك السومرية ، وتداول الحكم فيه واحد وعشرون ملكاً .

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الثالث

العصر السومري الحديث

(عصر الإحياء السومري)

في غمرة الفوضى السياسية التي عمت بلاد مابين النهرين بعد احتلال الجوتيين للعاصمة أكد ، وفي غياب السلطة المركزية ، وبعد مقر الحكم الذي اتخذه الملوك الجوتيون في الشمال ، إذ لم تعرف لهم حاضرة بعينها مارسوا منها إدارة البقاع المحدودة التي فرضوا سلطتهم الفعلية عليها ، فلربما بقي الحكام في جوتيوم نفسها ، قام أهل المدن بإدارة شؤونهم العامة ، ولا سيما في القسم الجنوبي من البلاد ، حيث كان السومريون بعيدين نسبياً أكثر من سكان أرض أكد ، ولم يقصروا في دفع الجزية للغزاة الأغراب ، وإظهار مايترتب عليهم من الاعتراف بسلطتهم الشكلية . فاستفاقوا من وهلة الهجوم الجوتي ، وعادوا إلى حياتهم الطبيعية ، وأقاموا بعض الحكومات المحلية في أرض سومر . وكانت مدينة أوروك منذ أواخر العصر الأكدي قد انفصلت عن السلطة الأكدية المركزية، وقامت فيها الأسرة الحاكمة الرابعة . وقد تعزز استقلالها في خضم الفوضى التي تسبب فيها الهجوم الجوتي على البلاد، على الرغم من الضرر الذي لحق بها نتيجة دخول الجوتيين المدينة وحرقها ، أسوة بغيرها من المدن السومرية . ولكنها نهضت من جديد . كما لاحت تباشير نهضة عامة في غيرها من المدن السومرية ولاسيما في مدينة أور ، ولجش وما أن أهل الربع الأخير من القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد حتى استنزف الجوتيون قوتهم الدافعة ، ونشاطهم الفعال الذي كان يميز تحركاتهم ، فخفت حدتهم ، واستكانوا إلى حياة الراحة ، كما يبدو ، وأطمأنوا إلى طريقة حياتهم الجديدة . في الوقت الذي قامت في

مكتبة المهتدين الإسلامية

سومر نهضة ثقافية واقتصادية أعادت إلى البلاد ألق الحضارة السومرية القديمة ، وبعثت في السومريين روح التجديد الحضاري ، وبدأ في الجنوب عصر جديد يطلق عليه اسم «العصر السومري الحديث » أو«عصر الإحياء السومري» .

جوديا حاكم لجش

قامت في مدينة لجش أسرة حاكمة ، وهي الثانية في تاريخها بعد انقضاء حكم الملك الأكدي شركليشري في حوالي عام ٢١٩٨ ، استقلت في إدارة أمورها، ولم تذكرها قائمة الملوك السومرية ، كما لم تذكر الأسرة الأولى ، لأسباب غير معروفة . وكان لهذه المدينة نفوذ في مدينة أور ، كما يتوضح من نقش عثر عليه في هذه المدينة يسمي ابنة ملك لجش أوربابا كاهنة كبرى في معبد إله القمر نانا [١] .

واشتهر من ملوك هذه الأسرة جوديا ، صهر الملك السابق ، الذي خلف مجموعة من التماثيل ، نحت أغلبها من حجر الديوريت ، وهي تظهر على وجهه ملامح التقوى والتواضع الذي كان سمة لشخصيته ، إذ أنه أكتفى بلقب «إنسي الإله نينجرسو (إله مدينه لجش الرئيس» ، ونعتته نصوص عهده بلقب «الراعي» . وتفانى في خدمة إله لجش الذي عده ملك لجش الحقيقي بحسب عقائد السومريين القديمة التي لم يتخلوا عنها في زمن الهيمنه الأكدية ، وصرف اهتمامه إلى معبد لجش الذي كان حريصاً على ترميمه وصيانته وتأمين مستلزماته من المواد التي كان يجلبها عن طريق البر والنهر والبحر من عيلام ، ومن ماجان وملوخا ، ومن جبل الأرز والصنوبر[٢] ، كما يذكر في كتاباته الخاصة ، ومن بينها ماسجل من نشاطاته الدينية على أسطوانتين كبيرتين تعدان

---

(١) Gadd, in : CAH, Vol. I, part II, p. 459 .

(٢) Oppenheim, Gudea Ensi of Lagash, in : ANET, p. 268f.

http://www.al-maktabeh.com

من حيث الحجم أكبر ماعرف تاريخ الكتابات في بلاد الرافدين ، كما يعد مانقش عليهما أطول الأعمال الأدبية السومرية المعروفة ، ولاتخلو كتاباته من ادعاء أنه لم يصل إلى جبل الأرز أحد قبله ، ولم يجلب الكتل الحجرية التي اقتطعها من المحاجر أحد قبله .

ويبدو من نصوصه أن لجش عاشت في عهده نشاطاً تجارياً ، انفتحت فيه الطرق لتجاره الذين وصلوا ببضائعهم إلى البحر الأعلى في الشمال ، والبحر الأسفل في الجنوب ، وإلى عيلام في الشرق ، وإلى ماجان (عمان) في أقصى الجنوب من الخليج العربي . وجلبوا منها كل ما كان فيها من ثروات خشبية ، ومعدنية ، وحجرية لأعمال البناء ولاسيما المعابد ، وللصناعة المحلية ، كما جلبوا منها المواد الغذائية والملابس ، ومنها القمح والشعير ، والأنسجة الكتانية (من مدينة إبلا على سبيل المثال).



جوديا ملك لجش

وكانت لجش في هذا الوقت تمثل نموذجاً لدولة المدينة التي عرفتها المنطقة في عصر الأسرات السومرية المبكرة ، وهو النظام الذي بدأ بالظهور من جديد بعد القضاء على الدولة الأكدية ، بل في أواخر أيامها . فقد كانت لجش (ويدعى موقعها اليوم باسم الهبة) دولة سيطرت على عدد من المدن المجاورة التي كان عددها يصل إلى سبع عشرة ، وعلى ثماني مدن صغيرة مع قراها التابعة لها . أما مركز الدولة فكان في جيرسو (تلو اليوم) وليس لجش نفسها . وكانت مدينة أور ، كما ذكرنا ، ومعها مدينة إريدو التي كانت تخضع بدورها لسيطرة أور تابعتين لنفوذ دولة لجش . ويتوضح هذا من نص لجوديا يذكر فيه أن إلهه نينجرسو قام بزيارة لمدينة إريدو ، وكأنه يتحرك في أراض

مكتبة المهتدين الإسلامية

داخل الدولة نفسها. كما يؤكد نفوذ لجش في عهد جوديا وانتشاره في كل أرض سومر حديثه عن بناء المعابد في عدد من المدن ، في أور ونيبور، وأدب ، وبادتبيرا ، ويستخلص من ذلك أن حكام لجش من الأسرة الثانية حلوا محل ملوك أكد إلى حد كبير حين وسعوا دائرة سلطتهم مستغلين الفراغ السياسي الذي خلفه حكم الجوتيين المضطرب ، وعدم اكتراثهم بما يجري في الجنوب السومري ، طالما كان الشمال الأكدي ملك يدهم .

ويستنتج من سياسة جوديا الاقتصادية الناجحة أنه توصل إلى الحصول على مايحتاج من مواد وسلع متنوعة عن طريق التجار ، والتعامل السلمي ، ومن دون استخدام السلاح . فوصل تجاره إلى كل المناطق التي وصل إليها سرجون الأكدي ، وحفيده نرامسين ، بجيوشهما ، وجلبوا منها الثروات المرغوبة، من دون إراقة للدماء ، وخوض للمعارك . وتذكر نصوصه أنه خاض حرباً ضد جارتيه أنشان وعيلام في الشرق ، وهو الخبر الوحيد عن لجوئه الى السلاح طوال حكمه الذي استمر حوالي عشرين سنة (٢١٤٤-٢١٢٤ ق . م) أو ثلاثين ، ورغم انتصاره على جيرانه لم يحتفظ بالأراضي التي حقق عليها نصره المؤزر ، إذ لم يكن في نيته احتلال أرض المعتدين ، بل تأديبهم وردعهم وحسب . وقد وفر للبلاد بهذه السياسة السلمية تكاليف الحروب المادية والبشرية الباهظة التي كانت تتطلبها سياسة الملوك الأكديين الذين كانوا يسعون إلى الغاية نفسها، وهي السيطرة على موارد تلك المناطق البعيدة والقريبة الاقتصادية والحصول عليها . فاختلفت الطريقة إذن والهدف واحد .

ولم يقصر جوديا اهتمامه على التجارة ، بل التفت كذلك إلى أعمال البناء، ولاسيما بناء المعابد الدينية، وتتحدث نصوصه عن اهتمامه بشق القنوات ، وبوسائل الري لتنشيط الأعمال الزراعية ؛ وكان لايهدأ له بال حتى تصل مياه الفيضان التي تغذي الأرض بالطمي الذي تجلبه ، وتنعش التربة ، ويعم الخير البلاد بعد تقديم جوديا الأضاحي والقرابين للآلهة ، وبناء المعابد الجديدة [٣] .

---

(٣) W. V. Soden, Herrscher im Alten Orient, 1954, S. 16.

http://www.al-maktabeh.com

خلف جوديا في الحكم ابنه أورننجرسو ، ومن بعده حفيد له ، لم يتجاوز حكمهما معاً أكثر من عشر سنوات . ثم انتقل الحكم إلى صهرين آخرين لمؤسس الأسرة أورببابا . وفي عهد الأخير منهما وصل إلى حكم أوروك ملك سومري يدعى أوتوخنجال (أوتو خيجال ٢١١٦ - ٢١١٠ ق . م) استقل عن لجش ، وطرد الجوتيين من البلاد ، إذ وجه إليهم ضربة ساحقة بانتصاره على آخر ملوكهم المسمى تيريقان الذي أسره وقاده إلى مدينة أوروك ، ثم سعى إلى فرض سلطته على المدن السومرية الأخرى التي دانت له بالطاعة ، بعد أن أثبت كفاءته الحربية، وحرر البلاد من طغيان الجوتيين العتاة . ولكن أوتوخنجال لم ينعم طويلاً بهذه السلطة أكثر من سبعة أعوام ، كما تذكر قائمة الملوك السومرية ، إذ انقلب عليه أحد قادته العسكريين السابقين ، وهو أورنمو الذي عينه حاكماً على مدينة أور بعد أن ضمها إلى مناطق نفوذه.

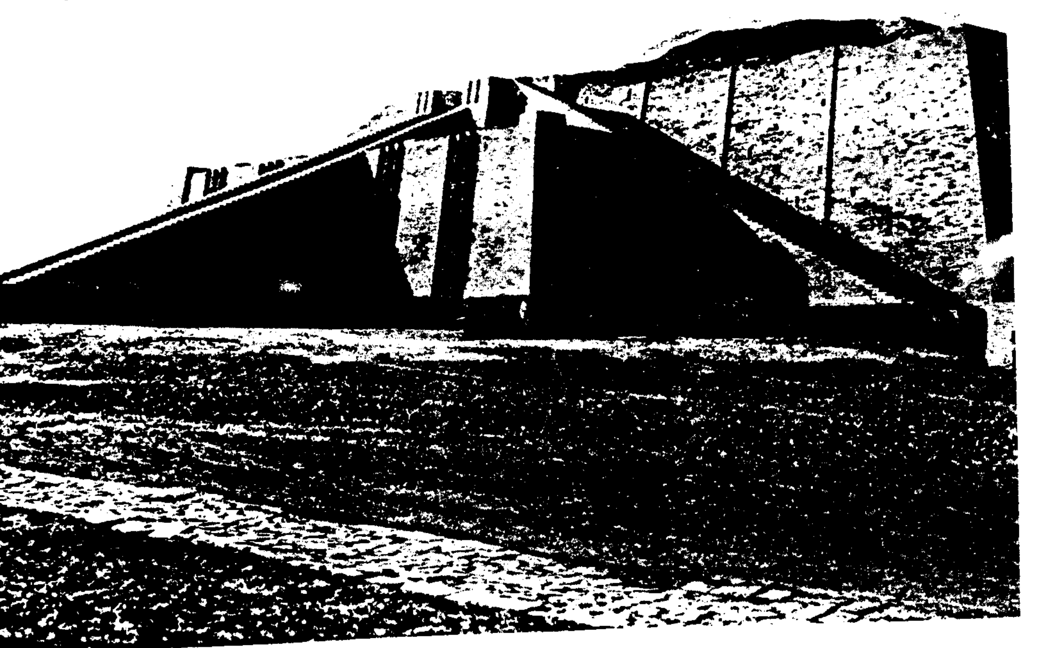
أسرة أور الثالثة (٢١١١-٢٠٠٣ق . م)

تعاقب على عرش أسرة أور الثالثة خمسة ملوك كان أولهم المؤسس أورنمو (٢١١١-١٠٩٤ ق .م) الذي تمكن من جمع المدن السومرية كلها تحت سلطته ، بعد أن أنتصر على ملك أوروك أوتوخينجال ، محرر البلاد من الجوتيين، وسيده الذي جعله حاكماً عسكرياً على أور من قبل . ثم مالبثت لجش ومعها المدن السومرية الأخرى أن خضعت لسلطته ، وتبعتها بعض المدن في أرض أكد الواقعة إلى الشمال من مدينة نيبور . كما يبدو أن نفوذه تجاوز بلاد بابل إلى الجزيرة العليا . فتلقب حينئذ باللقب الأكدي القديم «ملك سومر وأكد» . وبدأ نشاطاً عمرانياً واسعاً قام به في مملكته الموحدة في مدن سومرية وأكدية متعددة، ومنها تشييده زقورة لإله القمر نانا في العاصمة أور ، وتحصين المدينة التي تطل على نهر الفرات من ثلاث جهات ، والقيام بتشييد وترميم ماتهدم من معابد الآلهة في مدن مختلفة وشق أقنية الري لإيصال مياه نهري الفرات ودجلة إلى الأراضي الزراعية ، وصيانة القديم منها . كما وجه عنايته لرسم الحدود الفاصلة بين المدن والأقاليم التي اختلطت نتيجة الفوضى التي تسبب بها

مكتبة المهتدين الإسلامية

الجوتيون من قبل، فحدد بذلك للحكام المحليين، وحكام المدن مسؤوليات إدارتهم، وأزال مسببات المنازعات والخلافات حول الأراضي ومصادر المياه.

وأضاف أورنمو إلى إصلاحاته الإدارية وإنجازاته العمرانية، تشريعات نظمها في مواد قانونية، تُعَدّ الأولى من نوعها في تاريخ بلاد مابين النهرين، والشرق الأدنى القديم بعامة، وقد توخّى منها تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع من جهة، وبينهم وبين المعبد، وبين القصر الملكي من جهة أخرى. وقد سبقه إلى



زقورة الملك أورنمو ملك أور

التفكير بتنظيم العلاقات المذكورة في سومر ملك لجش أوروكا جينا (أورو إنمجينا) قبل حوالي ثلاثة قرون، ولكن في صيغة تنظيمات إدارية ، نصت على منع الكهنة وموظفي الدولة من استغلال وظائفهم الدينية، أو الحكومية لتحقيق الثراء والأرباح الطائلة على حساب المواطنين الضعفاء، ولم ترق تلك الإصلاحات إلى منزلة القانون الذي أصدره أورنمو ، وعرف نسبة إليه باسم قانون أورنمو. وكما ذكرنا، يُعَدّ هذا القانون أقدم ماتم الكشف عنه من قوانين حتى الآن.

http://www.al-maktabeh.com

دُوِّن قانون أورنمو باللغة السومرية، وبالقلم المسماري الذي أدخل عليه الأكديون تعديلات جعلته أكثر طواعية للتعبير عن الأغراض المتنوعة. ومن المؤسف أن القانون لم يصلنا منه سوى نسخ منقوشة على كسر طينة تم العثور عليها في مدن ينبور وسيبار وأور، وتمثل أجزاء منه فحسب، ويعود تاريخها إلى بداية الألف الثاني ق.م. ويتعذر نتيجة لهذه الأسباب التكهن بحجم القانون الكامل، وشكل المسلة أو اللوح الذي نقش عليه النص الأصلي(٤) .

ويبدو أن القانون كان يتألف من مقدمة، تليها المواد القانونية، ثم ينتهي بخاتمة أسوة بما عرف من القوانين اللاحقة التي اتخذت منه نموذجاً في شكلها وتصميمها. أما المقدمة فخصصها للحديث عن نفسه، ويذكر فيها أن إله السماء آن، وكبير الآلهة السومرية إنليل سلّما حكم أور لإله القمر نانّا، واختاره هذا لتمثيله في حكمها. ثم يتحدث عن أعماله، وعن حرصه على تحقيق العدل في البلاد، وحماية الفقراء والأرامل واليتامى من ظلم الأقوياء واستغلاهم. وينوّه بقيامه بتوحيد الأوزان والمكاييل والمقاييس.

ثم تتوالى بعد المقدمة المواد القانونية التي صيغت على شكل : إذا فعل رجل (أو امرأة ، أو زوج ..) كذا ، تكون عقوبته كذا .

تعالج مواد القانون التي تم العثور عليها وهي اثنتان وثلاثون(٥) قضايا اقتصادية واجتماعية ، وتعتمد مبدأ التعويض المادي عن الأضرار الجسدية من جروح وكسور وتشوهات ، بأن يدفع المتسبب بالضرر غرامة مالية للمتضرر ، ولكنها تقرر عقوبة الإعدام للجرائم الشنيعة ، من قتل واغتصاب ، وزنى في

---

(٤) يعد عالم السومريات كريمر أول من قرأ اللوح المسماري الذي عثر عليه في نيبور والذي يتضمن أجزاء من القانون. ثم أتبعه بقراءة كسرتين أخريين مع عالم آخر هو جورني Gurney . ثم أصدر فينكلشتاين Finkelstein دراسة شاملة لما تم العثور عليه من أجزاء نشرها ١٩٦٨ – ١٩٦٩ في :. Journal of Cumeiform Studies, 22, p. 66-82 ثم أعاد نشرها بعد التعديل في. ANET, 1969, p. 523 - 525 : وانظر : فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، بغداد ١٩٧٩؛وأخيراً : عيد مرعي ، قوانين بلاد مابين النهرين، دمشق ١٩٩٥.

(٥) أنظر الترجمة الكاملة للمواد في : عيد مرعي ، المرجع السابق ص ١٦ – ١٩ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

حالات خاصة. وفي الأحوال الشخصية نص القانون على عقوبات الطلاق من غير وجه حق ، وعلى حق الأرملة ، والخطيب إذا لم يف والد الخطيبة بالوعد ، وعقوبة شهادة الزور ، ورمي النساء بالفاحشة ، وغيرها من القضايا التي نجد أن قانون حمورابي يتطرق إليها ، ولايختلف كثيراً في إقرار أحكامها .

خلف شولجي أباه في الحكم ، وطالت مدة جلوسه على العرش حوالي ٤٨ عاماً (٢٠٩٣-٢٠٤٦ق. م) مكنته من تنفيذ مشاريع توسعية ، وأخرى عمرانية عديدة في مدن سومر وأكد . لقد ورث من أبيه مملكة ثابتة الأركان ، إذ عمل والده على أن تستقر أحوالها ، وجاهد في سبيل فرض هيبة الحكم في أرجائها. ولكن سياسة أبيه الحكيمة ، وجهوده المضنية لم تحل دون ظهور معارضة في أرض أكد التي كانت تتوق مدنها إلى الإستقلال . فتذكر نصوصه أن مدينة بابل قامت بعصيان استحقت عليه نهب كنوز معابدها . غير أن جهوده الحربية انصرفت في النصف الثاني من سني حكمه إلى مهاجمة جيرانه في الشمال الشرقي ، وفي الشرق . فقد هاجم مناطق اللولوبيين ، في جبال زاجروس ، وألحق الدمار والهزيمة بسكان سيموروم في جهات الزاب الأسفل وكركوك ، والسليمانية ، وأربيل . ويبدو أن سكان تلك المناطق لم يتخلوا عن عاداتهم وطبائعهم الجبلية الشرسة ، فتوجب على شولجي أن يوجه حملات عسكرية عدة لإرهابهم ، على الرغم من حديث نصوصه عن تحقيق الانتصارات الساحقة ، من دون أن تؤدي غرضها الفعلي ، ولكن حملاته العسكرية كانت ضرورية للدفاع عن الدولة ، فالهجوم خير وسيلة للدفاع . كما لم يتردد شولجي في مهاجمة في مهاجمة أنشان التي صاهر حاكمها الإيراني الملك شولجي وتزوج ابنته ، ولم يقصر في تدميرها ، عندما لمس منه ماينم عن تهديد سافر لأمن بلده . ويبدو أن شولجي حاول أن يكسب ولاء بعض جيرانه عن طريق المصاهرة ، فزوج ابنته الأخرى من إنسي منطقة مَرْخَشِه التي كان الأكديون يسمونها من قبل واراخشِه، وهي جارة عيلام القريبة ، وغدت أخته ملكة هناك . كما لم يتورع عن مهاجمة عيلام وعاصمتها سوسة في العام الثامن والعشرين من حكمه وضمها إلى مناطق نفوذه ، فعاد ارتباطها بحكومات بلاد بابل من جديد على يده . وعندما

http://www.al-maktabeh.com

بدأت طلائع الهجرة الحورية تصل إلى المناطق الشمالية من البلاد سعى شولجي إلى إيقاف تغلغلها، من خلال حملاته العسكرية على منطقة سوبارتو التي أعادها إلى سلطة الدولة الجديدة بعد أن انفصلت عن الدولة الأكدية طوال العصر الجوتي .

وصلت دولة الأسرة الثالثة في أور أقصى اتساع لها في عهد شولجي ، وكادت تساوي في نفوذها ماكان للدولة الأكدية من نفوذ وسيطرة . فقد امتد نفوذ مملكته من الخليج العربي جنوباً إلى آشور والجزيرة العليا والفرات الأوسط حيث تقوم مدينة ماري شمالاً ، ومن عيلام وجبال زاجروس في الشرق إلى البادية السورية وربما حتى جبيل على ساحل البحر الأبيض المتوسط غرباً . وقد أجاز له ذلك النفوذ الواسع حمل اللقب الملكي الأكدي «ملك الجهات الأربع» عن جدارة .

ورفعه أهل بلاطه إلى مرتبة الألوهية ، ويبدو أنه أعجب بالفكرة ولم يعترض عليها . كما أطلق اسمه على أحد الشهور . وعبر كاتب سومري عن رأي شولجي في نفسه ، فقال :«أنا الملك ، كنت بطلاً في بطن أمي ، أنا شولجي ، صاحب البأس منذ مولدي ، أنا أسد ثاقب البصر ، ابن مارد ، أنا ملك أركان الدنيا الأربعة ، أنا حامي السومريين وراعيهم . أنا بطل ، رب البلاد كلها..»[٦].

كما كان شولجي، مثل والده أورنمو وكل الأسرة، ينتسب إلى الإلهة نِنْسو والدة جلجامش، بطل الأسطورة السومرية وملك أوروك المشهور، ويدعي أنها أنجبته من صلبها، وأن جلجامش أخوه، ليؤكد شرعية حكمه ويكتسب ولاء الرعية ويضمن خضوعهم. وقد حقق شولجي ماصبا إليه، إذ سمى بعض المواطنين أبناءهم باسم«شولجي إيلي» و«شولجي باني»، أي «(الملك

---

(٦) S. Moscati, The Face of the Ancient Orient, 1960, p. 38; عبدالعزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ، ص٤٣٥ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

شولجي إلهي» ، و«شولجي خالقي» ، وأحاط نفسه بهالة قدسية كالتي كانت تلتصق بالملك الأكدي نرامسين من قبل أيام مجد الدولة الأكدية .

انصرف شولجي في بداية حكمه إلى إقامة المشاريع العمرانية ، وفي مقدمتها إكماله بناء عدد من المعابد والزقورات التي بدأ أبوه بإنشائها ولم يسعفه الوقت لإتمامها ، مثل زقورة أور نفسها ، وزقورة الوركاء ، وتجديد منطقة معبد إنليل في نيبور . كما اهتم بمدينة إريدو وبمعابدها ، وبطرق المواصلات ، وبراحة المسافرين الذين يستخدمون تلك الطرق . وعمل على ربط الأقاليم بالعاصمة وببعضها مع بعض عن طريق تنظيم رحلات منتظمة لموظفي البريد من العدائين الذين هيئت لهم محطات لضمان وصول تعليماته إلى حكام الأقاليم(٧).

ووصل إلى الحكم الابن الاكبر أمارسين (٢٠٤٥-٢٠٣٧) وقد تقدم في السن لطول المدة التي جلس فيها والده شولجي على العرش ، فلم يهنأ بالسلطة أكثر من ثماني سنوات . وكان عليه أن يركز جهوده منذ البداية على إخضاع القبائل الجبلية في الشمال الشرقي من المملكة ، كما فعل والده قبله . وحرص على أن يبسط سيادته المباشرة على عيلام وجيرانها ، فعين حكاماً لحواضرها من أتباعه المخلصين في سوسة وخمازي ووارخشه ، واضطر إلى نقل حاكم آشور المخلص ، كما تذكر نصوصه ، إلى سوسة ليطمئن إلى أحوالها . واستمر بتنفيذ سياسة البناء والإعمار التي اتبعها والده وجده من قبل في المدن المختلفة . ويبدو أنها كانت ضرورية لتعويض ماهدمه وخربه الجوتيون في عصرهم البغيض . وينسب إلى عهده بناء معبد الإله إنكي في إريدو الواقعة على البحر الأسفل (على الخليج العربي) . ولم يتخل أمارسين عن الهالة المقدسة التي أحاط بها والده نفسه ، فقد بنى واليه في آشور معبداً له ، وحملت كتاباته نعتاً له بأنه «الإله ، الشمس ، الذي يهب الحياة للبلاد» . وعندما مات دفن إلى جوار والده في قبر أقيم فوقه معبد لعبادته وتقديم القرابين والصلوات عليه(٨) .

---

(٧) Gadd, in : CAH, Vol, I, Part II, p. 601.

(٨) طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ٣٨٨.

http://www.al-maktabeh.com

ثم جلس على عرش أور **شوسين** (٢٠٣٦-٢٠٢٨ ق . م) الذي لم تطل سنوات حكمه أكثر من أخيه أمارسين ، ووجه همه مثله منذ سنوات حكمه الأولى إلى توجيه حملة عسكرية إلى المناطق الجبلية الشمالية الشرقية حيث كان سكانهاالايركنون إلى الهدوء ، فيثورون كلما تهيأت لهم الفرصة ، وكانوا يمثلون شغل الأسرة الحاكمة في أور الشاغل ، ثم لم يلبث أن وجه إليهم في العام السابع حملة ثانية لتأكيد سيطرته على تلك المناطق من جديد ، ولاسيما بعد أن ناصرتهم قوى من الجوار الإيراني .

وتذكر نصوصه أنه قام في السنة الرابعة من جلوسه على العرش سوراً أطلق عليه اسم «سومر مارتو» ، أو «السور الذي يبعد التيد نوم» ، ويقصد بالتيدنوم ، أو التيدانوم ، قسماً من قبائل المارتو البدوية ، وهي التسمية السومرية للقبائل الأمورية (أو العمورية) التي تتشكل منها الهجرة الثانية من هجرات الساميين ، والتي بدأت بالإغارة على جنوبي بلاد الرافدين في عهد شوسين انطلاقاً من البادية السورية ، بهجمات خطيرة هددت أمن البلاد ، وحملت الملك على إقامة جدار يحول دون وصول المهاجمين إلى قلب البلاد بطول ٢٦ ساعة مضاعفة (بيرو في اللغة السومرية) ، أي حوالي ٢٧٥كم (١٧٠ميلاً) ، ويبدأ عند قنال أبكلات على نهر الفرات ويمتد إلى الجهة الشمالية الغربية من مدينة بغداد . ولعل شوسين أراد بذلك أن يعرقل تقدم الأموريين ، ويبطئ من سرعة اندفاعهم في هذا الموقع الذي تعودوا أن يلجوا منه (كما ولج قبلهم من نفس المكان أسلافهم الأكديون) فيسهل موقف مقاتلي شوسين الدفاعي ، ويتمكنون حينئذ من النيل من المهاجمين بصورة أفضل . وكان ذلك حلاً مؤقتاً في حينه ، ولكنه يؤكد حقيقة جدية الأوضاع الخطيرة التي تهدد كيان الدولة ، ويشير بوضوح إلى الجهة التي سيكون لها دور فعّال في القضاء على المملكة .

وثابر شوسين على سياسة توثيق العلاقات مع العيلاميين عن طريق المصاهرة ، فزوّج إحدى بناته لحاكم أنشان ؛ وعهد بالإشراف على الأقاليم الشرقية إلى حاكم لجش، وعينه حاكماً عاماً (سوكال - ماخ في السومرية) .

مكتبة المهتدين الإسلامية

وكان شوسين حريصاً مثل أخيه وأبيه شولجي على إضفاء هالة من القدسية على شخصه ، ولم يمانع في بناء معابد لتقديم القرابين وطقوس العبادة له ، فقد أشارت النصوص إلى أن حاكم إشنونا ، ومثله حاكم لجش شيدا معبداً باسمه في حياته .

ارتقى العرش من بعد شوسين إبنه إبيسين ، وهو الملك الخامس والأخير في أسرة أور الثالثة ، ودام حكمه حوالي أربعة وعشرين عاماً (٢٠٢٧-٢٠٠٣ق.م) .

وواجهت المتاعب ملك أور بعد خمس سنوات من الحكم في المناطق الشمالية الشرقية حيث تحرك سكانها الجبليون من جديد ، فأخمد ثورتهم وقضى على تمردهم . وفي العالم السادس زوّج ابنته من حاكم زابشالي الإيراني لإقامة تحالف معه ، كما فعل والده وجده من قبل . ولكن هذا التحالف لم يؤت ثماره عندما تصدى إبيسين لوحده بعد أربع سنوات من هذا الزواج ، أي في العام العاشر من حكمه ، لتمرد قامت به سوسة ومدينتان أخريان في شمالي عيلام ضد الملك ، فلم يتدخل صهره على قرب منطقته من مناطق التمرد ، وتركه يتكبد مشاق الطريق والحرب لوحده ، وقد تمكن إبيسين من سحق المتمردين ، واقتاد زعيمهم أسيراً إلى العاصمة أور[٩] . ثم قاد حملة عسكرية أخرى في العام الرابع عشر من حكمه ضد المتمردين على السلطة في الأقاليم التابعة لعيلام .

ولكن بداية النهاية ظهرت أعراضها في النصف الثاني من حكمه ، إذ كثرت الضغوط العسكرية على المملكة ، ولاسيما في جهاتها الشمالية الغربية حيث كان الأموريون مصممين على دخول بلاد بابل ، وكأنهم اتخذوا قراراً لا رجعة عنه ، لأنه يمس مصير حياتهم المحتوم ، ويتصل بمستقبلهم في المنطقة . وانتقلوا بالفعل إلى التصرف بجدية ، فزادوا من ضغوطهم المباشرة ، ومن أعداد

---

(٩) W. Hinz, Persia 2400- 1800 B. C., in : CAH, Vol. I, Part II, p. 658 ; محمد عبداللطيف محمد علي ، تاريخ العراق القديم ٣٢٣

http://www.al-maktabeh.com

المتسللين . ومن جهة ثانية كان العيلاميون يتحينون الفرصة المناسبة للانفصال من جديد عن سلطة أور ، فهم على الرغم من تأثرهم الشديد بحضارة بلاد بابل السومرية والأكدية ، وارتباطهم المتواصل بحكوماتها المتوالية ، لم تتولد عندهم القناعة بإمكان التعايش مع جيرانهم ، بل استمرت العلاقة العدائية بين الطرفين في كل العصور . أما في الداخل فلم يطمئن السكان في المدن الكبيرة التي كانت تدار من الحكام (الإنسيين) إلى الحكم المركزي ، على الرغم من طول العهد الذي طبق فيه على المدن السومرية والأكدية منذ العصر الأكدي ، وتشدد ملوك أور ، ولاسيما في عهود الملوك الأربعة الأوائل الذين جعلوا منه سمة بارزة لحكمهم .

ومع هذا كان المواطنون في المدن ينزعون إلى الحكم اللامركزي ، ويفضلون نظام دول المدن القديم . لقد فتت هذه العوامل الرئيسة الثلاثة في عضد الدولة ، وأدت إلى انهيارها المرتقب ، ويبدو أن الأقاليم البعيدة بدأت تقطع صلاتها المباشرة مع العاصمة أور ، وتتحلل من التزاماتها تجاه السلطة المركزية، بالتدرج . وصاحب هذه الظاهرة ضغط الأموريين المتزايد في الغرب ، إذ اخترق هؤلاء «سورمارتو» الذي أقامه شوسين لإيقاف توغلهم ومنعهم من الانتشار في المنطقة الشمالية من أرض أكد ، ووصلوا إلى قلب المنطقة ، وصاروا يسيطرون على مدنها ، الواحدة بعد الأخرى .

واستغل هذه الأوضاع قائد عسكري للملك إبيسين في مدينة ماري الواقعة على الفرات الأوسط يدعى إشبي إرا ، فطلب من الملك صلاحيات واسعة تمكنه من اتخاذ إجراءات رادعة ضدتحركات الأموريين في بلادبابل نفسها ، وحدّدطلبه الحقيقي بأن يعينه الملك حاكماً على مدينة إيسين . وكانت العاصمة أور والمدن الجنوبية تعاني من ضائقة غذائية بسبب اضطراب الأحوال في الشمال ،وغياب الأمان في المناطق الزراعية . فلم يكن إشبي إرا يسعى لإنقاذ مليكه والبلد من المشاكل التي شلت حركته، وأوقعت السكان في حالة أقرب ماتكون إلى المجاعة، وإنما كان يريد أن يبتزه ويحصل منه على الموافقة على تعيينه «إنسياً» على مدينة إيسين الواقعة في قلب سومرنفسها. وعرض إشبي

مكتبة المهتدين الإسلامية

إرا على الملك إيصال المؤن الازمة من الحبوب إلى العاصمة الجائعة ، وهوفي الأصل كان مكلفاً بتأمين الحبوب لها وللمنطقة الوسطى ، وكانت الكمية المطلوبة تحت تصرفه في إيسين ، ولكنه احتجزها متذرعاً بأن وسائط النقل غير متوفرة لشحنها إلى أور ، وهي ستمائة مركب ، على الملك تأمينها . ولم يكن هذاتحت تصرفه مثل هذا العدد . وكان إشبي إرا قد استقر فعلاً في إيسين واغتصب الحكم فيها ، وأعلن نفسه ملكاً عليها مؤسساً أسرة حاكمة مستقلة ، منافسة لأسرة أور . وعند سقوط هذه حاولت أن تحل محلها في السيطرة على سومر وأكد . وتذكرنا هذه الحادثة بتصرف مؤسس أسرة أور أورنمو نفسه الذي انقلب من قبل على سيده أوتوخنجال ملك أوروك ومحرر البلاد من الجوتيين .

كان انفصال إيسين بزعامة إشبي إرا مثالاً على ظهور بوادر العصيان والاستقلال في المدن السومرية والأكدية نفسها ، ويؤكد ذلك أن أكثرها ماعاد يلتزم باستعمال التاريخ الذي كانت السلطة في أور تلتزم به نسبة إلى الحوادث الرسمية ، بل عمدت كل واحدة منها إلى التاريخ نسبة إلى حوادثها الخاصة ، ويعني هذ آنذاك أنها ماعادت تعترف بالسلطة المركزية[١٠] . ورافق ذلك تهاون حكام الأقاليم في إرسال الضرائب وما يتوجب عليهم من محاصيل وأرزاق . وتمادوا في التقصير شيئاً فشيئاً حتى قطعوا صلتهم بالملك . ويشهد على تدهور الأحوال في النصف الثاني من حكم الملك إبيسين الرسائل المتبادلة بينه وبين إشبي إرا الذي ذكرنا طرفاً من أخباره ، وبين الملك وحاكم منطقة كزالو في الجهات الشمالية من أور الذي يعلمه بمحاولة إشبي إرا لضم مدينة كزالوا بعد أن استقل بغيرها من المدن ، ومنها نيبور وكيش ، كما يصب الملك جام غضبه على حكام المدن الذين لم يتكاتفوا ويتعاونوا معه لصد جماعات الأموريين . وزاد الحالة سوءاً أن العيلاميين انتهزوا الفرصة ، وحشدوا قواهم لمحاصرة العاصمة نفسها ، كما يفهم من رسالة إشبي إرا إلى الملك . وعندما حانت الساعة اجتاحوا المدينة فسقطت في أيديهم بعد مقاومة طويلة يحتمل أنها شغلت

---

(١٠) Edzard, in FW, 2, S. 150

http://www.al-maktabeh.com

السنوات العشر الأخيرة من عهد إبيسين ، فأعملوا في سكانها القتل ، وفي مبانيها الدمار والخراب ، واقتادوا الملك أسيراً الى عيلام . وطبقاً للأسلوب السومري في تفسير النكبات التي تحل بالبلاد، أرجعوا سبب زوال دولة أور ، وتدمير معابدها ، وسلب كنوزها إلى غضب الآلهة ونقمتها ، وبخاصة غضب إنليل . وقد نظموا القصائد الطوال في رثاء مملكتهم الأخيرة ، لأنه لم تقم لهم بعدها قائمة ، ولاظهرت في مدينة أور بعدهذه الأسرة الثالثة أسرة حاكمة جديدة. وتابع إشبي إرا سياسته التوسعية ، فضم مدينة أور إلى حكمه بعد أن طرد العيلاميين منها . وعادت بلاد بابل إلى نظام دول المدن بعد أن تفككت وحدتها في نهاية عهد ملك أور إبيسين وسقوط أسرتها . وظهرت من بين حكومات المدن دويلتان ، هما دويلة إيسين التي أنشأها إشبي أرا الأموري ، ودويلة منافسة لها هي دويلة لارسا التي أسس فيها نابلانوم أسرة حاكمة أيضاً تحت نفوذ العيلاميين .

وبدأ عصر جديد يدعى باسم العصر البابلي القديم نسبة إلى عاصمة الدولة التي انتقلت إليها السيادة بهمة الملك حمورابي ، السادس في أسرته الأمورية ، والذي أعاد لبلاد مابين النهرين وحدتها من جديد . وتميز هذا العصر في بدايته بظهور الدول أو الدويلات الأمورية في بلاد مابين النهرين وفي سورية، إذ كان العصر عصرهم ، وكانت السيادة لهم . أما السومريون فقد دال نفوذهم السياسي بسقوط آخر دولهم في أور التي استمرت حوالي مائة عام ، وكانت آخر أمل لهم في البقاء أمة متميزة بإنجازاتها الحضارية ، لأنهم مالبثوا أن ذابوا في المجتمع السامي ، وتفرقت جماعاتهم المحدودة التي لم تتزايد أعدادها لأنها لم تتلق إمدادات بشرية جديدة ، من بني جلدتهم ، في المحيط السامي الذي كان يتلقى باستمرار أعداداً ضخمة من المهاجرين الجدد ، بدءاً من الأكديين في فجر التاريخ ، إلى الأموريين في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ، ثم الآراميين في منتصف الألف الثاني .

وقد تعايشوا مع واقع ظروفهم ، ومثلما أعطوا ، فإنهم تلقوا من الساميين

مكتبة المهتدين الإسلامية

الكثير ، وتأثروا بهم في مجالات متعددة ، في المجال اللغوي ، والمجال الديني ، وعلى صعيد التنظيم السياسي للدولة الذي طوره الأكديون حين أقاموا أول دولة موحدة في بلاد مابين النهرين ، وبدءاً من «سومر وأكد» . وأخذوا عنهم الألقاب الملكية ، وإن احتفظوا ، ومثلهم الأكديون ، بألقاب حكام الأقاليم والمدن ، فاتخذوا لقب«ملك الجهات الأربع» ، أي «ملك العالم» ، وألهوا أنفسهم ، وحمل ثلاثة من ملوك أور الخمسة أسماء سامية ، وهم شوسين ، وأمارسين ، وإبيسين ، حيث تبدو أسماؤهم مركبة من إسم إله القمر السامي سين .

ولكن على الرغم من اختفاء السومريين من المسرح السياسي فإن تراثهم الثقافي الذي حرصوا على تدوينه ونسخه في عصر الإحياء السومري ، ولاسيما في عصر أسرة أور الثالثة ، ظل حياً ومنبعاً ثراً لكل العصور التالية ، تنهل منه، وتزيد عليه من ثقافة أهلها وابتكاراتهم ، وتبرز من آدابهم قصص ، وملاحم ، وأساطير ، ومحاورات دينية ودنيوية ، كانت من أشهرها قصة الطوفان ، وملحمة جلجامش ، ونزول إنانا إلى العالم السفلي ، وأسطورة دوموزي ، وقصة الخلق ، وصعود إيتانا إلى السماء .

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الرابع
العصر البابلي القديم

يطلق اسم العصر البابلي القديم على الحقبة الزمنية التي تقع بين نهاية سلالة أور الثالثة حوالي عام ٢٠٠٣ ق.م، وبين نهاية الدولة البابلية القديمة التي حكمتها الأسرة البابلية الأولى حوالي عام ١٥٩٥ق.م على يد الحثيين، وقيام الدولة الكاشية أو الأسرة البابلية الثالثة .

ويقسم العصر البابلي القديم إلى قسمين : القسم الأول ، ويبدأ بسقوط دولة أور، ودام زهاء القرنين والنصف، ويتميز من الناحية السياسية بالعودة إلى نظام دول المدن، وقيام عدة دويلات متعاصرة ومتحاربة، ولذلك دعي أيضاً باسم «عصر المدن الثاني» ، أو «عصر الانتقال الثاني» (١) . كما اصطلح على تسميته أيضاً باسم «عصر إيسين – لارسا» نسبة إلى أهم الأسر التي حكمت في بلاد بابل في أعقاب سقوط أور، وهما أسرتا إيسين، ولارسا.

أما القسم الثاني من العصر البابلي القديم فيطلق عليه أحياناً اسم «عصر حمورابي» ، ويبدأ بتوحيد بلاد بابل على يد حمورابي، وهو الملك السادس في أسرة بابل الأولى، حوالي عام ١٧٦٣، وينتهي بسقوط الدولة البابلية القديمة في حوالي عام ١٥٩٥ق.م.

١ - أسرة إيسين (٢٠١٧-١٧٩٤ ق.م)

استقل إشبي إرّا (٢٠١٧-١٩٨٥) بمدينة إيسين مستغلاً أوضاع أور السيئة حيث كان آخر ملوكها إبيسين يعاني من حدة الضائقه

(١) D. O. Edzard, Die zweite Zwischenzeit Babyloniens, Wiesbaden 1975.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الاقتصادية ، ونقص المواد الغذائية من جهة، ومن ضغط القبائل الأمورية التي احتلت المناطق الشمالية من بلاد بابل، وغدت تحتل مدينة بعد الأخرى، من جهة ثانية، ومن الفوضى السياسية التي عمت البلاد كلها، وأعلن نفسه ملكاً بعد أن ابتز الملك لتعيينه حاكماً على مدينة أور. ثم مالبث أن بسط حكمه على عدد من المدن المجاورة التي كانت تابعة لأور. وعندما اجتاح العيلاميون ومعهم سكان الجبال العاصمة أور واستولوا عليها، تركوا فيها حامية عسكرية بعد أن انسحبوا منها، ووضعوا نهاية لدولة أور. فتوجه إشبي إرا إلى مدينة أور نفسها، وطرد الحامية العسكرية العيلامية منها، وضمها إلى ملكه، واعتبر نفسه وريثاً شرعياً لملكة أور. واتخذ اللغة السومرية لغة رسمية لملكته التي توالى على حكمها أفراد من أسرته ، فأسس أسرة حاكمة في إيسين حمل ملوكها وعلى رأسهم إشبي إرا ألقاب ملوك أور، مثل «ملك الجهات الأربع» ، وألهّوا أنفسهم مثلهم، وعدوا أنفسهم آلهة حامية لأرض سومر، كما يتضح من الأختام الأسطوانية التي يعود تاريخها إلى زمنهم(٢).

وفي عهد الملك الخامس من هذه الأسرة، وهو الملك ليبيت عشتار (١٩٣٤-١٩٢٤ ق.م)، تراجع نفوذ أسرة إيسين لصالح الأسرة الناشئة في مدينة لارسا التي نافست أسرة إيسين، وبدأت بانتزاع السيادة منها على مدينة أور ومايجاورها في الجنوب، وبدأ صعود نجم مدينة لارسا وأسرتها الحاكمة، وأصبحت أوضاع بلاد بابل تشبه إلى حد كبير الأ وضاع التي مرت بها أيام عصر دول المدن السومرية الأولى ، إلى أن تمكن ملك لارسا ريم سين حوالي عام ١٧٩٤ من القضاء على أسرة إيسين بعد أن تداولت السلطة أكثر من مائتي عام.

استمر الازدهار الحضاري في عهد هذه الأسرة الذي شهدته أسرة أور الثالثة، بكل مظاهره، وتم استنساخ قائمة الملوك السومريين الأخيرة في عهد هذه الأسرة، إذ ضمت إليها أسماء ملوكها، وأهملت أسماء ملوك وحكام الأسر المعاصرة. ولعل أبرز إنجازات هذا العهد يتمثل في القانون الذي أصدره الملك

---

(٢) Edzard, FW,2, S. 152.

http://www.al-maktabeh.com

لبيت عشتار، وهو ثاني أقدم قانون مدون تم الكشف عنه بعد قانون أورنمّو.

يشبه قانون ليبيت عشتار من حيث المضمون والشكل قانون أورنمو، فهو يعالج قضايا اقتصادية واجتماعية متنوعة، ويتألف من مقدمة ومواد قانونية تمثل المتن، وخاتمة. ويذكر في المقدمة أن أبا الآلهة آن، وملك كل البلاد إنليل الذي يحدد الأقدار، طلبا إليه، ليبيت عشتار الراعي الخاشع من نيبور، والمواطن الموثوق من أور، الذي لم يهمل إريدو، والسيد المناسب لأوروك ملك إيسين ، ملك سومر وأكد، العزيز على قلب إنانا، وأنه أقام العدل في سومر وأكد حسب أوامر إنليل، طلبا إليه وضع هذا القانون .

ثم تتوالى مواد القانون التي تم للمختصين قراءة اثنين وثلاثين مادة من أصل تسع وثلاثين تم العثور عليها منقوشة على عدد من الكسرات الطينية. ويعتقد الباحثون أن المواد مع المقدمة والخاتمة كانت مدونة على لوح، أو مسلة، وتشتمل في الأصلي على ١٢٠٠سطر. وقد دون القانون باللغة السومرية ، على الرغم من أن الأسرة الحاكمة في إيسين كانت أمورية، كما ذكرنا . ويقوم القانون على مبدأ تعويض الضرر بالمال، وهو المبدأ الذي نجده في القوانين السومرية.

ثم يذكر المشرع في الخاتمة أنه طبق العدالة ، وقضى على العداوات والعنف والشكوى والظلم، وجعل سومر وأكد ترفل بالنعيم. ويدعو بالخير لكل من يحفظ المسلة التي نقش عليها القانون، ويلعن من يلحق الضرر بها، ويمحو ما خُطّ عليها، كائناً من كان[٣].

٢ - أسرة لارسا

يعد ملك لارسا جُنجونوم (١٩٣٢-١٩٠٦) الذي انتزع مدينة أور ولجش من سلطة ملك إيسين أول ملوك أسرة لارسا الذين بدأوا عهداً من التنافس بين

---

(٣) ارجع لمزيد من التفصيل والترجمة الكاملة إلى : عيد مرعي، قوانين بلاد مابين النهرين، ص ٢١- ٣١.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الأسرتين. ويبدو أن ليبيت عشتار ملك إيسين آنئذ لم يحرك ساكناً. وتعايشت الأسرتان مع بعضهما في البداية، وبعض الأسر في المدن السومرية والأكدية الأخرى حتى حوالي عام ١٨٩٨ في عهد ملك لارسا أبيساري الذي اشتبك في العام الثامن من حكمه في معركة مع ملك إيسين، جاءت نتيجتها لصالحه. وبعدها بدأت كفة القوى بين المدينتين تميل بوضوح إلى جانت لارسا، إذ استولت هذه على أراض جديدة في أرض أكد، وبدأ حكامها يتطلعون إلى الحلول مكان إيسين في توسيع نفوذهم. وظهر أول ملك فيها، واسمه سومر إيل، ادعى الألوهية، وكان الوحيد الذي فعل ذلك قبل ريم سين. وكانت إيسين ولارسا في هذا الوقت تتصارعان حول مدينة نيبور مركز عبادة الإله إنليل، إذ كانت السيادة عليها تنتقل من وقت لآخر بين الأسرتين الحاكمتين(٤). ولكن قوة لارسا كانت تتعاظم يوماً بعد يوم. حتى تدخل في شؤون لارسا شيخ أموري يدعى كودور مابوك، كان حاكماً لإقليم يموتبال المجاور لعيلام، ويخضع للنفوذ العيلامي، فنصب ابنه وردسين (حوالي عام ١٨٣٨ق.م) حاكماً على لارسا. ثم خلفه أخوه الأصغر بعد أحد عشر عاماً، وكان اسمه ريم سين. فوصلت لارسا في عهد ريم سين إلى أوج قوتها وأمجادها، في أثناء حكمه الطويل (١٨٢٢-١٧٦٣)، وتم له في العام ١٧٩٤ القضاء على أسرة إيسين، فوجد نفسه بعدها وجهاً لوجه أمام أسرة بابل في عهد ملكها السادس حمورابي. وظل كل واحد منهما يتربص بالآخر حوالي ثلاثين عاماً، حتى حسم حمورابي المعركة بينهما لصالحه، فتغلب علي ريم سين، وقضى على آخر أسرة حاكمة في بلاد بابل في حوالي عام ١٧٦٣ ق.م، دام حكمها حوالي ٢٦٠سنة.

٣ - إشنونا

تقع إشنونا (تل أسمر الحالية) على نهر ديالى شمال شرقي بغداد، وتعد من أقدم المناطق التي سكنها الساميون منذ فجر التاريخ. وقد خضعت لدولة أور الثالثة كغيرها من المدن الأكدية، ثم استقلت بنفسها وما يجاورها من الأراضي

---

(٤) Edzard, op. cit. p. 175.

http://www.al-maktabeh.com

الخصبة في المثلث المحصور مابين دجلة وديالى، وقامت فيها في بداية الألف الثاني مملكة جاورتها آشور في الشمال ، وعيلام في الجنوب الشرقي وأرض أكد في الجنوب الغربي. وكان على ملوكها أن يثبتوا قدرة كبيرة على الصمود في خضم الأحداث المضطربة التي تأتّت من انهيار دولة أور وانفراط عقدها، وظهور دويلات المدن المتعددة، وأطماع ملوكها الأموريين من جهة، وعيلام التي كانت تتحفز دائماً للحصول على نصيب كبير من التركة المغرية بعدما نجحت في الوصول إلى العاصمة أور نفسها وأثبتت قدرتها على فرض قوتها وتفوقها في سومر بخاصة.

كانت إشنونا أول الأقاليم التي انفصلت عن سلطة أور ومنذ أواخر عهد ملكها الأخير إبيّسين، إذ استبدلت تقويم أور بتقويمها الخاص، وحولت المعبد الخاص الذي بناه أحد حكامها لعبادة ملك أور شوسين إلى بناء استخدم لأغراض مدنية، وتحولت الإدارة فيها إلى اللغة الأكدية نابذة اللغة السومرية التي كانت تستخدم في دواوين الدولة لغة رسمية للاقليم. وخلف ملوك إشنونا الأوائل طائفة من كتاباتهم الرسمية التي تنبئ عن أعمالهم، وتعرّفنا في الوقت الذي انفصلوا فيه عن أور بعلاقاتهم مع الدويلات المجاورة، وبالازدهار السياسي والاقتصادي الذي عاشته المملكة. وشاد في هذا العهد الملك الرابع بلالاما مدينة توتب (وتدعى اليوم خفاجي)، ومدينة أخرى تدعى تابي تشباك وبنى معبداً فيها لإله المدينة. وفي عهد أحد ملوكها المسمى نرامسين وصل نفوذ إشنونا إلى الفرات الأوسط حيث كانت تقوم مدينة رابيقوم في الغرب (في منطقة الرمادي اليوم) ، وإلى مدينة آشور في الشمال ، وإلى الخابور في الشمالي الغربي، واتخذ لنفسه إضافة إلى لقبه «ملك إشنونا» ، لقب «ملك آشور» أيضاً. واشتهر من بعده أخوه دادوشا الذي تذكر النصوص أنه شن الحرب على ماري أيام الملك شمشي أداد الأول، وكان له دور في سقوط حكم ابنه يسمخ أداد فيها. ولكن نهاية حكم أسرة إشنونا المحتومة كانت أخيراً على يد حمورابي البابلي (حوالي عام ١٧٦١) الذي دخل في حرب طويلة معها ومع حليفتها عيلام، بالتعاون مع حليفيه ملك ماري زيمري ليم، وملك يمحاض الأموريين.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وقد أسهمت إشنونا بدورها في إصدار قانون دعي نسبة إليها باسم «قانون إشنونا» ، وهو القانون الأول الذي دُوِّن باللغة الأكّدية ، وقد يعود تاريخه إلي زمن الملك بلالاما، أو إلى زمن دادوشا في بداية القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وهو الرأي الذي يميل إليه أكثر الباحثين. ويسبق مواد القانون مقدمة قصيرة صيغت باللغة السومرية يذكر فيها الملك أن الإله إنليل أمّره على إشنونا. ثم ترد مواد القانون التي تتألف من ستين مادة ، بحسب تقسيم العالم جوتسه A. Goetze الذي كان أول من درس القانون ونشره في مجلة سومر العراقية (المجلد الرابع ١٩٤٨، ص٦٣ ومابعدها) ، وهي تعالج قضايا اقتصادية واجتماعية، وتحدد أسعار المواد الغذائية الأساسية ، مثل الشعير والزيت والملح والسمسم ، وأجور العمال الزراعيين، وأجور العربات والمراكب النهرية، وغيرها من أجور العمال. وتحدد عقوبات الجرائم والأضرار التي تلحق بالغير. وقد جمعت في هذه العقوبات بين القصاص والغرامة، ففرضت القتل على القاتل، ولكنها أقرت مبدأ التعويض على الجروح والأضرار الجسمية التي لاتؤدي إلى الموت. وعنيت مواد أخرى بتنظيم العلاقات الأسرية وبالمعاملات الخاصة.

ويعد قانون إشنونا الثالث من حيث القدم بعد قانون أورنمو ، وربما قانون لبيت عشتار إن لم يكن أقدم منه ويتقدم عليه.

٤ - ماري

نشأت ماري على نهر الفرات الأوسط في فجر التاريخ، وذكرت قائمة الملوك السومرية قيام أسرة حاكمة فيها بعد الطوفان، واعتبرتها مدينة من مدن بلاد مابين النهرين الأولى. وألحقها سرجون بامبراطوريته، وبقيت تابعة للدولة الأكدية بعد أن أحكم حفيد سرجون الأكدي نارمسين قبضته على مناطق شمالي بلاد مابين النهرين وسورية. ثم خضعت لنفوذ دولة أور، وكان لحكامها إشبي إرّا في عهد ملك أور الأخير إبّيسين دور بارز في إسقاط الدولة، بعد أن استقل بمدينة إيسين وأسس أسرة حاكمة حاولت خلافة دولة أور.

http://www.al-maktabeh.com

وتسلم مقاليد الأمور في ماري الأموريون في بداية الألف الثاني، كما تسلموها في بلاد مابين النهرين وسورية، وأسسوا أسرة حاكمة فيها، يبدو أن أول حكامها كان يجيدليم في النصف الأول من القرن التاسع عشر قبل الميلاد، ثم خلفه ابنه يخدون ليم الذي يذكر نص له تم العثور عليه في أساسات معبد إله الشمس في ماري أنه جرد حملة عسكرية إلى شمالي سورية، ووصل بقواته إلى جبال الأرز والبحر الأعلى (الأبيض المتوسط) ، وفرض الجزى على سكان تلك المناطق، وجلب الأخشاب إلى ماري، ثم اشتبك مع حاكم ترقا الأموري، إلاكبكا بوهو، الواقعة على نهر الفرات إلى الشمال من ماري، وشرد أسرته، ومعهم ابنه شمشي أداد الذي انتزع من ثمة الحكم في آشور حوالي عام ١٨١٥ ق.م، وأقام مملكة بدأت توسعها في الجزيرة العليا، ودبّر مؤامرة ذهب ضحيتها يخدون ليم نفسه، ثم اغتصب الحكم في ماري وعين ابنه يسمخ أداد نائباً له عليها حوالي عام ١٨٠٢ . وعندما مات شمشي أداد الأول الذي عاصر حمورابي ملك بابل لمدة عشر سنوات انهارت الدولة الآشورية القديمة، وعاد ولي العهد ابن يخدون ليم إلى عرش أبيه بعد غربة في مدينة حلب استمرت عشرين سنة، حيث ألجأه ملكها (الأموري) يريم ليم، وأكرم وفادته، وزوّجه ابنته، وأعانه على استرداد عرشه في ماري بعد موت شمشي أداد الأول. ودخل زيمري ليم بن يخدون ليم مدينة ماري من دون مقاومة في العام ١٧٨٢ ق.م.

وعاشت مملكة ماري في عهده أزهى عهودها الذهبية لما اتصف ملكها زيمري ليم بالحكمة والسياسية، إذا استطاع أن يضمن لمملكته التي امتدت سلطتها على كل الفرات الأوسط والجزيرة العليا الاستقلال والمنعة في وقت كثرت فيه الصراعات والمنازعات بين ملوك العصر، ومن بينهم ملك لارسا ريم سين، وملك بابل حمورابي، وملك إشنونا، ويمحاض، وقطنا، كما تنص إحدى الرسائل التي تم العثور عليها في المحفوظات الملكية في قصر ماري. وفي وسط ذلك الجو من التنافس الحاد قام حلفان كبيران: ضم الأول منهما ملوك بابل وماري ويمحاض، وضم الثاني إشنونا وعيلام. وقد أفاد من الحلف الأول ملك بابل حمورابي، إذ كان يحصل على الجنود من ملكي ماري ويمحاض، وكل

مكتبة المهتدين الإسلامية

المساعدات المادية اللازمة لسياسته التوسعية في بلاد بابل، حتى أحكم قبضته على سومر وأكّد، وكسر قوة التحالف بين عيلام وإشنونا، وبسط سيادته على آشور، وقرر أخيراً احتلال ماري حليفته في الأمس، فضمها إلى مملكته الواسعة حوالي عام ١٧٥٩ ق.م (٥).

٥ - الدولة البابلية القديمة

تدفق الأموريون في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد إلى مناطق عدة في بلاد مابين النهرين وسورية قادمين من البادية السورية. وبعد أن استقروا في المدن، وانتقلوا إلى الحياة الحضرية، توصلت أسر منهم إلى حكم المدن ذاتها، وإنشاء دول ظهرت في بداية الألف الثاني قبل الميلاد في جنوبي بلاد مابين النهرين، وفي شمالها، وعلى الفرات الأوسط، وفي شمالي سورية ووسطها. فقامت في بلاد بابل دولة إيسين ، ودولة لارسا، على أنقاض دولة أور السومرية، وظهرت أيضاً دولة صغيرة في بابل، وأخرى إشنونا. ودولة آشور في عهد الملك شمشي أداد الأول، ونشأت دولة أمورية في ماري ، كما مر بنا، ودولة يمحاض ، والالاخ ، وقطنا في سورية.

لم يخلف الأموريون آثاراً بلغتهم الأمورية (أو العمورية) السامية، ولكن أسماءهم كانت تدل عليهم، إذ كان تركيبها يظهر بصيغ خاصة قريبة من مثيلاتها في اللغة الكنعانية ولهجاتها. وقد حملت هذه القرابة اللغوية الواضحة بل التطابق اللغوي بعض الباحثين إلى اعتبار الأموريين قوماً من الكنعانيين، فأطلقوا عليهم تسمية «الكنعانيين الشرقيين» ، تمييزاً لهم من الكنعاينين الذي استقروا علي طول الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وفي فلسطين التي كانت التوراة اليهودية تدعوها باسم «أرض كنعان» (٦) .

---

(٥) إرجع لمزيد من التفصيل إلى كتابنا : تاريخ الشرق القديم (١) ، ص ١٤٥ – ١٦١ ؛ وعن شخصية الملك زيمري ليم W. v. Soden, Herrscher im Alten Orient, S. 34 - 44.

(٦) أنظر المصدر السابق، ص ٩٧ – ١٠٥ .

http://www.al-maktabeh.com



ووصلنا من أولئك الأموريين وحكوماتهم آلاف من الرقم المنقوشة بالخط المسماري واللغة الأكدية السامية بلهجتيها البابلية والآشورية ، ولاسيما البابلية التي كانت أقرب إلى الأكدية، إذ سادت في كل مناطق الشرق الأدنى القديم، واحتلت مرتبة اللغة العالمية لحقبة من الزمن تجاوزت خمسة عشر قرناً، فكانت لغة المراسلات بين حكام وملوك بلاد مابين النهرين ، وعيلام ، وآسية الصغرى، وسورية، ومصر ، كما كانت لغة الثقافة والمعاهدات السياسية والاقتصادية.

كانت مدينة بابل في بداية الألف الثاني قبل الميلاد مدينة مغمورة بين المدن الواقعة في أرض أكد، فاستقرت فيها جماعة من الأموريين المهاجرين. ثم مالبث أن استلم مقاليد الحكم فيها زعيم أموري يدعي سومو أبوم، فاعتلى عرشها في بداية القرن التاسع عشر قبل الميلاد (حوالي عام ١٨٩٤) ، وأسس أسرة حاكمة طال حكمها حتى عام ١٥٩٥ . عاصرت الأسرة الحاكمة في بابل الصراع بين المدينتين المتنافستين إيسين ولارسا، وكان ملوكها يترقبون النتيجة، ويتحسبون لها، فعمل أولهم على تحصين بابل بسور جديد إتقاء للمفاجآت. ثم بدأ سومو أبوم نشاطه الحربي في السنة التاسعة من حكمه بضم مدينة دلبات، ومد نفوذه إلى مدينة سيبار التي اعترفت بسيادته، وحاول أن يخضع مدينة كيش القريبة بالتفاهم مع ملك لارسا، ولكنه لم يتوصل إلى تحقيق سيطرته عليها، وإنما امتدت سلطة بابل إليها في زمن خليفته سومو لا إيل الذي يعد مؤسس أسرة بابل الحقيقي، فسلفه لايمت إليه بصلة ، كما يبدو من مقدمة شريعة الملك حمورابي الذي أغفل ذكر سومو أبوم فيها عندما ذكر أجداده. وقد شغل سومولائيل سنوات حكمه التي امتدت ستة وثلاثين عاماً في الحروب معّ المدن المجاورة، فأخضع مدينة كيش التي تمردت عليه، واجتاح مدينة كزالّو ودمّر أسوارها، كما أخضع مدينة كوثا في العام السابق والعشرين ، ووصل نفوذه إلى جوار مدينة نيبور، وإيسين ، ومرد، بحيث استولى على أرض أكد بكاملها. ولكنه لم يثبّت حكمه في تلك المناطق، وإنما كان عليه وعلى خلفائه أن يعيدوا فرض نفوذهم فيها من جديد بين الحين والآخر، وتم في عهد خليفته سابيوم (حوالي ١٨٤٤-١٨٣١) تشييد بناء معبد بابل المشهور إيساجالا الخاص بإله بابل الرئيس مردوك.

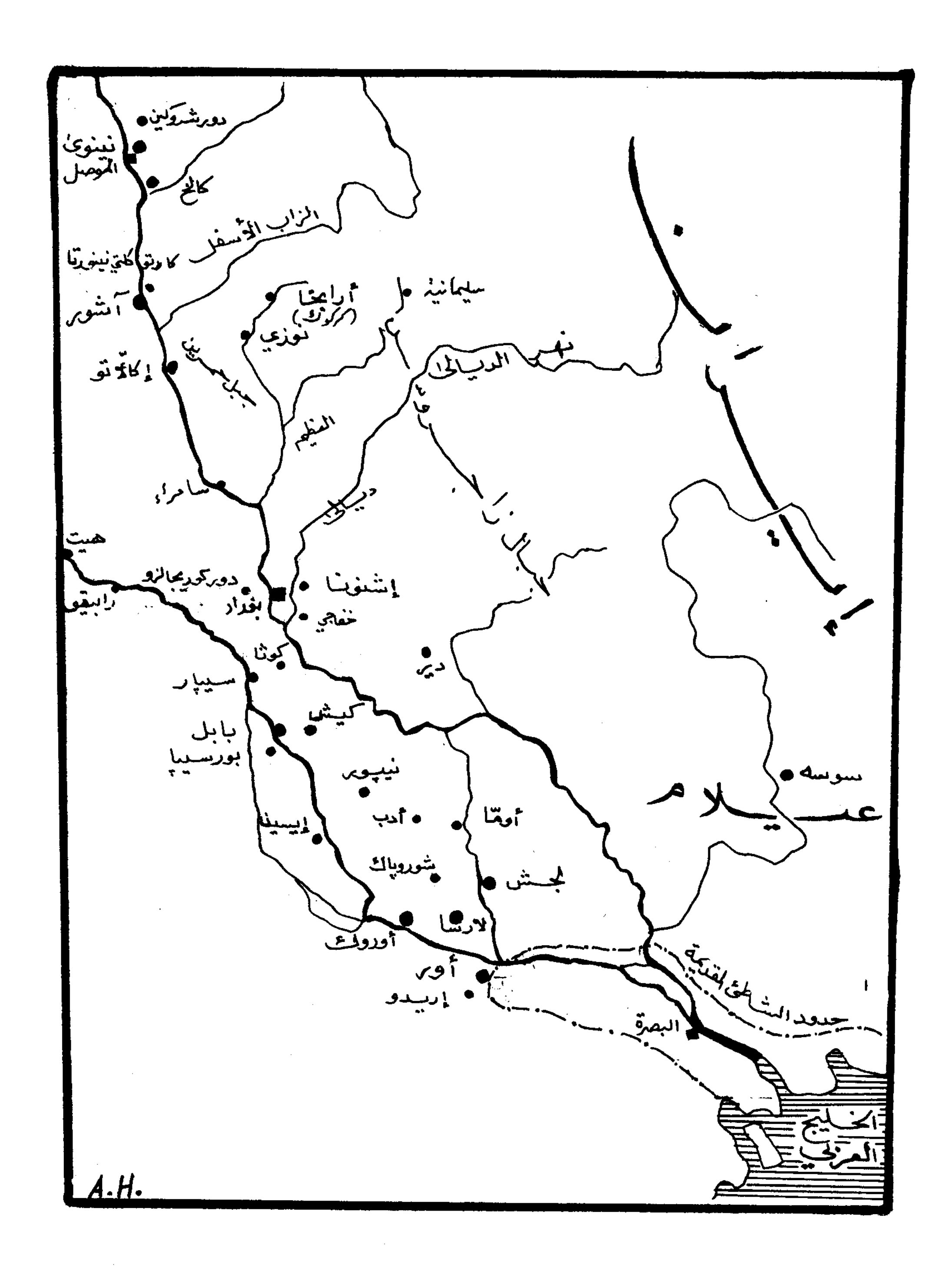
مكتبة المهتدين الإسلامية

وانصـــرف ابنه آبيل سين أيضـــاً عندمـــا تسلم الحكم في بابل إلى الأعـــمـــال العمرانية، فزاد من تحصينات العاصمة بابل، وأقام معبداً للإلهه عشتار في بابل أيضاً، كما حصن مدينة سيبار بسـور جديد ، وقام بجملة مشـاريع للري، ثم خلفه سين مبلّط، وهو الملك الخامس في بابل ووالد حمـورابي. وقد عاصـر ملك لارسا ريم سين وتصدّى لمشاريعه التوسعية، واستطاع أن يصده، ويوقف تقدم قواته.

حمورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق . م)

كان ملك لارسا ريم سين قد مد سيطرته على معظم المناطق الجنوبية من بلاد بابل بعد أن انتزع من إيسين كل المدن التابعة لها، ثم غزا إيسين في عقر دارها (حـوالي عام ١٧٩٤) ، ووضـع نهاية أليمـة لأسرتهـا. وكـان يعاصـره في الشمال الشرقي دويلة إشنونا، وفي الشمال آشور في عهد ملكها شمشي أداد الأول (١٨١٥-١٧٨٢). وبين آشـور في الشـمـال والشـمـال الغـربي ولارسـا في الجنوب كـانت مملكة بابل تحـاول البقـاء، والاحتـفـاظ باسـتقـلالها وفي حـوزتهـا بعض المدن القريبة وقد جلس على عرشها حمورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م). فبدأ محاولات جريئة لتوسيع نفوذ مملكته الصغيرة، وتحرك بجيشه إلى الشمال وإلى الجنوب في العام السادس من حكمه. وكان حظه كبيراً إذ مات شمشي أداد الأول في العام (١٧٨٢)، بعد أن عاصره عشر سنوات، فخف الضغط الخطير الذي كـان يمثله الملك الآشـــوري القـوي علـى حـمـورابـــي في الشـــمـــال، لأن ابنـــه إشـــمـي داجـــان لم يكـن ذلك الوريث الكفء الذي يسـتطيع أن يهـدد جـيـرانه، إذ لم يلبث أن تخلى عن المناطق الشـمـاليـة المجـاورة لمملكة بابـــل، فأسـرع حمورابي ليضع يده عليها، ويلحـقـها بممـلكته. ويبـــدو أن علاقته بريـــم ســين تحسنت بعـد ذلك، أو سـادهـــا نـــوع من الهـدوء الحـذر. كـمـا اعتلى زيمـــري ليـــم عرش ماري وعقد اتفاقية مع حمورابي، عاضده فيها ملـــك يمـــحـاض يريـــم ليم فـــي حـلب. وقـد أفـاد حـمورابي كـثـيـراً مـــن هـــذه

http://www.al-maktabeh.com



بلاد بابل وآشور في الألفين الثاني والأول ق. م.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الاتفاقية التي كانت تضمن له مساعدات عسكرية كان بحاجة إليها في مشروعاته التوسعية، وللوقوف في وجه التحالف العيلامي مع إشنونا الذي هدد مصالح مملكة بابل، ولاسيما في الشمال. وقد استعد للصدام مع أعدائه في الشرق، كما تهيأ للمعركة الحاسمة مع منافسه ريم سين، في السنوات الواقعة بين ١٧٧٦-١٧٦٨ ، فحصن مدينة بابل والمدن التابعة لها. وقد صور أوضاع الشرق القديم السياسية في هذه الفترة موظف كبير في بلاط ملك ماري زيمري ليم، في رسالة وجهها إلى مليكه قال فيها :

«ليس ثمة ملك واحد (في بلاد مابين النهرين وسورية) قوي بنفسه . فحمورابي ملك بابل يقف وراءه (ويتبعه) عشرة إلى خمسة عشر ملكاً. كذلك ريم سين ملك لارسا، وإبال بيل ملك إشنونا، وأموت بيل ملك قطنا. ووراء يريم ليم ملك يمحاض عشرن ملكاً» [٧]. فكان التنافس كبيراً بين حكام المنطقة ، وكان على كل واحد أن يبحث عن حليف يقف إلى جانبه ، أو يأتمر بأمره. كما كان توازن القوى متوافراً، واختلاله لصالح واحد من الملوك يعني القضاء على الآخرين جميعاً. وقد عرف حمورابي بطرقه الملتوية القائمة على سياسة التحالف المؤقت ، ومسالمة الخطرين من الأعداء، عرف الوسيلة المثلى للوصول إلى تحقيق أهدافه التوسعية. فتحالف مع ملك ماري ومعه ملك يمحاض وأفاد من إمداداتهما له . وسالم ريم سين القوي، ومنافسه الرئيس والخطير في بلاد بابل مدة. ثم هاجم إشنونا وحلفاءها عيلام وآشور والقبائل الجبلية في العام ١٧٦٣ ق.م. ومن ثم وجد الفرصة مهيأة بعد عام لضرب ريم سين الذي تقدمت به السن، وتجاوز الثمانين من العمر، فاستغلها ، وأوقع به هزيمة ساحقة في العام الثلاثين من حكمه (١٧٦٢) ، مما اضطر ريم سين إلى الهرب إلى مسقط رأسه في إقليم يموتبال قرب الحدود العيلامية. وبعدها بعام حقق حمورابي انتصاراً جديداً على تحالف إشنونا -جوتيوم- سورباتو، وذكرت نصوصه أنه ضم هذه المرة كل

---

(٧) Edzard, in FW,2, S. 187 ; Klengel, Hammurapi von Babylon und seine Zeit, S. 42 ; Dossin, in Syria XIX, 177 f.

http://www.al-maktabeh.com

الأراضي الواقعة بين نهر دجلة وسوبارتو (أي بلاد آشور) إلى مملكته، كما احتل عيلام التي ساندت أعداءه في الشرق والشمال. فآلت كل بلاد بابل إليه وانضوت تحت سيطرته في العام الثلاثين من حكمه، وأضاف إليها بلاد آشور التي استسلمت لحكمه بعد مدة وجيزة، ثم التفت أخيراً إلى حليفه المخلص زيمري ليم في ماري وأجهز على مملكته عام ١٧٥٩ق.م، ثم عاد إليها بعد سنتين ليقمع تمرد أهلها، ودمّرها حتى لاتقوم لها قائمة، مثلما فعل بعدها بإشنونا.)

تم لحمورابي إذن بعد حروب طاحنة، ومعارك متتالية ، خطط بنفسه لها، وحدد مكانها وزمانها، السيطرة على كل بلاد مابين النهرين وعيلام، فبرهن على براعة عسكرية، وحنكة سياسية مكّنتاه من الانتصار على كل معاصريه من الملوك الأقوياء، وهو الذي كان واحداً منهم في البداية ، بل ربما كان لموقع بابل في الوسط، محاطة من جهاتها الأربع بالأعداء المتنافسين، تأثير سلبي من الناحية العسكرية على موقعه الأساسي، ولولا حصافته وفكره الوقّاد لما توصل إلى تكتيك سياسي فعّال قاده إلى التفوق على منافسيه. ولم يتنبه أولئك المتنافسون إلى ما كان حمورابي يخطط له، وإنما كان الواحد منهم يقف متفرجاً، وكأن الأمر لايعنيه حتى قضى عليهم الواحد بعد الآخر. ثم حق له أن يرتاح في سنوات حكمه الأخيرة، وأن يستمتع بثمار عمله الدؤوب، فانقطعت أخبار حروبه، وصرف جهوده لتنظيم مملكته ، والسهر على حسن انتظام أمورها، فقد كان حريصاً على معرفة كل مايتعلق بدولته، وكان يتدخل في شؤون الأقاليم وإدارتها لأن نظام الحكم تغير في عهده، وماعاد منصب "الإنسي" صالحاً في الدولة الناشئة ، وإنما ظهر على رأس الإدارة في الإقليم والمدينة الكبيرة موظف كبير ينصاع لتوجيهات الملك، ولا يتصرف بحرية كما كان الإنسي يفعل ، لأن صلاحياته كانت محدودة.

وتغير أيضاً النظام الأقتصادي في دولة حمورابي، فلم يعد القصر يملك مقدرات الدولة الأقتصادية وحده، ويتصرف بها، بل ظهرت الملكية الخاصة في كل مكان، وصارت لها مكانة بارزة في المجتمع، في مجال ملكية الأرض وزراعته،

مكتبة المهتدين الإسلامية

وفي الاعمال الحرة والخدمات. كما برز دور إله مدينة بابل مردوك الذي كان شأنه لايختلف عن شأن مدينة بابل نفسها من حيث النفوذ، عندما كانت مدينة مغمورة بين المدن الأخرى. ولكنها في عهد حمورابي صارت عاصمة لمملكة مترامية الأطراف، وصار إلهها المحلي مردوك إله الدولة كلها، فارتقى بارتقاء المدينة، وأهّله إلى هذه المرتبة، ورفعه إليها، إله السماء آنو، وإنليل، الإله الأعظم، وجعلاه أكبر آلهة السماء، وأحلاّه مكانة رفيعة في مجمع الآلهة السومري -الأكدي، وصار انتسابه إلى الإله إنكي السومري، أو إيا الأكدي، ابناً جمع بين وظائف إنليل، وبين صفات إله الشمس. واستمرت مكانة مردوك الرفيعة عند البابلين من بعد عهد حمورابي. ونسجوا حوله "أسطورة الخلق" البابلية، فجعلوه الإله الخالق للكون بعد قتل الإلهة تيامت، وعرفت نسبة إلى مقطعها الأول باسم "إنوما إيليش" بمعنى "عندما في العلا" .

ولم يُصَبْ حمورابي بالغرور، على الرغم من الإنجازات السياسية الكثيرة التي حققها، والوحدة التي تمت على يده وجمعت كل مناطق بلاد مابين النهرين، فلم يؤلّه نفسه، كما فعل غيره من الملوك العظام من قبل، وإن سمّى نفسه عرضاً "إله الملوك"، لكنه لم يأمر ببناء معابد لنفسه، ولم يتقلد تاجاً ذا قرون (مثل نرامسين الأكدي) ولم يكتب اسمه مصحوباً بإشارة الألوهيته[٨]. كما حمل لقب «ملك الجهات الأربع» إضافة إلى ألقاب «الملك العظيم، ملك بابل، ملك بلاد الأموريين كلها (بلاد الشام) ، ملك سومر وأكد» ، وكلها ألقاب عادية ، تليق به، ويحق له فعلاً أن يتخذها. فقد عرفت بابل في أيامه أول عصر ذهبي في تاريخها. ولم تعرف بلاد مابين النهرين شخصية ضاهته في الأهمية وفي الحنكة السياسية، والدهاء العسكري، وفي إخلاصه لرعاياه ، "ذوي الرؤوس السود"، كما تدعوهم المصادر ، وفي حرصه على رعاية مصالحهم ، وتحقيق العدالة والرفاهية لهم، فأطلق على نفسه تجسيداً لسعيه الدائم وتفانيه في سبيل تذليل الصعاب لهم ، لقب "الراعي" ، والوالد.

---

(٨) مورتكات، تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ص١٣٧ ؛ Von Soden, Hesrrscher im Alten Orient 56.

http://www.al-maktabeh.com

قانون حمورابي

لم تقم شهرة حمورابي على فتوحاته، وعلى حنكته السياسية، وبراعته في النهوض الاقتصادي بدولته الموحدة فحسب ، بل زادت شهرته تشريعاتُه الإدارية والقانونية التي توج بها أعماله الكبيرة طوال ثلاثة وأربعين عاماً قضاها في حكم بابل، والتي مازته من ملوك الشرق الكبار الآخرين. لم يكن حمورابي أول ملك في بلاد بابل يضع القوانين، كما كان يفترض الباحثون قبل اكتشاف قانون أورنمو، مؤسس دولة أور والأسرة الحاكمة فيها، وقانون ليبيت عشتار، ملك إيسين، وقانون إشنونا، وإصلاحات أوروكاجينا ، ملك لجشْ في عصر الأسرات السومرية المبكرة. فلم تكن تشريعاته وليدة عهدها وحده إذن، ولم تكن فريدة في نوعها أيضاً، بل تضمنت مواد كثيرة سبقه إليها أصحاب القوانين السابقة، وأبقت بعضها على حاله، وعدلت بعض المواد الأخرى، وزادت عليها مواد جديدة تتناسب والعصر الذي صدر فيه القانون.

أصدر حمورابي في العام الرابع والثلاثين من حكمه قانونه، كما يبدو، إذ يحتمل أن يكون هذا الوقت المناسب له، بعد أن أنتهى من فتوحاته ، واستقرت الأحوال في كل البقاع التي دانت لحكمه ، إذ توافر لديه الوقت حينها للتفكير في تنظيم المملكة التي صارت في حاجة إلى قوانين تنظم العلاقات بين مختلف فئات المواطنين، وبين المواطنين والقصر، وتحدد حقوق الجميع بما يتلاءم والأعراف السائدة، وينسجم مع التقاليد السامية بخاصة، ولاسيما فيما يتصل بالعقوبات الجسدية بحق مرتكبي الجرائم، إذ كان المبدأ الذي يتعامل به هو "العين بالعين والسن بالسن".

دُوِّن نص القانون الأصلي باللغة البابلية، وبخطها المسماري المعروف، على مسلة من حجر الديوريت الأسود، يبلغ ارتفاعها ٢,٢٥م، ومحيطها عند القاعدة ١,٩٠م. أما قسمها العلوي فيبدو أضيق من القاعدة وذا شكل هلالي، ويظهر عليه مشهد يمثل الملك حمورابي واقفاً أمام إله الشمس (شَمَش) ، إله العدالة عند الأكديين ، وهو جالس على عرشه ويهم بتسليم حمورابي صولجان الملك والسلطان.

مكتبة المهتدين الإسلامية

(تم العثور على المسلة في عاصمة عيلام القديمة سوسه في أثناء الحفريات التي قامت بها بعثة فرنسية بين عام ١٩٠١ و ١٩٠٢، وقد نقلها إلى هناك مع نصب نرامسين وكثير من كنوز المدن البابلية الفنية الملك العيلامي شوتروك



مسلة حمورابي

http://www.al-maktabeh.com

ناخونته بعد أن هاجم بابل في عام ١١٧٠ ، وقضى على حكم الكاشيين ، ونفذ أكبر عملية نهب عرفتها بلاد بابل لمعابدها ولما تحتويه من تماثيل وأنصاب، انتقاماً للماضي الطويل الذي رزحت فيه عيلام تحت حكم دول بلاد مابين النهرين. وعمد العيلاميون بعد ذلك إلى طمس سبعة أعمدة من الكتابة المنقوشة في أسفل المسلة لتخليد أعمال ملكهم مكانها، وبدأ الكتبة المهمة، كما يبدو، لكنهم لم يكملوها لأسباب مجهولة، وبقي مكانها من دون كتابة، ولكن الباحثين المختصين تمكنوا من إكمال القسم الأعظم المسوح من خلال ماعثر عليه من ألواح طينية نسخت عليها مقاطع من قانون حمورابي، وجدت في مكتبة آشوربا نيال في نينوى في أواخر القرن التاسع عشر.

يتألف القانون من المقدمة، ومن المتن الذي يشتمل على المواد القانونية ومن خاتمة. أما المقدمة فهي طويلة وتستغرق حوالي ٣٠٣ أسطر، وصيغت بلغة شعرية، ويتحدث فيها حمورابي عن أعماله المختلفة التي قام بها لمصلحة المدن التي ضمها إلى ملكه، ولاينسى أن يظهر فيها تبجيله لآلهتها ، وأن يؤكد شرعيته إذ يقول : «الإله آنو العظيم . . . وإنليل، سيد السماء والأرض، مقرر مصير البلاد، حددا لمردوك، الإبن البكر لإيا ، الحكم على جميع الناس .. في ذلك الزمن جعلاني ، أنا حمورابي الأمير التقي، خادم الآلهة، لأظهر الحق في البلاد، ولأقضي على السوء والشر، ولأقف دون طغيان القوى على الضعيف، ولأشرق مثل شمش على ذوي الرؤوس السود وأنير البلاد..» . ثم يذكر المدن المختلفة التي احتلها، ورمم معابدها، وقام بتحصينها، وجعلها مزدهرة. ويصف نفسه بأنه «مقتحم أطراف العالم الأربعة، الذي رفع اسم بابل عالياً، والذي انجبه الإله سين» ، إله القمر السامي. فهو . "ابن الإله سين" ، وأنه "إله الملوك" ، كما ذكرنا،"والجدير بالصولجان والتاج، وحبيب الآلهة والمطيع الدائم لها، سليل سومرلا إيل، الوريث القوي لسين مبلّط . . الملك الذي تطيعني جهات العالم الأربع..» [٩].

ثم تتوالى مواد القانون ، وعددها ٢٨٢ مادة، تبدأ كل واحدة منها بعبارة : إذا (شمًّا في اللغة البابلية). ويعالج القانون قضايا اقتصادية واجتماعية عرفها

---

(٩) عيد مرعي، المصدر السابق ٥١-٥٢. توفيق سليمان ، المصدر السابق ١٨٩ - ١٩٤ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

المجتمع في عهد حمورابي، فهي تتناول أمور القضاء والأمن ، وحقوق المحاربين ومسؤولياتهم، وشؤون الزراعة، وشروط القروض، والأحوال الشخصية بما تتضمنه من أمور الزواج والطلاق والميراث، وتطرقت إلى القصاص والتعويضات، وإلى أجور أصحاب المهن. واشتملت في ثناياها على أحكام راقية يقبلها المنطق في كل عصر، وأحكام أخرى يصعب على المرء قبولها إلا بمنطق العصر الذي ظهرت فيه.

ومن الممكن تقسيم مواد القانون، بحسب ترتيب موضوعاتها إلى ١٣ قسماً ، وهي [١٠] :

أ - المواد ١ - ٥ تتعلق بأمور القضاء والتقاضي.

ب - المواد ٦ - ٢٥ تتعلق بالاعتداء على الملكية.

جـ - المواد ٢٦ - ٤١ ذات صلة بأمور الجنود وإقطاعاتهم من الأراضي.

د - المواد ٤٢ - ٦٦ تبحث في شؤون الزراعة، والحقول، والبيوت. (المواد التي تليها ٦٧ - ٨٧ مطموسة أو مشوهة).

هـ - المواد ٨٨ - ١٠٧ تتحدث عن القروض ونسبة الفائدة والتجارة.

و - المواد ١٠٨ - ١١١ تتعلق بساقية الخمر (سابيتوم في اللغة البابلية).

ز - المواد ١١٢ - ١٢٦ تتحدث عن الإيداع والدين.

ح - المواد ١٢٧ - ١٩٥ موضوعها الأسرة والأحوال الشخصية من زواج، وطلاق، ووراثة ، وتبنّي، وتربية.

---

(١٠) عيد مرعي، المصدر ذاته، ص ٤٨ ؛ FW, 2, 200

http://www.al-maktabeh.com

ط – المواد ١٩٦ – ٢١٤ تحدد العقوبات والغرامات عن الأضرار التي تحدث نتيجة شجار الناس بعضهم مع بعض.

ي – المواد ٢١٥ – ٢٢٧ تتعلق بأمور الطب والبيطرة والوسم.

ك – المواد ٢٢٨ – ٢٤٠ تحدد الأسعار والأجور المتعلقة ببناء البيوت، والصناع، والرعاة، والعقوبات المفروضة في حال الإخلال بالالتزامات المطلوبة.

ل – المواد ٢٤١ – ٢٧٧ تحدد أجور الحيوانات والأجراء.

م – المواد ٢٧٨ – ٢٨٢ تعالج موضوع شراء العبيد وعلاقاتهم بسادتهم.

ونذكر من أحكام التشريعات المتعلقة بأمور القضاء: أن أيما مواطن اتهم مواطناً آخر بجريمة يعاقب عليها بالإعدام ثم لم تثبت عليه قُتِل عوضاً عنه (المادة ١) . وإذا اتهمه بجريمة يعاقب عليها بالتغريم، ثم لم تثبت الجريمة عليه دفع غرامتها (المادة ٢). وإذا حكم قاض في قضية، ثم غيّر حكمه، وجب على القاضي أن يدفع حق الإدعاء الذي ينشأ عن هذه القضية اثني عشر ضعفاً، وأن يقال من منصبه ، ويحرم عليه أن يعود قاضياً مرة ثانية (المادة ٥).

ومن أحكام القانون المتعلقة بالاعتداء على الملكية: إذا سرق إنسان المعبد أو القصر، حكم عليه بالقتل، كما يُقْتَل من يشتري منه المسروقات أو يتسلمها (المادة ٦). وإذا سُرِق مواطن، ولم يتيسر القبض على سارقه واسترجاع المسروقات، عوضته مدينته وحاكم إقليمه عما سرق منه، بعد أن يثبت صحة دعواه أمام تمثال معبوده ورجال الإدارة في بلدته (٢٣). وإذا قتل مواطن ولم يتيسر معرفة قاتله والاقتصاص منه تعاونت المدينة وحاكم الأقليم على دفع دية القتيل إلى أهله (٢٤).

ومن أحكام حقوق الجنود المحاربين في مقابل مسؤولياتهم : إذا وقع محارب في الأسر وأُعْطِي حقله الذي اقطعه الملك إياه في أثناء غيابه إلى مواطن آخر، ثم عاد المحارب من الأسر، أعيد له حقله وبستانه (٢٧). وإذا كان للمحارب

مكتبة المهتدين الإسلامية

ابن بالغ يستطيع القيام بالعمل، أعطي الحقل للابن (٢٨)، وإذا كان ابنه صغيراً ولايستطيع القيام بالعمل، أعطي ثلث الحقل للأم، وعلى أمه أن تربيه حتى يبلغ أشده (٢٩). وإذا افتدى تاجر محارباً وقع في الأسر، وجب على المحارب دفع الفدية للتاجر، وإذا لم يتيسر له ذلك، وجب على المعبد دفعها، وإلا فعلى القصر دفع الفدية (٣٢). وإذا تسلط ضابط على محارب فألحق الأذى به، ولم يقف إلى جانبه في حال تعرضه للأذى من الغير، أو جرده من هدية أعطاها إياه الملك، فإن هذا الضابط يُقْتل (٣٤).

ومن الأحكام المتعلقة بالزراعة: إذا استأجر إنسان حقلاً لزراعته، ولكنه أهمل الحقل ولم يزرعه، أعاده لصاحبه، وأعطاه مايساوي إنتاج حقل جاره حبوباً، وسلّمه الحقل بعد حرثه وتجهيزه للزراعة (٤٣). وإذا كان إنسان مديناً وأصابت حقله كارثة (من فيضان أو قحط)، ولم يتمكن من تسديد دينه حبوباً، يؤجل الدفع، ولايدفع فائدة السنة التي أصيب فيها (٤٨). وإذا تسبب مزارع في ضرر جاره نتيجة فتح قناة مائية أغرقت حقل جاره، فعليه أن يعوضه كامل المحصول (٥٥).

كما التفتت تشريعات حمورابي إلى أحوال المواطنين الشخصية، وعالجت المشاكل التي تقع بين أفراد الأسرة. فأكدت حق الزوجة في استرداد بائنتها حين طلاقها مالم تكن ناشزاً، وأضافت إلى بائنة المطلقة ذات الأولاد نصف أملاك زوجها لتستغله في تربية الأولاد حتى يبلغوا أشدهم، ثم تجتزئ منه نصيباً تستعين به على زواج جديد إن استحبت فراقهم (١٣٧). وأضافت إلى بائنة المطلقة العاقر تعويضاً إضافياً مجزياً (١٣٨-١٤٠). وجعلت بائنة الزوجة العاقر المتوفاة من حق أبيها بعد أن يسترد زوجها منها قيمة هداياه إليها حين عرسها. وإذا اعتزم الزواج من امرأة ثانية لمرض أصاب زوجته، فله ذلك، ولكن للزوجة الأولى أن تبقى في بيته، وعليه أن ينفق عليها ما دامت على قيد الحياة (١٤٨). أما إذا رفضت العيش في بيت زوجها، فعليه أن يعطيها بائنتها التي جلبتها معها وتترك البيت (١٥٠).

http://www.al-maktabeh.com

وفي مقابل هذه الضمانات التي كفلتها التشريعات للزوجة ألزمت الزوجة بواجبات تقوم بها أمام زوجها وفي بيتها، فإذا شكاها زوجها أمام مجلس المدينة، وتبين أعضاؤه إهمالها لواجباتها، حرموها من بائنتها وسمحوا لزوجها بأن يتزوج عليها، ولها أن تبقى في داره أمة (١٤١). ولكن إن تبينوا نشوزها وإضرارها بزوجها ألقوا بها في النهر (١٤٣). فإن ثبت عليها الزنا، أمروا بتقييدها هي ومن زنى بها وإلقائهما في النهر، إلا إذا عفا عنها زوجها، وعفا الملك عن عشيقها (١٢٩). فإذا تآمرت زوجة على قتل زوجها من أجل عشيقها، أعدمت على الخازوق (١٥٣).

وعاقبت القوانين الرجل إذا عرف ابنته جنسياً بالطرد من المدينة (١٥٤)، والرجل الذي تعرف على زوجة ابنه، وثبت ذلك عليه، بإلقائه في الماء (١٥٥). وإذا ضاجع ولد أمه (بعد وفاة أبيه)، حرق كلاهما (١٥٧)، وفي مثل هذه الأحكام إشارة واضحة إلى محاربة الفساد المتفشي في المجتمع.

وتطرقت مواد القانون إلى صلات الأولاد بأبويهم وحقوقهم في المواريث، فجعلت من حق كل ولد على أبيه أن يعينه بمهر يتزوج به، فإن مات الوالد دون أن يتزوج أحد أبنائه، أعانه إخوته في دفع المهر من ثروة الأب قبل اقتسام الميراث (١٦٦)، وكفلت الأمر نفسه للبنت وبائنتها (١٧٨). وقيدت حق الوالد في حرمان ولده بحكم القضاة في مدى عصيانه، فإن أدانوه، أنذروه. فإن لم يرتدع وافقوا على حرمانه، وإن تبينوا براءته حموه من أبيه (١٦٨-١٦٩). وجعلت للأبناء حصصاً متساوية في ميراث أبيهم وبائنة أمهم (١٦٥).

وكفلت التشريعات حق الأولاد من الزواج غير المتكافئ، فنصت على أنه إذا تزوج عبد بحرة احتفظ أولادها بحريتهم، فإذا مات عنها زوجها استردت بائنتها، وإذا كانت ذات ولد قاسمت مولى زوجها المقتنيات التي شاركت زوجها فيها بعد زواجها به، واحتفظت بنصفها من أجل أولادها (١٧٥-١٧٦). وسمحت التشريعات للأب بحق الاعتراف بأولاده من جاريته. وفي هذه الحال شاركوا أولاده الشرعيين ميراثه (١٧٠)، وإن لم يعترف صراحة بثبوتهم حرموا من وراثته، وحرم إخوتهم الشرعيون من استرقاقهم (١٧١).

مكتبة الممتدين الإسلامية

ونظم القانون أمور التبنيّ ، فسمحت للرجل بأن يتخذ ربيبه ولداً له ، فإن فعل واعترف به ولداً، ثم تنكر له ربيبه وكان لقيطاً وأبى أبوته ، وأراد اللحاق بأبويه بعد أن عرفهما، قطع لسانه أو فقئت عينه. وحرّم استرجاع الربيب إذا تبناه صانع ورباه وعلمه صنعته، ولكن القانون أجاز من ناحية أخرى رجوع الربيب إلى أبويه إذا عرفهما، ولم يكن متبنّيه قد اعترف به ولداً له. واشترط على من يتبنّى طفلاً ثم يستغني عنه بعد أن ينجب أولاداً من صلبه، ألا يرده إلى أهله صفر اليدين، وأن يهبه مايساوي ثلث نصيب ولده من صلبه من ثروته المنقولة (١٨٥-١٩٣).

وقضى القانون على من ضرب أباه بقطع يده (١٩٥). كما عني بشؤون الخطيب الذي لم يتم زواجه لرفض والد الفتاة بعد موافقته، فحق على الوالد أن يعيد للخطيب المهر مضاعفاً (١٦٠).

وحدد القانون أجور العمال المزارعين ، وشروط المشاركة في الزراعة والتجارة وتربية الأغنام والمواشي، وأجور المراكب تبعاً لحمولتها، وأجور حيوانات النقل والزراعة، وأجور النساجين وصانعي الجلود والصاغة والبنّائين. وكان خير ما أزادته على التشريعات السابقة هو تحديد أجور الأطباء، ومراعاة الحالة الطبقية والاقتصادية للمرضى. كما حدد أجور علاج الحيوانات (٢٢٤-٢٢٥).

وعالج القانون الأضرار التي لاتتسبب بالموت من خلال مبدأ "العين بالعين ، والسِن بالسن" ، فنص على أن أي امرئ فقأ عين امرئ آخر، فقئت عينه (١٩٦)، وإذا أسقط رجل سن رجل مساوٍ له في المنزلة، أسقطت سنه (٢٠٠). وإذا ضرب امرؤ رجلاً في شجار، وتسبب في جرحه ، فعليه أن يقسم بأنه لم يضربه عن قصد، ويدفع في هذا الحال للطبيب المعالج اجرته (٢٠٦). وإذا ضرب ابنة آخر وتسبب في فقدانها جنينها ، دفع عشرة شيقل [11] فضة تعويضاً (٢٠٩)، وإذا ماتت نتيجة ضربه لها، قُتلت ابنته.

---

(١١) الشيقل وزن = ٨,٤ غ تقريباً.

http://www.al-maktabeh.com

ولكن القانون لم يطبق هذا المبدأ في معالجة الأضرار نفسها إذا ما لحقت بأناس من طبقة أدنى ، بل كان ثمة تفاوت في الحقوق والعقوبات بين طبقات المجتمع، فالمجتمع في عهد حمورابي وفي قانونه كان ينقسم إلى ثلاث طبقات، هي : طبقة الأحرار، ويدعى الواحد (أو يلُم)، وطبقة الموشكينُم ، وطبقة العبيد (وَرْدُم). أما الموشكينُم فيمثلون الطبقة الوسطى بين الأحرار وبين العبيد، ولكنهم أقرب من الناحية الاجتماعية إلى الأحرار، وأشبه بوضع الموالي في عصر الجاهلية، وفي صدر الإسلام عند العرب. وكانوا يخضعون لأوضاع قانونية خاصة، ويؤدون أعمالاً زراعية وخدمات للقصر ولا تعرف نسبتهم في المجتمع، ولكن ذكرهم المستفيض في قانون حمورابي، وفي النصوص الأخرى، يشير إلى دورهم الكبير في المجتمع في الحياة اليومية والعامة [١٢]. ومنه فإن تشريع حمورابي قصر تطبيق مبدأ "العين بالعين" على أفراد الطبقة الواحدة، ولمصلحة الطبقة العليا بخاصة، وهي طبقة الأحرار التي تشمل على أفراد الأسرة الحاكمة، والحاشية، وأرباب المهن المستقلة كالأطباء والفنيين ، وكبار الموظفين، ورجال الجيش. بينما قضت بالتعويض المادي وحده جزاء لاعتداء أحد أفراد الطبقة العليا على فرد من طبقة أخرى أقل منزلة من طبقته :إذا فقأ رجل (حر) عين موشكينوم ، أو كسر عظماً له، دفع مينة واحدة [١٣] من الفضة (المادة ١٩٨). وإذا فقأ عين عبد (أحد) ، أو كسر عظمه، دفع نصف ثمن شرائه (المادة١٩٩). وإذا أسقط سن موشكينوم ، فإن يدفع ثلث مينة فضة (٢٠١). وإذا لطم إنسان وجه إنسان آخر أعلى مرتبة منه ، جُلِد ٦٠ جلدة بسوط من جلد الثور علناً (٢٠٢). وإذا صفع ابن رجل ابن رجل آخر يساويه منزلة على وجنته، فعليه أن يدفع مينة واحدة من الفضة تعويضاً له (٢٠٣). أما إذا صفع موشكينوم موشكينوم آخر على وجنته، فعليه أن يدفع ١٠ شيقل من الفضة (٢٠٤). وإذا

---

(١٢) Edzard, in FW,2,165; von Soden, in Zeitschrift für Assyriologie NF 22 (1964), S. 133 ff. محمد حرب فرزات - عيد. مرعي، دول وحضارات في الشرق القديم، ١٤٠.

(١٣) المينة وزن = $\frac{١}{٢}$ كغ تقريباً.

مكتبة المهتدين الإسلامية

صفع عبد رجل ابن رجل (حر) قطعت أذن العبد (٢٠٥). وإذا ضرب رجل أمة رجل آخر، وسبب لها فقدان جنينها، دفع شيقيلين من الفضة (٢١٣)، وإذا ماتت هذه الأمة، فعليه أن يدفع ثلث مينة فضة. وقضى القانون بتغريم من يسرق شيئاً من أملاك المعبد أو الحكومة ثلاثين مثلاً لما سرق ، ولكن إن تمت سرقة موشكينوم دفع عشرة أمثاله. أما إذا كان معدماً، فيقتل (٨) ، أي أن القانون فرّق بين عقوبة سارق المعبد والدولة، وبين عقوبة سارق المواطن من طبقة الموشكينوم (المساكين !)، ولكنه جعل جزاء المفلس في الحالتين الإعدام.

وغلب على معظم المواد طابع الشدة والقسوة في مواجهة الإضرار بمصالح الدولة والاعتداءات على النفس والمال، ولعل المشرع توخّى منها ردع الناس عن ارتكاب الجرائم قبل وقوعها، أو قد تكون نتيجة لتفشي الفساد في ذلك المجتمع، فجعل الإعدام عقوبة للتآمر على مصالح الدولة وأمنها، كإيواء ثائر أو مجرم هارب، أو التهرب من خدمة الجيش، وعقوبة للاعتداء على أملاك المعابد وأملاك القصر، على خطف الأطفال، وأقتحام البيوت، ولمن يتاجر بالمسروقات ، وعقوبة الكاهنة التي تفتح حانة أو تتردد عليها لتسكر فيها، وعقوبة للمعماري الذي يتسبب إهماله في انهيار منزل على صاحبه، وقضى التشريع بقطع يد الطبيب (المهمل) إذا أجرى عملية جراحية أدت إلى موت المريض الحر أو فقدانه البصر. أما إذا كان المريض عبداً ، فعلى الطبيب أن يعوض سيده عبداً مثله، وعن عينه بدفع نصف ثمن العبد من الفضة.

ينهي حمورابي قانونه بخاتمة تشبه المقدمة بأسلوبها الشعري، يذكر فيها أيضاً أعماله، ويبتهل إلى الآلهة واحداً بعد الآخر أن تعاقب من يخالف قانونه، ولاينفذ بنوده، أو يحاول محو اسمه ليكتب اسمه مكانه، ويصف نفسه بلقب «ملك العدالة» ، «والملك الكامل لذوي الرؤوس السود» الذي أهداهم إياه إنليل، وأعطاه إياهم مردوك، وفي حجره «حضن سكان بلاد سومر وأكّد.. كي لايظلم القوي الضعيف، ولمساعدة اليتيم والأرملة في الوصول إلى حقهم» (الملك السامي بين الملوك.. وليأت الإنسان المظلوم الذي لديه قضية إلى أمام تمثاله، وليقرأ مسلته المكتوبة ، وليسمع كلماته القيمة، وستشرح له مسلته القضية ، وسيرى حكمه.. وسيرتاح وينشرح صوره، ويعرف أن حمورابي موجود كأب حقيقي للرعية».

http://www.al-maktabeh.com

ويبدو أن الملك حمورابي كان حريصاً على إحقاق الحق، وتطبيق العدالة في كل أرجاء المملكة في زمنه، وفي زمن خلفائه، بما ينسجم ومواد قانونه ، إذ تؤكد مراسلاته مع حكام الأقاليم، وعماله في المدن والمناطق المتعددة ونصوصه، تدخله الشخصي في كثير من القضايا لحلها. ومنها أنه سمع بارتشاء بعض موظفيه ، فأرسل مندوباً من طرفه للتحقق من الأمر وسماع أقوال الشهود والتحرز على الرشوة، ثم إرسال المتهمين والشهود إليه. أو طلبه من عماله التحقيق في سرقات ومظالم ترامت إلى مسمعه. وتضمن أحد النصوص أمراً بافتداء أسير على حساب معبد مدينته[١٤]. ووصله أن أحد حكام الأقاليم انتزع من مزارع بستان نخيل ، وأقطعه واحداً من جنوده، فكتب إليه الملك يأمره برد البستان إلى صاحبه. ونصت رسائل وزيره أويل نينورتا أيضاً على تنفيذ فقرات القانون، والالتزام بمضمونها، وتلح على سرعة التنفيذ من خلال توجيه المراسلين المخصصين للشؤون العاجلة [١٥].

ويؤكد نص من عهد ابنه وخليفته على العرش سمسو إيلونا على الالتزام بأحكام قانون حمورابي عند مخالفة المتعاقدين لاستثمار أرض زراعية في أور[١٦].

يُعَدّ قانون حمورابي مثالاً للنصوص البابلية القديمة ذات الموضوعات المتكاملة، ويعبر بحق عن المرحلة الأخيرة لمسيرة اللغة الأكدية التي اكتمل نضوجها في عهد حمورابي وحلفائه؛ فالقانون لم يعبر عن نضج العقلية التشريعية في عهده فحسب ، وإنما عبر كذلك عن دور الاكتمال في الأسلوب اللغوي الذي غدا من بعد نموذجاً كلاسيكياً للكتابات الراقية في بلاد مابين

---

(١٤) L. W. King, The Letters and Inscriptions of Hammurabi, No. 11 , 12, 18, 24, 30.

(١٥) W. von Soden, Hesscher im Alten Orient 52 -55 .

انظر ايضاً : مورتكات ، المصدر السابق ١٤٠ – ١٤١ .

(١٦) Edzard. op. cit, p. 201; Kraus, in Genava. NS 8 (1960), s. 292.

مكتبة المهتدين الإسلامية

النهرين. ويؤكد منزلة القانون في التراث الأدبي البابلي عند الأجيال التالية لعهد حمورابي أن المعاهد التعليمية في بلاد مابين النهرين استمرت في نسخ مواده ، وتدريب طلابها على كتابته قروناً طويلة حتى في الألف الأول قبل الميلاد، إذ عثر في مكتبة آشور بانيبال في نينوى على رقم مسمارية نقشت عليها مقاطع من قانون حمورابي (١٧).

خلفاء حمورابي

خلف حمورابي على عرش بابل ابنه **سمسو إيلونا** (١٧٤٩-١٧١٢). وكان عليه أن يناضل للحفاظ على ما أورثه والده من بلاد، إذ تعرضت المملكة لخطرين داهماها من جهتين اثنتين : تمرد عام في وسط بلاد بابل وفي جنوبها. والخطر الثاني من الشمال الشرقي حيث بدأ تحرك الكاشيين.

ظهر في لارسا رجل يدعى ريم سين (الثاني) استقل عن بابل، وضم إليه عدداً من المدن، ومنها أور، وأوروك وإيسين إضافة إلى منطقة يموتبال، مسقط رأس أجداده. ولكن سمسو إيلونا تمكن من القضاء على محاولته الانفصالية وقام بتهديم أسوار المدن المتمردة. كما قام في الجنوب خصم عنيد آخر يدعى إليما إيلوم بإخضاع المنطقة الملاصقة للخليج العربي لسيطرته حيث أشارت وثائق عدة تم العثور عليها في مدينة نيبور إلى نفوذه فيها، ولم تنجح محاولات الملك البابلي في هزيمته والقضاء على مملكته التي استمرت في عهد خلفائه وصارت تدعى باسم "مملكة أرض البحر". فقامت فيها أسرة حاكمة عاصرت خلفاء حمورابي، واستمرت من بعدهم، ولم تعرف حاضرتها ، لقلة الوثائق الكتابية والأثرية التي خلفها حكام المملكة التي توالى على عرشها حوالي أحد عشر ملكاً، قضى الكاشيون على آخرهم حوالي عام ١٥٠٠ق.م. وعدها

---

(١٧) المصدر الأول السابق، ص ٢٠٢.

http://www.al-maktabeh.com

جامعو قوائم الأسر البابلية الأسرة البابلية الثانية. ويستخلص من هذه الأوضاع أن المنطقة الواقعة على الخليج العربي وصولاً إلى مدينة نيبور في وسط بلاد بابل، أو ما كان يدعى باسم "أرض سومر"، انفصلت منذ أواخر سني حكم خليفة حمورابي عن جسم المملكة، وماعادت تابعة لمملكة بابل، على الرغم من أن أور عادت لفترة قصيرة إلى نفوذ بابل زمن خليفة حمورابي الثاني أبي إشوخ.

ولكن الخطر الداهم الثاني، كان أكبر أثراً في مستقبل المملكة البابلية الأولى لأنه جاء من الجبال الشمالية الشرقية التي كانت مصدر هجرات شعوبية أجنبية سابقة، كانت تهدف إلى الاستيطان في جنوبي بلاد مابين النهرين، مثل الجوتيين واللولوبيين، والحوريين من بعدهم. أما هؤلاء فهم الكاشيون الذين ذكرتهم نصوص الملك سمسو إيلونا في العام التاسع من حكمه، إذ حاولوا النزول إلى السهول البابلية الشمالية فتصدى لهم الملك البابلي، وردهم على أعقابهم. ثم اضطر في العام الرابع والعشرين إلى بناء قلعة حصينة دعيت نسبة إليه باسم دور سمسو إيلونا عند مصب نهر الديالى في دجلة، قرب "سور مارتو" الذي سبق لملك أور شوسين أن بناه لصد هجوم الأموريين. ويبدو أن سمسو إيلونا وفق في ردع الكاشيين وإيقاف تقدمهم. ولكن هؤلاء عمدوا إلى التسلل البطئ، والتغلغل في المدن للقيام بأعمال الخدمة، والاشتغال بالمهن المختلفة ، على شكل أفراد وجماعات صغيرة ودونما حاجة إلى الاشتباك مع البابليين ، بل اختاروا الطريق السلمي اليسير، ويبدو أن وقوف الملك البابلي سمسو إيلونا، وخليفته أبي إشوخ من بعده في وجه الهجرة الكاشية، حمل هؤلاء على التوجه إلى الغرب من مواقعهم الأصلية، إلى الشمال الغربي من بلاد بابل، حيث استوطنوا منطقة الفرات الأوسط.

وانتهز فرصة حروب سمسو إيلونا للحفاظ على وحدة المملكة وانشغاله بالتمرد الجنوبي، والهجوم الكاشي، الآشوريون فانفصلوا عن تبعيتهم للمملكة البابلية وأقاموا أسرة حاكمة لهم، وتقلصت بعد تلك الأحداث سلطة الملك البابلي بعد انفصال بلاد آشور في الشمال، والأجزاء الجنوبية التي قامت فيها أسرة مملكة أرض البحر.

مكتبة المهتدين الإسلامية

واصل الملوك الأربعة الذين توالوا على الحكم بعد سمسو إيلونا الدفاع عن كيان الدولة المتبقي، والحفاظ عليه طوال القرن الذي استغرقته مدة حكمهم.

فاشتبك أبّي إشوخ مع الكاشيين من جديد وانتصر عليهم. ولكنهم أنشأوا كياناً خاصاً لهم على الفرات الأوسط، كما ذكرنا، وتغلغلت جماعات منهم في بلاد بابل، حيث انصرفوا إلى العمل أجراء ومزارعين ، وساسة خيول في المدن والمزارع.كما قاد أبي إشوخ حملة ضد مملكة البحر، ولكنها باءت بالفشل. وخاض أيضا خليفته أمّي ديتانا في أواخر عهده حربا ضد مدينة إيسين ودمر أسوارها. ونجح الملك أمّي صدوقا (١٦٤٦-١٦٢٦) في وضع حد لتعديات مملكة البحر في الجنوب. وأصدر مرسوماً في العام الأول لحكمه، يُعَدّ أهم وثيقة تاريخية في أواخر العصر البابلي القديم. وقد تضمن المرسوم إلغاء الديون والقروض المترتبة على المواطنين من أموال (فضة) وحبوب، وإلغاء فوائد الضرائب المترتبة على الموظفين للقصر، وتخلي الملك عن مستحقاته من الغلال من إقليم سوخوم، وتخفيض آجار الحقول، وافتداء المواطنين من العبودية التي أكرهوا عليها لديون مستحقة عليهم، والحد من تسلط الموظفين الكبار على المواطنين وإجبارهم على أعمال السخرة. ويعد هذا المرسوم واحداً من الإجراءات الإصلاحية التي حاول الملك أمّي صدوقا من خلالها تهدئة الأحوال الاقتصادية، وبعث الطمأنينة في نفوس المواطنين الذين كانوا يعانون من ضائقة اقتصادية حادة نتيجة للظروف السياسية السلبية التي كانت تسود في البلاد، وحاول بعضهم استغلالها للإثراء على حساب الآخرين. ويستخلص من هذا المرسوم أن مملكة بابل كانت تشتمل زمن صدوره في منتصف القرن السابع عشر المناطق : بابل العاصمة ، بورسيبا، لارسا، أوروك، إيسين ، كيسورا، ملجيوم، يموتبال، وعلى إقليمين شرقي دجلة، بالإضافة إلى منطقة سوخوم الفراتية.

ويبدو أن السنوات الأخيرة من حكم الأسرة البابلية الأولى لم تعرف المعارك، باستثناء العام السابع عشر من حكم الملك الأخير سمسو ديتانا ، إذ لم يصلنا من تلك الفترة التاريخية أية مصادر سوى بضع وثائق من منطقة سيبار [١٨].

---

(١٨) المصدر السابق ٢٠٥ - ٢٠٥ .

http://www.al-maktabeh.com

لقد وصل الأموريون في بلاد مابين النهرين إلى الحكم بصعوبة، وكان الطريق إليه شائكاً وصعباً، وتبوأوا مرتبة عالية من السلطة بلغت القمة في آشور، كما سنرى لدى الحديث عن شمسي أداد الأول، وفي الجنوب في بابل في عهد حمورابي. لكن السقوط كان كذلك سريعاً. فلم يكد حمورابي يختفي حتى بدأ الضعف يدب في أوصال الدولة، وبدأت وحدة المملكة تتداعى في الداخل وعلى الأطراف معاً، فاستقلت بعض الأقاليم، وهددت القسم المتبقى جماعات الكاشيين من الداخل حيث تغلغلوا في المدن الرئيسية، وعلى أطراف بابل الشمالية الشرقية، والشمالية الغربية من جهة الفرات الأوسط حيث كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة. ثم حانت تلك الفرصة حينما تقدم ملك الحثيين مورشيلي الأول، فهاجم سورية بغتة، واجتاحها من الشمال قادماً من دولته في آسية الصغرى، ووجد الطريق أمامه مفتوحاً، فتابع زحفه باتجاه الجنوب الشرقي بمحاذاة نهر الفرات حتى وصل إلى بابل العاصمة، مكتسحاً كل المناطق التي مر بها جيشه، وتوقف عندها في عام ١٥٩٥ق.م، ووضع نهاية حزينة لأسرتها الحاكمة التي لم تنعم طويلاً بالجلوس على عرشها، كما كان متوقعاً، ولاسيما بعد الانتصارات الرائعة التي حققها حمورابي.

تحرك الحثيون بعد احتلالهم بابل وتدميرها، ونهب كنوزها، إلى الجنوب ، ولكن مملكة البحر تصدت لهم، وحالت دون تقدمهم، فآثر الحثيون العودة من حيث أتوا وقد بعدت الشقة بينهم وبين بلدهم، ولم يبدوا اهتماماً باحتلال بابل، والاحتفاظ بالسيطرة عليها. فخلا المجال لمملكة البحر وللكاشيين الذين كانوا يتربصون ببابل الدوائر. ولكن قوة بلاد البحر لم تكن كافية لتسلم السلطة في بابل، إذ كان ذلك فوق طاقتها، وربما لم يخطر ببال حكامها الإقدام على ذلك بجدية، ففاز الكاشيون بعرش بابل، وبدأ حكم أجنبي للبلاد دام حوالي أربعة قرون من الزمن، وتغيرت معالم الخارطة في منتصف الألف الثاني في الشرق الأدنى القديم كله بظهور قوى خارجية تتمثل بالحوريين الميتانيين ، والحثيين،

مكتبة الممتدين الإسلامية

والكاشيين، وبظهور مصر في عصر الدولة الحديثة التي عبرت عن رغبتها الجامحة في الاستيلاء على سورية ومنافسة القوى الأخرى عليها.

أخيراً

لقد زال دور بابل السياسي بسقوط الدولة البابلية الأولى بعد أن كانت مركز الثقل قروناً طويلة، منذ العصر الأكدي، ولم تعد تؤثر في أحداث الشرق الأدنى القديم بعد ظهور القوى الجديدة في خلال النصف الثاني قبل الميلاد. ولكن تأثيرها الحضاري لم يتراجع، بل زاد رسوخاً، وبقيت اللغة البابلية لغة المنطقة الأولى، ولغة العلم والدبلوماسية حتى العصر الهلنستي ، ولاسيما بعد أن تلقت مداً جديداً بظهور الكلدانيين.

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الخامس
عصر الكاشيين

الكاشيون من الأقوام الجبلية التي كانت تقيم في جبال زاجروس الفاصلة بين العراق وإيران ، وهي الجبال التي ذكرت المصادر الأكدية في عهد الملك سرجون ، وفي عهد حفيده نرامسين ، أنها كانت موطناً للجوتيين وللوبيين ، وكان الملكان استهدفاها بهجماتهما على سكانها لردعهم عن محاولة النزول إلى المناطق السهلية في بلاد بابل بخاصة . ويتعذر التعرف على هوية الكاشيين ، وعلى صلتهم بغيرهم من الشعوب المجاورة لمنطقتهم الواقعة في أواسط زاجروس، وربما عند منابع نهر ديالى ، إذا لم يخلفوا نصوصاً بلغتهم الخاصة ، وإنما بقي عدد من أسمائهم التي لاتنبئ أيضاً عن أصلهم . أما اسمهم فقد ذكر للمرة الأولى في صيغة كاشو Kashshu الأكدية في نص للملك البابلي سمسوإيلونا بن حمورابي ، يعود تاريخه إلى العام التاسع من حكمه (حوالي ١٧٤٠ق . م) ، إذ سمي العام نسبة اليهم «عام جيش الكاشيين»إشارة إلى الانتصار عليهم حين حاولوا التوغل في أرض بابل . ويبدو أنهم لم ينجحوا في محاولتهم الثانية في دخول الأراضي السهلية في بداية عهد أبي إشوخ ، الملك البابلي الثاني بعد حمورابي ، بعد أن بنى سمسوإيلونا قلعة قرب خفاجي حيث يصب نهر ديالى في دجلة لمراقبة تحركاتهم ورصد محاولات تغلغلهم . فتوجهت جماعات منهم إلى الفرات الأوسط ، وتولت الحكم في دويلة تدعى باسم خانة (نسبة إلى مدينة عانة اليوم) . ويؤكد سيطرة الكاشيين على هذه المنطقة وثيقة تذكر اسم ملك خانة (كشتلياشو) الذي يمثل واحداً من أسمائهم المعروفة ، تم العثور عليها في مدينة ترقا[1] (تل العشارة اليوم) .

---

(١) E. Cassin, Babylonien unter den Kassiten und das mittlere assyrische Reich in FW, 3, S. 12-13.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كما توجهت جماعات أخرى من الكاشيين إلى أرض بابل سلمياً ، حيث استقروا في مدنها ، وعملوا في مهن مختلفة ، عمالاً ومزارعين ، وموظفين لدى الحكومة البابلية متخصصين في تربية الخيول بخاصة ، كما يبدو منذ زمن آخر ملوك بابل سمسوديتانا(١٦٢٥-١٥٩٥ ق .م). وعندما زحف الجيش الحثي بقيادة الملك مورشيلي الأول على العاصمة بابل في عام ١٥٩٥ ساند الكاشيون الحثيين، ووقفوا بقوة إلى جانبهم ، لأنهم كانوا ينتظرون فرصة تضعف فيها قوة البابليين ، وقد أزفت هذه الفرصة بوصول الحثيين الذين مروا بمنطقة نفوذهم الأساسية في الفرات الأوسط ، فلعلهم انضموا إليهم ودخلوا بابل معهم . وعندما قفل الحثيون عائدين إلى بلدهم بعد تدميرهم المدينة وسلبهم كنوزها ، خلفوا وراءهم فراغاً سياسياً لأنهم قضوا على الأسرة البابلية الحاكمة فيها ، فانتهز الكاشيون الفرصة بالتعاون مع بني جلدتهم المستوطنين في المدينة واغتصبوا الحكم فيها ، وأسسوا أسرة حاكمة دامت سلطتها أكثر من أربعة قرون متواصلة .

وصلت الأسرة الحاكمة الكاشية إلى عرش بابل في بداية القرن السادس عشر ، ويبدو أن الملك أجوم الثاني كان أول ملوك الكاشيين الذين حازوا السلطة في بابل ، ولكن عدداً من الملوك سبقوه إلى الحكم وعاصروا ملوك بابل الخمسة الذين خلفوا حمورابي ، وأولهم يدعى جانداش الذي عاصر سمسوإلونا ، وهو المؤسس الحقيقي للأسرة الكاشية التي بدأت حكمها في خارج بابل ، وربما في خانة على الفرات الأوسط قبل أن تنتقل إلى العاصمة بابل . ومما يزيد الأمور تعقيداً أن قوائم الملوك البابلية تذكر أكثر من ملك كاشي يحمل اسم أجوم الثاني (كاكريمه في اللغة الكاشية) . أما أجوم الذي خلف جانداش فيبدو اسمه متطابقاً مع اسم شخصية بارزة ظهرت في نهاية عصر الأسرة البابلية في مدينة بابل ، وكان يحمل لقب(بوكاشوم) ، بمعنى«الأمير» ، وكان هذا يؤوي في بيوته سفراء ملك حلب الذين يقصدون ملك بابل ، وكانت حلب آنذاك تخضع لنفوذ الحثيين . وهذا دليل آخر على علاقة الكاشيين الوثيقة بالحثيين قبل توجههم إلى بابل للقضاء على آخر حكامها من الأسرة البابلية الأولى .

http://www.al-maktabeh.com

ويذكر أجوم الثاني ، أول ملوك الكاشـــيين في بابل ، أنه من نسل الإله (الكاشي) شوقاموما ، وأن الآلهة (البابلية) آن ، وإنليل ، وإيا ، ومردوك ، وسين، وشمش هم الذين دعوه لحكم بابل ، فهو يريد أن يؤكد شرعية حكمه بحجة دينية ، وأن يقدم نفسه ملكاً مؤمناً بالآلهة البابلية ، مثل الملوك البابليين . بل وأثبت إيمانه بآلهتهم بأن أمر بإعادة تمثال الإله مردوك وتمثال زوجته صربانيتو من خانة اللذين أخذهما الحثيون من بابل عند خروجهم منها ، ثم تركوهما في خانة بعد أن لاقوا مشقة في جرهما ، ونصبهما في معبد إيساجيل المخصص لعبادة مردوك بعد أن رممه وأعاد إليه أبهته ، وحقق للبابليين أمنية عزيزة على قلوبهم بعد غياب إلههم أربعة وعشرين عاماً .

اتخذ الملك أجوم الثاني لقباً طويلاً ومعبرا ، فهو ملك الكاشيين والأكديين، وملك بابل ثم زاد عليه «ملك ألمان، وبادان» ، وهما منطقتان في شرقي وشمال شرقي بابل حيث ترتفع الجبال ماوراء إشنونا ، ولعله أراد أن يذكر بوطنه الأصلي. كما يذكر أنه«ملك جوتيوم» التي كانت تشتمل على كردستان الحالية ، وتشير هذه المسميات بوضوح إلى أن حكمه امتد إلى كل المناطق الشرقية والشمالية الشرقية الجبلية من بابل وصولاً إلى بحيرة أورمية . ولكنه لايذكر المناطق الجنوبية لبابل حيث كانت تقوم مملكة البحر التي وسعت منطقة سيطرتها هي الأخرى بعد الغزو الحثي إلى منطقة دير(بدره اليوم) شرقي نهر دجلة .

وتذكر النصوص أن خليفة أجوم ، ويسمى بورنابورياش ، عقد اتفاقية مع الملك الآشوري بوزور آشور (الثالث حوالي عام ١٥٤٠ ق. م) حددت بموجبها الحدود بين مملكتيهما . وانتهز خليفته على عرش بابل الملك أولام بورياش انشغال ملك «بلادالبحر» إياجميل بغزوه عيلام، فهاجم بلاده ، وأنهى حكم أسرة مملكة البحر ، وصار الملك الكاشي منذ ئذ يحمل لقب«ملك أرض بابل» بعد أن وحدها من جديد . ولكن السكان لم يستكينوا لحكم الكاشيين ، فقاموا بانتفاضة ضدهم ، مما حمل هؤلاء على استخدام العنف لإخمادها ، ولم يتورعوا عن تدمير معبدالإله إيا ، إلههم الكامي

مكتبة المهتدين الإسلامية

العلاقات الدولية

اتسم الربع الثالث من الألف الثاني قبل الميلاد في الشرق القديم بظهور قوى عدة تنافست على الهيمنة على طرق التجارة العالمية التي تتقاطع في شمالي سورية ، ولاسيما في منطقة حلب . فقد كانت دولة الحوريين - الميتانيين تعد هذه المنطقة خاضعة لنفوذها ، وخضعت حلب وألالاخ ، وكل المناطق المجاورة لسيادة الميتانيين . ولكن مصر عبرت عن إرادتها في مد سيطرتها إلى هذه المنطقة في عهد ملكها تحوتمس الأول(١٥٢٨ -١٥١٠ ق .م) الذي وصل إلى نهر الفرات ، وأقام نصباً عند مدينة كركميش حدد به حدود مصر الشمالية .

ثم عاد حفيده تحوتمس الثالث (١٤٦٨-١٤٣٨ ق. م) إلى المنطقة ذاتها في الحملة الثامنة ، حيث ألحق بالميتاينين هزيمة فادحة ، فر على أثرها ملكهم هارباً إلى أعماق بلاده في الجزيرة العليا ، وأقام هو الآخر نصباً . وبلغت حملاته العسكرية على سورية سبع عشرة حملة أراد أن يؤكد من خلالها تصميم المصريين على إبقاء سورية تحت حكمهم . وهناك تقابل عند نهر الفرات الملك المصري مع ملك بابل الكاشي وتبادلا الهدايا تعبيراً عن إقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين [٢].

وبعد أن هدأت المشاكل بين الميتانيين والمصريين في عهد أرتاتاما ، وتحوتمس الرابع (١٤١٢-١٤٠٢ ق. م) ، وعقدا صلحاً بينهما تفاهما فيه على تقاسم مناطق النفوذ في سورية ، وعززاه بزواج الملك المصري ابنة الملك الميتاني، ظهرت قوة جديدة في الشمال ، هي دولة الحثيين التي تطلعت الى مد نفوذها إلى الجنوب حيث كان الميتان والمصريون يتصارعون من قبل . أما الكاشيون فلم تكن لديهم أية أطماع في المنطقة ، فلم يتدخلوا في الصراع الجديد ، وإنما كانوا يشعرون من دون شك بوطأة دولة الميتان في الشمال الغربي من بابل ، بل وفي الشمال ، فأنشأوا عدداً من التحصينات الدفاعيه قرب الحدود الآشورية ،

---

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨ -١٩ .

http://www.al-maktabeh.com

ولاسيما بعد أن بدأت صحوة الآشوريين في عصرهم الوسيط تبدو ملامحها الأولى ، وميتاني تخور قواها إثر الضربات الحثية الموجعة . ولكن علاقات بابل الكاشية أخذت تزداد قوة يوماً بعد يوم مع المصريين ، منذ اللقاء الأول بين تحوتمس الثالث وكارايينداش ، ويؤكد تلك العلاقات الودية عدد الرسائل المتبادلة بين خلفاء الملكين في«زمن العمارنة» ، وهو زمن الملكين أمنحوتب الثالث ، وزمن ابنه أمنحوتب الرابع (أخناتون) الذي تغطي أخباره رسائل تل العمارنة (أخيتآتون كما كانت تدعى العاصمة المصرية آنئذ) . ويعود إلى عهد كاريينداش كذلك تسمية «بلاد بابل » باسم«بلاد كاردونياش»، إذ أطلق الملك المذكور على نفسه لقب «ملك مدينة بابل ، ملك سومر وأكد ، ملك الكاشيين ، وملك كاردونياش» ، وصارت هذه التسمية مألوفة في نصوص الملوك الكاشيين جميعها، وفي النصوص الحثية ، والمصرية ونصوص الحكام السوريين . كما كان الآشوريون يقصدون بها مايقع وراء حدودهم الجنوبية من أرض بابل تحت حكم الكاشيين .

وتذكر النصوص الكاشية قيام خليفة كاريينداش بمهاجمة قبائل السوتيين في البادية السورية، وهي فرع من القبائل الآرامية ، التي كانت تقلق حلفاءهم المصريين كذلك ، ولعله قام بتلك الحملة ضدهم تنفيذاً لروح اتفاقية الصداقة بين بابل ومصر . وعندما وصل الملك كوريجالزو الأول إلى الحكم تمسك بهذه السياسة الودية مع مصر . واشتهر هذا الملك ببنائه لمدينة جديدة دعيت نسبة إليه باسم دوركوريجالزو إلى الشمال الغربي من مدينة بغداد الحالية (عقر قوف اليوم) بحوالي عشرين كيلومتراً ، حيث أتخذها عاصمة للدولة ، واختار لها هذا الموقع لقرب جبال حمرين منها إذا أنها تشكل حماية طبيعة لها من الشمال . وشاد فيها قصراً ملكياً ، وعدداً من المعابد . وعندما جاء خلفاؤه زادوا في قصورها الفخمة ومعابدها ، وبنى كوريجالزو الثاني زقورتها المشهورة التي تعد حلقة هامة في تطور بناء الزقورات مابين ظهورها في عهد أسرة أور الثالثة حيث كانت تتألف من ثلاث طبقات ، وبين المرحلة النهائية التي وصلت إليها في العصر

مكتبة المهتدين الإسلامية

البابلي الحديث (الكلداني) ، والتي تتمثل في برج بابل الذي يتألف من حوالي سبع طبقات[٣] .

عادت بابل في عهد كوريجالزو إلى سمعتها الدولية ، وعبر عن طموحه السياسي باتخاذه لقب«ملك العالم» القديم مستنداً إلى شرعية أعطاه إياها الإله إنليل ، كما تذكر نصوصه ، كما أضاف إلى اسمه رمز الآلهة الذي يعني تأليه نفسه ، كماكان يفعل ملك أور من الأسرة الثالثة شولجي وخلفاؤه ، وحمل صفات لم تكن تنسب قبله إلى غير الآلهة . ولم يهمل كوريجالزو مدينة بابل بعد انتقال مقره إلى مدينته الجديدة ، بل منح مواطنيها امتيازات أعفتهم من الضرائب بخاصة .

وزادت أواصر الصداقة مع مصر في عهد كوريجالزو عن طريق المصاهرة ، إذ تزوج فرعون مصر أمنحوتب الثاني(١٤٣٨-١٤١٢ ق .م) من ابنته وعندما خلفه ابنه كاد شمان - إنليل اضطربت العلاقة الشخصية بينه وبين زوج أخته الملك المصري أمنحوتب الثالث (١٤٩٢-١٣٦٤ ق.م) الذي تلقىّ رسالة من الملك الكاشي ، يلومه فيها على إهماله لأخته التي ماعاد أحد يشاهدها في قصر الفرعون ، كما يطلب إليه تزويجه أميرة مصرية . ولكن أمنحوتب الثالث يرفض طلبه متعللاً بأنه لم يسبق لأميرة مصرية أن تزوجت بأجنبي . فرد عليه الملك الكاشي :«ألست ملكاً ؟ تصرّف إذاً كما يحلولك . فإذا مازوجتني (أختك) ، من ذا الذي يعارضك؟» . ولكن أمنحوتب الثالث لم يكلف نفسه مشقة الرد عليه بل أرسل إلى ملك بابل طالباً منه تزويجه بأميرة كاشية ثانية ، ولم يمتنع عليه الملك البابلي ، بل لبىّ طلبه عن طيب خاطر ، كما فعل الميتان ، حتى كثر عدد الأميرات الأجنبيات في القصر الفرعوني . أما الملك المصري الذي لم يوافق على تزويج الأميرات المصريات للملوك الأجانب ، فكان يقايض الأميرات الأجنبيات ، الحوريات والبابليات وغيرهن بكميات من الذهب ، كان الملوك الكاشيون يتوقون

---

(٣) طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ص٤٥٣ .

http://www.al-maktabeh.com

للحصول عليه لإشباع رغبتهم في بناء القصور والمعابد. فقد كانوا حريصين على بناء المعابد للآلهة المحلية لاستمالة أنصارها إلى جانبهم . وكسب ولائهم . ويبدو أن كادشمان إنليل كان لايتوانى في كل مناسبة عن طلب الذهب من صهره في مصر ، كما تؤكد رسائل تل العمارنة . ومنهارسالة تنص على أن ملك مصر تلكأ مرة في إرسال الذهب ، فكتب إليه قائلاً :«إن لم تبعث ذهباً ، فلن أتمكن من متابعةأعمال البناء التي باشرت بها . لم يصل الذهب بعد . فكيف أتابع عمل البناء الذي بدأته ؟ لقد وصل الذهب أخيراً ، ولكن نوعيته سيئة . فبعد وضعه في فرن الصهر لم تنتج منه سوى كمية ضئيلة .»

وعبّر الملك الكاشي بورنابورياش الثاني عن العلاقة الحقيقية التي تربطه بملك مصر أمنحوتب الرابع(١٣٦٤-١٣٤٧ ق .م) في رسالة إليه ، قال فيها بصراحة :« الأخوة ، والصداقة ، والتفاهم والوفاق بين الملوك يستمر ماداموا يتهادون الأحجار الكريمة والفضة والذهب» (٤).

طال حكم بورنابورياش الثاني كثيراً ، فقد تبادل الرسائل مع أمنحوتب الثالث في سنوات حكمه الأخيرة ، ومع خليفته أمنحوتب الرابع (أخناتون) ، ومع توت عنخ آمون في عام حكمه الأول والثاني . وحمل مثل جده وأبيه لقب«ملك الجميع»(شركيشاتي) . وتبدوشخصيته السياسية في الرسائل أكثر توازناً وحنكة من شخصية أبيه . ويبدو أن بلاد آشور في عهده كانت تابعة لنفوذ الكاشيين الذين حلوا محل الميتانيين في المنطقة ، بعد أن دبت مظاهر الضعف في أوصال دولة الميتان نتيجة لموت ملكهم شوتارنا واغتيال خليفته على العرش ، ووصول توشراتا إلى الحكم وهو بعد صغير السن . ويؤكد نفوذ الكاشيين في آشور رسالة وجهها الملك الكاشي المذكورإلى الملك المصري يشير فيها إلى أن الآشوريين أتباعه ، ويعبر عن انزعاجه لأنهم تجرؤوا على إرسال وفد إلى البلاط المصري دون الرجوع إليه . وتذكر نصوص العصر أن الملك الآشوري آشور

---

(٤) FW, 3, S. 23, 24

مكتبة المهتدين الإسلامية

أوبلّط أرسل إحدى بناته إلى البلاط الكاشي للزواج من ابن الملك أومن الملك نفسه ، وقد يشير ذلك فعلاً إلى موقف آشور الضعيف من بابل في هذا الوقت . وقد يعني أيضاً سياسة حكيمة للملك الآشوري توخّى منها الإفادة من وجود ابنته أميرة ، أو ملكة من بعد ، للوصول إلى مايريد تحقيقه في بابل . ولكن ابن الأميرة الآشورية الذي خلف أباه فعلاً على عرش بابل لقي حتفه بعد وقت قصير على يد رجال القصر الكاشيين الذين ثاروا عليه وقتلوه . أما ملك آشور الطموح آشور أوبلّط فقد بدأ نجمه بالصعود ، فقد تمكن من تنصيب ملك كاشي في بابل يدعى كوريجالزو(الثالث) . ولكن هذا اتخذ موقفاً عدائياً من آشور بعد موت آشور أوبلّط ، إذ هاجم الأراضي الآشورية ، وتكبّد خسارة أليمة كلفته التنازل عن بعض المناطق الحدودية . ثم هدأت الأحوال بين الطرفين ، ووجد الملك الكاشي الفرصة مناسبة لمهاجمة عيلام التي جمعت قواتها على الحدود ، مهددة أمن الدولة الكاشية . وانتزع كوريجالزو النصر في المعركة ، وطارد فلول العيلاميين ، وعلى رأسهم ملكهم ، إلى العاصمة سوسة التي احتلها ، ودمّر في طريقه عيلام وجارتها واراخشه ، ولكن نصره الحاسم على عيلام لم يؤد إلى السيطرة عليها طويلاً ، لأنها مالبثت أن استعادت توازنها ، وظهرت فيها أسرة حاكمة جديدة .

وعندما حاول الكاشيون في عهد خليفة كوريجالزو مد سيطرتهم إلى الشمال من عيلام أيضاً ، تصدى لهم الآشوريون ، وكبدوهم خسارة من جديد بقيادة ملكهم أداد نيراري الأول(١٣٠٧-١٢٧٥ ق .م) ، وترتب على هذه الخسارة تعديل الحدود بين الطرفين من جديد لصالح آشور التي احتلت الجزيرة العليا ، وغدت قوة مرهوبة الجانب ، كما حمل الكاشيين على الإتصال بالحثيين وتوثيق علاقات الصداقة بهم ، بل ومصاهرتهم ، إذ تزوج ملكهم شوبيلوليوما أميرة كاشية ، وزادت العلاقات الودية من بعد في عهد الملك الحثي موواتاللي ، وفي عهد خليفته خاتوشيلي الذي وطّد الصداقة بعقد معاهدة رسمية مع الملك الكاشي كادشمان -تورجو .

http://www.al-maktabeh.com

وتشير نصوص هذه الفترة من تاريخ الشرق الأدنى القديم في بابل إلى تهديد الأخلامو ، وهم الآراميون ، للمناطق الواقعة على الفرات الأوسط حيث كانوا بدواً ، ويتحكمون في الطرق المارة هناك ، وفي البادية السورية .

نهاية العصر الكاشي

تزايد نفوذ الآشوريين في بابل ، ولاسيما بعد اختفاء دولة الميتان، كما استعادت عيلام قوتها وبدأت تتحرش بدولة الكاشيين من جديد . فغدت دولتهم محصورة بين عدوين قويين لاطاقة لها على الوقوف في وجههما ، وقد ساءت أحوالها الداخلية، وحل فيها الضعف . فتجرأت عيلام على مهاجمة بلاد بابل في عهد ملكها كاشتلياش الرابع (١٢٤٢- ١٢٣٥) ولكن الملك الآشوري توكلتي نينورتا (١٢٤٤ - ١٢٠٨)الذي كان يتحين الفرصة للانقضاض على الدولة الكاشية كان أسبق ، فاجتاح جوتيوم في طريقة إلى بابل. وذكر انتصاره على الملك الكاشي في نص له ، قال فيه : « بمعونة آشور ، وإنليل ، وشمش ، الآلهة العظام ، أربابي ، وبمساعدة إشتار ، ربة السماء والأرض ، التي كانت تتقدم جيوشي ، التقيت بكاشتيلياش ملك كاردونياش لخوض الحرب . لقد أوقعت الهزيمة بقواته .. وفي خضم المعركة أمسكت بيديّ ملك الكاشيين ، ودست بقدمي على رقبته النبيلة كما لو كنت أدوس على مصطبة. ثم قدته أسيراً مكبلاً بالأغلال إلى أمام ربي آشور . وقد سيطرت على كل بلاد سومر وأكد حتى حدودها الخارجية ، وجعلت حدود دولتي عند البحر الأسفل (أي الخليج العربي) حيث تشرق الشمس»(٥).

بقيت بابل تحت الحكم الآشوري لمدة سبعة أعوام ، وكان الملك الآشوري هو الذي يعين الملوك الكاشيين الذين بلغ عددهم ثلاثة . وعندما مات توكلتي نينورتا استعاد البابليون استقلالهم ، ولكن عدوتهم اللدودة عيلام كانت لهم

---

(٥) المرجع السابق ،ص٣٣؛طه باقر، المصدر السابق٤٦٠-٤٦١

مكتبة المهتدين الإسلامية

بالمرصاد ، فقد أزفت ساعة الإنتقام من بلاد بابل على يد الملك العيلامي شوتروك ناخونته الذي توغل في أراضي بابل حوالي عام ١١٦٠ق . م حتى وصل إلى العاصمة بابل ، فدمّرها مع عدد من المدن الأخرى ، ونهب قصورها ومعابدها ، وحمل معه جملة من الغنائم النفيسة ذات الدلالة التاريخية ، مثل مسلة الملك الأكدي مانيشتوسو ، ومسلة النصر لنرامسين ، ومسلة حمورابي التي دونت عليها شريعته [٦] . ثم غادر البلاد بعد أن عين في بابل نائباً له فيها . وعندما استقل كاشي من أمرائهم ببابل وحكمها ثلاث سنوات ، عاد العيلاميون ثانية إلى بابل ، ونهبوها ثانية ، وحملوا معهم تمثال الإله مردوك هذه المرة(حوالي عام ١١٥٧ق . م) .

كان الكاشيون أقل حضارة من سكان بلاد بابل الذين فرضوا سيادتهم عليهم ، ولكنهم حاولوا أن يظهروا بمظهر أهل البلاد ، فاتخذوا اللغة البابلية لغة رسمية لحكمهم ، ودونوا بها نصوصهم ، وكتبوا بالخط المسماري البابلي ، وقلدوا البابليين في عباداتهم وتقاليدهم وطقوسهم الدينية ، فقد احتفظوا للإله البابلي الرئيس مردوك بمكانته ، ورأينا كيف تفانى ملكهم الأول في بابل أجوم الثاني في إعادة تمثال الإله مردوك ومعه تمثال زوجته صربانيتو من خانة ، إلى معبده في مدينة بابل في احتفال مهيب . كما اهتم بالمعبد نفسه فأعاده إلى ماكان عليه من فخامة ، وخلف نصاً مطولاً تحدث فيه عن هذا الحدث العظيم، وكان يهدف من وراء ذلك كله إلى التأكيد على أنه وريث الأسرة البابلية الأولى ، إذ إن عودة إلهها الرئيس من الغربة يعني العودة إلى النظام وإلى انتظام الحياة في بابل من جديد ، وعودة الشرعية إلى حكمها . كما اهتم الكاشيون بالآلهة البابلية والسومرية الرئيسة الأخرى : آن ، وإنليل ، وإيا ، وشمش ، وقدّسوا الآلهة المحلية واعتنوا بمعابدها ، وأظهورا احترامهم لها ، الى جانب احتفاظهم بعبادة آلهتهم الخاصة . واتخذ ملوكهم الألقاب الملكية البابلية والأكدية ، وجعلوا مدينة بابل عاصمة لهم ، واهتموا بتعمير معابدها وتزيينها ، وبقيت عاصمة للبلاد على الرغم من بناء مدينة دوركوريجالزو ، كما ذكرنا ، واتخاذها مقراً لملوكهم .

---

(٦) مسلة مانيشتوسو كانت في كيش ، ومسلة نرامسين في سيبار .أما مسلة حمورابي فكانت ربما هي الأخرى في سيبار أو في مدينة بابل نفسها .

http://www.al-maktabeh.com

وقامت في العصر الكاشي حركة نسخ للأعمال الأدبية السابقة، ولاسيما للنصوص الدينية والميثولوجية، ومنها نسخة هامة من ملحمة جلجامش، ونسخة من قصة الطوفان. كما صنفت مؤلفات طبية، وفلكية، ونوع من المعاجم اللغوية. وانتشر مع استخدام اللغة البابلية وخطها المسماري الأدب البابلي في الشرق الأدنى القديم، وترجمت آثاره إلى اللغة الحثية والحورية.

وظهرت في العصر الكاشي طريقة جديدة في التأريخ بالاعتماد على أسماء الملوك وتسلسل سني حكمهم بدلاً من التأريخ بحسب الحوادث، وهي طريقة كانت معروفة من قبل إلا أنها لم تكن شائعة. واعتمد الكاشيون طريقة في تثبيت الإقطاعات الملكية للأفراد والجماعات تقوم على الكتابة على أحجار الحدود، وتسمى كودورّو كانت تحمل أسماء من أقطعت الأرض لهم، ومساحة الأرض والامتيازات الخاصة بها، إلى جانب بعض الرموز الدينية الخاصة بالآلهة واسم الملك صاحب المنحة.

كما يعود استخدام الخيول في بلاد مابين النهرين على نطاق واسع إلى الكاشيين الذين كانوا مهرة في تربيتها والإفادة من مزاياها في القتال والنقل.

بلاد بابل بعد زوال الكاشيين

قامت في مدينة إيسين حكومة وطنية بعد طرد الحامية العيلامية من بابل في حوالي عام ١١٥٧ ، على يد أسرة حاكمة، هي الثانية في إيسين، ودعيت أيضاً بالأسرة البابلية الرابعة. ودام حكم الأسرة أكثر من مائة عام (١١٥٧-١٠٢٥ق.م)، ولكنها كانت محدودة القوة والتأثير في بلاد مابين النهرين، وإن تدخل بعض ملوكها في شؤون بلاد آشور الضعيفة. واشتهر من ملوكها نبوخذ نصر الأول (١١٢٤-١١٠٣) الذي عقد العزم على الانتقام من عيلام . فقام بحملتين ، أوصلته الأولى إلى داخل البلاد، ثم ارتد بعدها بسبب تفشي المرض في صفوف جنوده، ثم عاد ثانية ، واكتسح عيلام بغتة في وقت لم يحسب له

مكتبة المهتدين الإسلامية

العيلاميون حساباً من أيام السنة القائظة، وقد خلّف نصاً فصّل فيه وقائع الحملة الظافرة، وأبرز فيها دور قائد فرقة العربات الحربية، ولم ينسَ أن يرد انتصاره الساحق على العدو العيلامي إلى آلهته التي حفزته للانتقام لأكد، كما يذكر مؤلف حولياته الذي صاغ نص الوثيقة التاريخية بأسلوب نثري بليغ يشير إلى ملكة أدبية، وتمكّنٍ من فن الكتابة وأصولها. يقول بنوخذ نصر عن نفسه :

"نبوخذ نصر، النبيل، التقي، المختار، سليل بابل، الأمير القوي.. ملك الحق الذي ينطق بالعدل. البطل الصنديد .. الذي لايهاب القتال .. والذي دحر اللولوبيين الأقوياء بحد السيف، قاهر الأموريين وسالب الكاشيين، منصّب الملوك، الأمير محبوب الإله مردوك، عندما أرسله ملك الآلهة مردوك، فقد جعله يحمل سلاحه من أجل الانتقام لأكّد. فمن الدير، مدينة الإله آنو، شن هجومه لمسافة ثلاثين ميلاً مضاعفاً، وكانت حملته في شهر تموز (يوليو)، عندما كانت الفؤوس تلتهب كالنار بأيدي الجنود، والطريق تتوهج كالسنة اللهب. وقد نضبت مياه الآبار، وانقطعت مياه الشرب، حتى كادت تخور قوى أشد الخيول، وتتراخى أرجل أقوى الأبطال. ومع ذلك تقدم الملك العظيم والآلهة تسنده. أجل ! لقد واصل نبو خذ نصر زحفه.. ثم أسرع الملك الصنديد ووصل إلى ضفة نهر أولاي، واتخذ كلا الملكين موقعيهما، ثم اشتبكا في معركة ضارية، كانت النيران تندلع لهولها من بينهم، ثم أظلم وجه الشمس بغبار المعركة، فكأن الزوابع كانت تهب والعواصف تزمجر. ووسط عاصفة المعركة الضارية هذه لم يعد بإمكان المقاتل في المركبة أن يرى رفيقه الذي كان إلى جانبه. وبأمر من عشتار وأدد، إلهي الحرب، هرب خولتيلوديش ملك عيلام واختفى إلى الأبد.»[٧] وقد جاءت هذه التفاصيل مدونة على حجر حدود «كودورّو» تعلوه نقوش لرموز الآلهة التقليدية، وشغلت عمودين من الكتابة المسمارية. ويشير النص إلى انتصار نبوخذ نصر على اللولوبين، سكان الجبال الشمالية الشرقية، وعلى الأموريين، سكان الفرات الأوسط، ويعني هذا أنه قاد حملات عسكرية إلى تلك الجهات، وأن بابل عادت

---

(٧) فاضل عبدالواحد علي ، من ألواح سومر إلى التوراة، ص١٢٧-١٢٨ ، المؤلف نفسه : سلالة إيسين الثانية، في : العراق في التاريخ، بغداد ١٩٨٣، ص ١١٧-١١٨؛ طه باقر ، المصدر السابق، ٤٦٢ . FW,3,S. 40-42

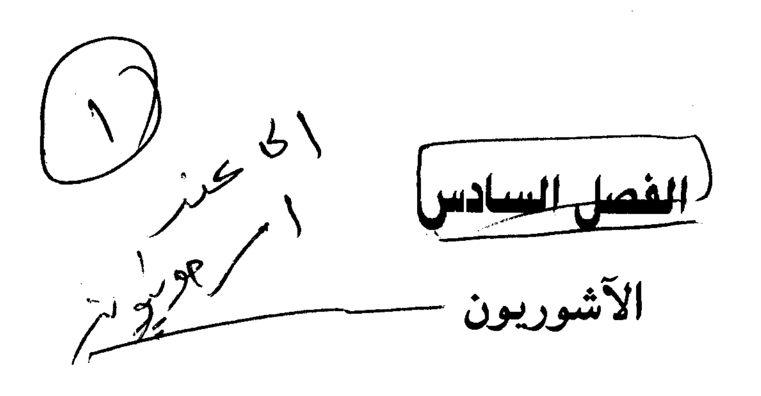
http://www.al-maktabeh.com

إليها المبادرة السياسية والعسكرية في المنطقة في عهده. ومن علائم انتصاره على عيلام إعادة تمثال الإله مردوك من الأسر العيلامي الذي يعني الكثير للبابليين من الجانب المعنوي والسياسي.

تداول الحكم في إيسين عدد من ملوك الأسرة الحاكمة ، وكانت آشور في هذه الفترة بدأت تتعاظم قوتها، وتحاول مد سيطرتها إلى بابل، كما بدأت القبائل الآرامية تتدفق على البلاد، وتنشئ الإمارات المحلية حتى انتزعت السلطة من ملك إيسين. ثم ظهرت أسر حاكمة متعددة في بلاد بابل ، ذكرت ملوكها قوائم الملوك البابليين بعد أنتهاء عصر أسرة إيسين الثانية، وتعاظم ضغط الآراميين. على المدن الرئيسة التي كانت تخضع لسيطرة الأسر المختلفة، وتفاقمت الأوضاع السياسية السيئة في البلاد، حتى تدخل الملك الآشوري تيجلات بليصر الثالث (٧٤٥-٧٢٧) وفرض سيادته على بلاد بابل. ثم لم تلبث أوضاع البلاد أن عادت إلى سيرتها السابقة بعد موت الملك الآشوري، وقامت فيها الأسرة العاشرة بزعامة الآرامي أوكن زير. ثم عادت إلى الخضوع مرة أخرى للسيادة الآشورية في عهده الأسرة السرجونية، أي سرجون الثاني وخلفائه : سنحاريب، وأسرحدون، وآشوربانيبال.

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com



الفصل السادس

الآشوريون

استوطن الساميون شمالي بلاد مابين النهرين بعد وقت قصير من استقرارهم في الجنوب ، وكانت أعدادهم قليلة في عصر الأسرات السومرية المبكرة إذ كان السوباريون يشكلون كثافة سكانية أكبر . فاختاروا المنطقة الواقعة بين نهر الزاب الأعلى ، ونهر الزاب الأسفل ، وعلى طرفي نهر دجلة دار إقامة دائمة لهم . ووقعوا لاحقاً تحت تأثير الحضارة السومرية والأكدية ، وظهرت آثارهم الكتابية الأولى في العصر الأكدي ، بلغة تشابه إلى حد بعيد اللغة الأكدية الأولى ، وتعد فرعاً منها . ثم مالبث الآشوريون أن سعوا إلى ترحيل السوباريين إلى الجبال الشرقية المجاورة ، ولكن جماعات منهم بقيت في مواقعها حتى القرن العشرين قبل الميلاد ،كماتشير الآثار في بلاد آشور[1] .

أما تسمية «الآشوريين» فتعود إلى حاضرتهم الأولى ، أو إلى اسم إلههم الرئيس آشور ، وقد ورد الاسم في المصادر الآرامية والعربية في صيغة أثور . أما المصادر البابلية فكانت تستخدم اسم سوبارتو بدلاً من آشور، وهي التسمية التي كان الآشوريون يتحاشون إطلاقها على بلادهم وعلى أنفسهم لما كانت تنطوي عليه عندهم من مدلول شائن ، إذ ترادف معنى «العبد» ، لأن بلاد سوبارتو كانت من قبل مصدر الرقيق الأسرى .

ينقسم تاريخ بلاد آشور إلى ثلاثة عصور متميزة ، هي :

---

(١) D. O. Edzard, Die Fruhdynastische Zeit, in FW. 2, S. 66, 87 .

مكتبة المهتدين الإسلامية

١ - العصر الآشوري القديم ، ويقع بين بداية الألف الثاني قبل الميلاد ، ونهاية القرن السادس عشر .

٢ - العصر الآشوري الوسيط ، ويبدأ في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، وينتهي في نهاية القرن العاشر قبل الميلاد .

٣ - العصر الآشوري الحديث ، أو عصر الامبراطورية ، ويبدأ في نهاية القرن العاشر، وينتهي بسقوط العاصمة آشور بيد الميديين في عام ٦١٢ق.م.

١ - العصر الآشوري القديم (حوالي ٢٠٠٠ - ١٥٠٠ ق .م)

بقي شمال بلاد مابين النهرين على هامش الحياة السياسية النشيطة في الجنوب على الرغم من تقبله للحضارة التي ترعرت في بلاد بابل ، وتأثره بها . ولم يكن لسكان الشمال دور سياسي يذكر طوال الألف الثالث قبل الميلاد ، مع أن علاقاتهم الاقتصادية مع جنوبي البلاد ، ومع سورية والأناضول كانت وثيقة . إذ تؤكد نصوص مسمارية عثر عليها في كانيش(كول تبه اليوم) الواقعة في جنوب شرقي آسية الصغرى استقرار جالية آشورية في المنطقة ، كانت تتعاطى التجارة مع السكان ، وتتمثل في أسر آشورية عريقة في التجارة بقيت على اتصال ببعضها على رغم بعد الشقة بين آشور وبين كانيش والمراكز التجارية الأخرى التي كانت تستوطنها تلك الجماعات .

ويعود تاريخ هذه النصوص المدونة باللغة الآشورية إلى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد .

ولكن الأوضاع تغيرت في بداية الألف الثاني ، إذ بدأت الأحوال السياسية في بلاد آشور تنتظم بظهور أسرة حاكمة ، ذكرتها قائمة الملوك الآشورية ، وذكرت اسم الملك الأول فيها بوزور آشور ، وبعده شالم آخوم ، ثم ، إيلوشوما الذي حكم في حوالي عام ١٩٦٠ ق . م ، وتجرأ على التوجه بجيشه إلى الجنوب حيث تدخل في المنازعات التي نشبت بين مدن بلاد بابل في أواخر أيام أسرة إيسين .

http://www.al-maktabeh.com

كما تذكر اسم الملك سرجون الأول الذي توسعت في عهده الدولة الآشورية . لكنها مالبثت أن انتابتها حالة من الضعف من بعده ، حتى تجرأت مملكة إشنونا الصغيرة على فرض سيطرتها عليها في عهد ملكها نرامسين الذي عدته قائمة الملوك الآشورية واحداً من الملوك الآشوريين الشرعيين ، فسلكت اسمه بين أسماء ملوك آشور في هذه الفترة .

ثم اعتلى العرش **شمشي أدد الأول** (١٨١٥-١٧٨٢ ق . م) الذي يمثل عهده مرحلة جديدة في تاريخ الآشوريين السياسي ، إذ غدت بلاد آشور في عهده مملكة مرهوبة الجانب ، تضم كل بلاد آشور الأصلية ، وتتجاوزها إلى الجزيرة العليا والأقاليم المجاورة ، وتؤثر في أحداث بلاد مابين النهرين ، وسورية ، وآسية الصغرى .

ينتمي شمشي أدد إلى أسرة أمورية من تلك القبائل الأمورية (أو الكنعانية الشرقية ، كما يسميها بعض الباحثين) التي شرعت في بداية الألف الثاني بانتزاع السلطة في أكثر مناطق الهلال الخصيب ، ومنها بابل حيث ظهرت الأسرة البابلية الأولى ، وفي إشنونا ، وفي ماري ، وفي يمحاض (حلب) ، وقطنا ، وألالاخ . أما أسرة شمشي أدد فكانت تسيطر على مدينة صغيرة تدعى ترقا (تل العشارة اليوم) الواقعة إلى الشمال من ماري على نهر الفرات . وبعد اصطدام بين والده إيلاكبكابوهو وملك ماري الأموري يجيدليم (حوالي عام ١٨٣٠ ق. م) ، اضطرت الأسرة إلى التخلي عن ترقا ، فتوجهت إلى منطقة الجزيرة العليا القريبة حيث أقامت في شوبت إنليل(تل ليلان اليوم) مدة من الزمن ، واتخذها شمشي أدد مقراً لحكمه قبل أن يتوجه إلى آشور ويغتصب الحكم من ملكها . أو لعل أسرته توجهت إلى بابل في البداية ، وعرجت في طريقها ، بزعامة شمشي أدد على مدينة إكالاتوم الآشورية التي جرّب فيها حظه للمرة الأولى ، ثم انتقل منها بصحبة جماعة من البدو الأموريين إلى آشور التي استولى على عرشها حوالي عام ١٨١٥ ق . م وعمد

---

(٢) أنظر كتابنا : تاريخ الشرق القديم (١) سورية ،ص١٥٢؛ محمد حرب فرزات -عيد مرعي ، دول وحضارات ص١٣٦ W. von Soden, Herrscher im alten Orient. S. 25.

مكتبة المهتدين الإسلامية

إلى تثبيت شرعية حكمه بالادعاء أن الإله إنليل هو الذي نصبه ملكاً في آشور ، أسوة بملوك بلاد بابل كلهم . بل وعدّ نفسه الملك الشرعي الوحيد في بلاد ما بين النهرين التي انتقل مركز الثقل فيها إلى الشمال بجلوسه على عرش آشور وبتفويض من الإله الرئيس إنليل ذاته ، مع أن هذا الإله لم تكن عبادته شائعة في آشور من قبل . ولعل احتجاجه بإنليل يفصح عن تأثره بالعقائد الدينيه البابلية - السومرية التي تشرب بها في أثناء لجوئه إلى بابل.

بعد أن ثبت شمشي أدد حكمه في آشور انصرف بكليته إلى مد سلطته على المناطق المجاورة ، وكانت منطقة الجزيرة العليا حيث يجري نهرا الخابور والبليخ ويصبان في نهر الفرات تمثل الامتداد الطبيعي لآشور باتجاه الغرب . ولعله كان يتوق إلى إعادة نفوذه ونفوذ أبيه حين قرر احتلال الجزيرة العليا ، والانتقام من الأسرة المنافسة في ماري . وساعده على تنفيذ مراده اغتيال ملك ماري يخدون ليم في ظروف غامضة نتيجة مؤامرة حكيت ضده في القصر ، يعتقد أن لشمشي أدد يداً فيها ، فاضطر ولي العهد زيمري ليم إلى الفرار مع أسرته للالتجاء إلى ملك يمحاض (يمخد) في حلب حيث أكرم الملك يريم ليم وفادته ، وزوجه ابنته . وعين شمشي أدد إبنه يسمخ أدد حاكماً على ماري ، ونائباً له فيها .

ثم حاول توسيع نفوذه إلى شمالي سورية حيث كانت تقوم مملكة يمحاض . ولكن ملكها يريم ليم كان خصماً قوياً وقادراً على الوقوف في وجهه ، والتصدي لطموحه ، إذ كانت دولته من أقوى دول الأموريين ، وتتحكم في طرق التجارة في شمالي سورية .

فلجأ شمشي أدد إلى التحايل للوصول إلى هدفه بأن صاهر ملك قطنا (الأموري) ، إذ زوج ابنه ملك ماري من ابنة ملك قطنا ، وفي نيته إحكام الحصار على مملكة يمحاض من الجنوب حيث تقع قطنا ، ومن الشرق والجنوب الشرقي حيث تمتد مملكته في الجزيرة العليا وفي ماري . كما وطدّ علاقته بملك كركميش وكسبه إلى صفه . ولكن ابنه يسمخ أدد لم يسهم في تحقيق حلم أبيه ، فأفسد عليه خطته ، لأنه لم تكن لديه رغبة في استمرار الزواج بابنة ملك قطنا . وثمة رسائل

http://www.al-maktabeh.com

كثيرة تم العثور عليها في محفوظات القصر الملكي في ماري تؤكد خلافه مع ابنه ملك ماري ، وتفصح عن نيته المبيته لكسب ملك قطنا إلى جانبه في صراعه مع ملك يمحاض ، وتلقي الأضواء على أحداث العصر ، وعلى سياسة شمشي أدد المحنكة ، ودبلوماسيته البارعة .

وقام شمشي أدد بحملات عسكرية على المنطقة الجبلية المجاورة لآشور في الشرق لتثبيت سلطانه عليها ، ولكنه توقف عند حدود مملكة إشنونا في الجنوب الشرقي على نهر ديالى ، حيث كان حريصاً على إقامة علاقات حسنة معها ، طالما كانت لاتهدد أمن بلاده . وسلك الأسلوب نفسه مع سميّه حمورابي ، ملك بابل ، الذي عاصره عشر سنوات ، كان خلالها الطرفان يتعاملان بحذر مع بعضهما ، ويتحاشيان الصدام .

لقد توصل شمشي أدد إلى إقامة مملكة واسعة بقوة شخصيته وحنكته السياسية . واستطاع أن يتحول ببراعة من هارب ، ولاجئ إلى قائد جماعات بدوية مسلحة ، ثم إلى ملك على بلاد آشور ، وإلى مؤسس لأسرة حاكمة ، ومملكة كبيرة لم تضارعها مملكة في عهده الذي اتسم بكثرة الملوك الطموحين من أشباهه . وكان شمشي أدد إدارياً ناجحاً، لايركن في إدارة المملكة الى الموظفين الثقاة فحسب ، بل حمّل ابنيه مسؤولية الإدارة المباشرة ، فعين ابنه إشمي داجان حاكماً على المنطقة الجنوبية من بلاد آشور التي كانت إكالاّتوم حاضرتها ، وكان يكلفه بقيادة الجيش والحملات العسكرية أحياناً . كما عين ابنه الثاني يسمخ أدد حاكماً على ماري ، كما ذكرنا . أما هو فكان مقره في آشور ، ولكنه كان يقيم كثيراً في مدينة شوبت إنليل التي أطلق عليها بنفسه هذا الاسم بقصد تأكيد تقديسه للإله إنليل الذي بني له كذلك معبداً كبيراً في آشور نفسها على أنقاض معبد صغير فيها . وكان يتدخل بنفسه في حل المشاكل الصغيرة والكبيرة في المملكة ، وتنبئ رسائله الكثيرة عن اهتمامه بمتابعة أوامره إلى الموظفين الإداريين ، وتوجيهاته الدقيقة إلى ابنيه[٤].

---

(٣) W. von Soden, op. cit. 26 .

(٤) أنظر للاطلاع على بعض رسائله إلى ابنه يسمخ أدد التي يقرعه فيها على تصرفاته الصبيانية في كتابنا : سورية ، ص١٥٣-١٥٤ ؛المصدر السابق ،ص٢٨-٣٢ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

تمكن شمشي أدد بساسته الحكيمة ، وإدارته الشخصية من توفير الازدهار الحضاري والاقتصادي والاستقرار لشمالي بلاد مابين النهرين طوال عهده الذي استمر حوالي ثلاثة وثلاثين عاماً . ونقل تلك المنطقة من الجمود السياسي إلى منطقة ذات شأن خطير في مجريات الأحداث ، حتى غدت أقوى مملكة في الشرق الأدنى القديم . ولكن قوة تلك المملكة ارتبطت بشخصية ملكها القوية ذاتها ، فما أن مات شمشي أدد في العام ١٧٨٢ق . م، حتى بدأت المملكة الآشورية القديمة بالانهيار ، إذ خلفه على العرش ابنه إشمي داجان الذي لم يقو على مواجهة التحديات التي جابهته ، على الرغم من خبرته الإدارية التي اكتسبها زمن والده ، وكفاءته العسكرية . فقد تمردت عليه أقاليم عدة . وبادرت إشنونا إلى اقتطاع بعض المناطق القريبة من حدودها الشمالية الغربية . كما عاد ولي العهد في ماري زيمري ليم لاسترجاع عرشه ، ولم يستطع إشمي داجان مساعدة أخيه حاكم ماري ، فلم يتبق له من أراضي المملكة غير آشور القديمة التي عادت إلى حدودها الأولى بين الزاب الأعلى والزاب الأسفل ومايجاورهما .

ولعل حكمه لآشور استمر من بعد تحت نفوذ الملك البابلي حمورابي الذي ضم آشور وشمالي بلاد الرافدين إلى سلطته ، ثم أتبعها أخيراً بماري في عام١٧٥٩ . واستمر الحكم البابلي لبلاد آشور فترة من الزمن بعد موت حمورابي عام ١٧٥٠ ق . م في عهد ابنه سمسوإيلونا ، ثم مالبثت أن انسلخت عن حكمه ، ونشأت فيها أسرة حاكمة محلية في أواخر القرن الثامن عشر ، كما تذكر قوائم الملوك الآشورية التي تعدد أسماء ملوكها الذين كانوا قليلي الشأن ، واستمرت أحوال البلاد على ضعفها وانكماشها حتى نهاية القرن السادس عشر .

٢ - العصر الآشوري الوسيط (حوالي ١٥٠٠ - ٩١١ ق.م)

وقعت آشور تحت نفوذ دولة الحوريين - الميتانيين في أواخر القرن السادس عشر قبل الميلاد على الرغم من استمرار ملوكها في الجلوس على عرشها ، إذ كانوا

http://www.al-maktabeh.com

ضعفاء ولايخرجون على طاعة الميتان . وكان الميتان قد أقاموا دولتهم في الجزيرة العليا ، حيث اتخذوا عاصمة لهم فيها تدعى واشوكاني(قرب مدينة رأس العين السورية ، وعند أحد ينابيع نهر الخابور اليوم) ، وبسطوا نفوذهم على سورية الشمالية ، وجنوب شرقي آسية الصغرى ، ومصر في عصر الدولة الحديثة حتى تصالحت مع ملكها تحوتمس الرابع(١٤١٢ - ١٤٠٢ ق .م) أما الحوريون فكانوا قد استوطنوا مناطق عدة من شمالي بلاد مابين النهرين وسورية منذ أواخر الالف الثالث قبل الميلاد ، وانتشروا في الربع الأول من الألف الثاني في منطقة نوزي (شمالي العراق وقرب مدينة كركوك اليوم) ، وقرب الموصل . وفي القرن الخامس عشر ظهرت دولتهم القوية التي تزعمتها طبقة من الآريين الذين يحملون اسم «الميتان» في الجزيرة العليا ، كما ذكرنا ، والتي سماها الآشوريون خاني جالبات ، والمصريون«أرض مثن» ، «ونهرينا»[٥] . ولكن سيطرة الميتان على آشور لم تكن دائماً قوية ، فقد رأينا أن الملك الكاشي بورنابورياش اضطر إلى تصحيح مسار حدود بابل الشمالية مع آشور في عهد ملكها بوزور آشور الثالث بعد اصطدام مسلح محتمل بينهما . ثم عمد الطرفان في عهد الملك الكاشي كارايندااش والملك الآشوري أشوربيل نيشيشو (١٤١٩-١٤١١ ق. م) إلى تسوية جديدة للحدود بين دولتيهما ، وأقسما أيماناً مغلظة عند أربابهما للالتزام بالاتفاق الذي تم بينهما . ويستخلص من هذه الاتفاقيات التي حددت مسار الحدود بين الدولة البابلية في عصر الكاشيين وبين الآشوريين أن ملوك آشور كانت لديهم السلطة الكاملة في توقيع الاتفاقيات الدولية ، وأن ميتاني لم تكن تملك آنئذ أي سيادة على آشور . كما نستنتج من هذه الأمثلة أن سيادة الميتان على آشور كانت لاتبقى على حال واحدة ، وإنما كانت تتغير بين حين وآخر ، بين مد وجزر ، بحسب قوة الدولة والملوك .

وعندما اعتلى العرش الملك آشور أوبلّط (١٣٦٥-١٣٣٠ ق.م) تحررت آشور أخيراً من السيطرة الميتانية ، إذ تلقت دولة الميتان في هذا الوقت ضربة قاصمة على يد الملك الحثي شوبيلوليوما الذي هزم ملك الميتان توشراتا ، ولم يقيض للميتان بعدها العودة إلى قوتهم ، بل بدأت دولتهم تضعف ، وتخور قواها . واتخذ آشور

---

(٥) أنظر كتابنا : سورية ، ص١١٨ ، لمزيد من المعلومات عن الحوريين الميتانيين .

مكتبة المهتدين الإسلامية

أوبلط لقب «الملك الكبير» إشارة الى استقلال آشور في عهده ، وسعيها إلى لعب دور أساسي في أحداث العصر ، فقد أقام علاقات طيبة مع مصر في عهد ملكها أمنحوتب الرابع (أخناتون ١٣٦٤-١٣٤٧ق .م) ، كما تؤكد رسالتان وجههما إليه ، مع بعض الهدايا، وطلب في الثانية منهما من الملك المصري الذهب لإكمال بناء القصر الملكي، وخاطبه بعبارة «الأخ» تأكيداً لمساواته في المنزلة .[٦] وتطلع الملك الآشوري إلى توسيع المملكة فضم إليها بعض الأراضي التابعة لدولة ميتاني الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينة نينوى ، وحقق انتصاراً على القبائل التي كانت تستوطنها . ثم التفت إلى الجنوب حيث كان بورنابورياش الثاني من قبل يعدّ آشور تابعة له، وحمله هذا على الاحتجاج لدى ملك مصر لاستقباله وفداً آشورياً لم يستأذنه في الشخوص إلى مصر لمقابلة ملكها . فأرسل آشور أوبلّط ابنته زوجة للملك الكاشي أو لابنه ، إذا انتوى المصالحة مع الملوك الكاشيين في بابل ، بل وإقامة علاقة تسودها الصداقة كرّسها بالمصاهرة ، وابتغى من ورائها التوصل الى كسب نفوذ سياسي في بابل . وقد اعتلى حفيده (من ابنته) عرش بابل ولكن حكمه كان قصيراً، لأن رجال القصر الميتانيين لم يرضوا به ملكاً عليهم ، فسعوا إلى قتله. فانتهزها آشور أوبلط فرصة للانتقام لاغتيال حفيده في بابل ، وللتدخل المباشر في شؤون بابل الداخلية ، فقاد جيشه الظافر ودخل بابل وقتل الملك الكاشي الذي عينه رجال القصر مكان حفيده ، وأجلس على العرش رجلاً ممن توسّم الخير فيه ، يدعى كوريجالزوالثاني (١٣٤٥-١٣٢٤ق .م) ابن بورنابورياش . ولكن هذا هاجم بلاد آشور بعد موت آشور أوبلط ، وتكبد خسارة فادحة في المعركة التي انتصر فيها خليفة آشور أوبلط . وكان على بابل الكاشية أن تصحح حدودها مع آشور من جديد لصالح آشور .

استطاعت القبائل الآرامية في هذه الحقبة أن تستقر في مناطق الفرات الأوسط ، وهي قبائل الأخلامو ، والسوتو ، كما تسميها المصادر الآشورية ، وأن

---

(٦) كانت الهدايا رمزية ومعبّرة : خيول لجر العربة الملكية ، وعربة ملكية ، وأحجار كريمة ، ولؤلؤة متميزة . Elena Carrin, Babylonien unter den Kassiten und das mittlere assyrische Reich, in FW, 3, S. 78 .

http://www.al-maktabeh.com

تهدد أمن الآشوريين ، وتخلق لهم المتاعب المتواصلة منذ ئذ ، وحتى سقوط دولتهم ، إذ لم تنقطع أخبارهم في الحوليات الآشورية طوال العصر الآشوري الوسيط ، وفي العصر الآشوري الحديث ، وكأنه قدر على الآشوريين أن يجابهوا الآراميين قروناً طويلة ، وقدر للآراميين أن يصمدوا في وجه الآشوريين الطغاة ، حتى تمكن فريق منهم من النيل من الدولة الآشورية الحديثة في معظم مناطقها ، كما سنرى لدى الحديث عن هذه الدولة التي أنشأها الآراميون في بابل .

سار خلفاء آشورأوبلط على سياسته في تقوية الدولة الآشورية ، وكانوا يجردون الحملات العسكرية إلى الجهات الشمالية الشرقية ، والشرقية ، لمواجهة القبائل الجبلية التي كانت تهدد أمن الآشوريين . واشتهر منهم الملك أددنراري الأول (١٣٠٧-١٢٧٥) الذي وصل إلى نهر الفرات بجيشه لأول مرة في العصر الآشوري الوسيط للإيقاع بالقبائل الآرامية التي بدأت تتعاظم قواها منذ زمن أبيه ، وتقلق الآشوريين بهجماتها المفاجئة . ثم اقتطع الملك الآشوري منطقة صغيرة من الكاشيين تقع في جنوبي البلاد وضمها إلى مملكته ، وأملى على الملك الكاشي رسم الحدود بما يتوافق وهذا الكسب الجديد لآشور . ولكن إنجازه الكبير حققه حوالي عام ١٣٠٠ ق . م عندما انتهز فرصة انشغال الحثيين بالصراع مع المصريين ، فهاجم دولة الميتان التي كانت انضوت تحت نفوذ الحثيين بعد الاضطرابات الداخلية التي ألمت بها بموت ملكها توشراتا ، ودخل عاصمتها واشوكاني ، وقاد ملكها شاتووارا أسيراً إلى آشور ، ثم أخلى سبيله لقاء جزية فرضها على الميتان . وعندما حاول هؤلاء التمرد على الحكم الآشوري بعد موت ملكهم ، عاد أدد نيراري ثانية لإخضاع عاصمة الميتانين . وتم لآشور بهمة ملكها ضم ميتاني بأسرها إلى المملكة الآشورية ، فخضعت كل المناطق الواقعة بين نهر الفرات في الغرب ، وكركميش في الشمال ، وصولاً إلى طور عبدين في الشرق. وقد ذكرت نصوصه أسماء المدن التي احتلها . وأطلق على نفسه بعد انتصاراته المتلاحقة صفة الملك«الذي طرد أعداءه كلهم في المناطق العليا والمناطق السفلى ،

مكتبة المهتدين الإسلامية

الذي داس أراضيهم جميعها بقدميه» ثم نسب إلى نفسه لقب ملك العالم «شركيشاتي» القديم(٧) .

وخلف أددنراري ابنه **شلما نصر الأول** (١٢٧٤-١٢٤٥ق .م) على عرش آشور ، وكان عليه أن يواجه في سني حكمه الأولى عدواً تذكره النصوص الآشورية للمرة الأولى ، وهو أورارتو التي سيتكرر ذكرها في القرون التالية ، وهي منطقة تقع إلى الشمال من بلاد آشور ، شرقي آسية الصغرى . وقد حقق نصراً على قبائلها بعد ثلاثة أيام من الاشتباك معها ، ثم تفرغ لإعادة خاني جالبات ، أرض الميتانيين، إلى سلطة الدولة بعدما انفصلت عنها في أيام الملك أددنراري الأخيرة . وقد تحالف ملكها الجديد مع الحثيين الذين دعموه بقوات من عندهم ، ومع الأخلامو (الآراميين)، ولكنه كبّد قوات المتحالفين خسارة فادحة ، فعادت بعدها البلاد إلى السيادة الآشورية من جديد .

ويبدو أن شلما نصر الأول اتبع أسلوباً قاسياً في معاملة الأعداء ، غدا من بعد سمة لأغلب الملوك الآشوريين . فهو يتحدث في نصوصه عن «ذبح الجنود الحثيين والآراميين كالخراف » ، وأنه «أعمى ١٤٠٠٠ من جنود الأعداء» ، وأنه «دمر ١٨٠ موضعاً وجعلها خراباً» ، وكأن إعلانه عن خسائر أعدائه الجسيمة ، وعن الفظائع التي ارتكبها ، إنذار موجه إلى كل من يحاول الوقوف في وجهه ومعاداته ، وينبغي أن يثير الذعر في نفوس الأعداد والهلع .

وفي عهد الملك **توكلتي نينورتا الأول** (١٢٤٤ -١٢٠٨ق .م) بسط الآشوريون سيادتهم على بابل في عهد ملكها كاشتلياش الرابع (الكاشي) ، وتداول السلطة فيها ثلاثة ملوك لمدة سبع سنوات تحت سيادة الآشوريين ، وقد خلد توكلتي نينورتا هذا الحدث الهام بإنشائه مدينة جديدة بالقرب من آشور ، أطلق عليها اسمه «كار توكلتي نينورتا» ، أي مدينة (أوحصن) توكلتي نينورتا . وكان عليه قبل أن يحتل بابل في العام الحادي عشر من حكمه إعادة فتح كثير من المناطق التابعة لآشور ،

---

(٧) M. B. Rowton, in : CAH, 2. Aufl . Bd. I, Kap. VI, S. 32 ff.

http://www.al-maktabeh.com

ثم تمردت عليها في بداية حكمه . وعمد الملك إلى سياسة التهجير لقطع صلة الناس المهجّرين بوطنهم ، وهي سياسة اعتمدها من قبله شلمانصر الأول . فهّجر ، كما تذكر نصوصه ، ٢٨٠٠٠ حثي من أرضهم في شمالي الجزيرة العليا إلى أرض آشور نفسها ، لقطع دابر التمرد والثورة ضد الحكم الآشوري . وقد مكنته السيطرة على بابل من مد نفوذه إلى الفرات الأوسط ، إلى منطقة خانة وماري ، وإلى «جبال الأخلامو» ، وإلى الجبال الجنوبية الشرقية من آشور ، وفرض الجزى على كل تلك المناطق التي شكلت مورداً اقتصادياً غنياً لخزينة الدولة .

وقد أشار إلى ذلك في نص له ، قال فيه : إنه «الملك الذي يتقبل الجزى من كل البلاد التي تمتد بين مشرق الشمس ومغربها .» (٨) ويبدو أن الملك الآشوري كان مولعاً بأعمال البناء ، ولعه بخوض المعارك والحروب ، إذ ينسب إليه إضافة إلى مدينته المذكورة تشييد قصرين جديدين في العاصمة ، وإعادة بناء معبد الإلهه عشتار من جديد بحيث زادت مساحته كثيراً ، وأضيفت في الداخل قاعات وصالات عديدة . وتؤكد آثار المدينة (قلعة شرقاط اليوم) أن آشور في عهد ملكها توكلتي نينورتا أمست مدينة ذات أهمية خاصة . وقد حرص الملك على إقامة الأعياد الدينية في قصره ، حيث كان يقدم بنفسه القرابين للآلهة طوال أيام محددة في الصباح وفي المساء ، حتى جعل من شخصه ملكاً لايشبهه ملك «الملوك كلهم يهربون من أمامه ..، إنه شمس كل الشعوب .. ، الإله إنليل رفعه إلى منزلة سامية كما يرفع الأب ابنه البكر..، الذي يحكم جهات الأرض الأربع إلى جانب الإله شمش ..».

لقي الملك توكلتي نينورتا الموت على يد أحد أبنائه في القصر حيث تجمع عدد من الأمراء والقادة بزعامة الابن لقتله لأسباب مجهولة ، وعادت آشور بعده إلى الضعف من جديد ، وإنكمشت على نفسها في حدودها الأولى .

استغرق الضعف زهاء قرن من الزمن ، حكم خلاله عدد من الملوك الذين استكانوا لنفوذ بابل مدة من الزمن ، وتمكن بعضهم من الاستقلال بآشور ، ولكن

---

(٨) .FW, 3, S. 86

مكتبة المهتدين الإسلامية

بابل نفسها كانت في حال لاتحسد عليها من الضعف . وقد حكم أحدهم حوالي ستة وأربعين عاماً ، وهو آشوردان (١١٧٩-١١٣٤ق .م) الذي افتتح بحكمه فترة من الحكم المستقل ، وفي هذه الأثناء سقط الحكم الكاشي على يد العيلاميين ، وبعد أن تمكنت الأسرة الثانية في إيسين من إعادة الأمور إلى نصابها في بلاد بابل، عادت العلاقات مع آشور ، فأعاد ابن آشوردان تمثال الإله مردوك إلى بابل الذي كان توكلتي نينورتا قد أسره عندما احتل بابل قبل مائة عام .

وعندما اعتلى العرش **تيجلات بيليصر** الأول (١١١٧-١٠٧٧) عاد ميزان القوى في بلاد مابين النهرين إلى الميل لصالح آشور من جديد ، إذ تغيرت الأحوال في الشرق القديم ، فقد زالت دولة الحثيين قبل حوالي مائة سنة ، وحلت محلها أقوام غريبة في آسية الصغرى ، ومنهم الموشكي الذين ينتمون إلى شعوب تراقية - فريجية ، وكانوا لايهدأون أو يستقرون في مكان ، مما خلق أجواء من الاضطراب والقلق في تلك المناطق ، وهدد أمن الآشوريين . فبادر تيجلات بيليصر منذ العام الأول لوصوله إلى الحكم إلى الزحف بجيشه ، بعد أن هيأه للمعركة الفاصلة ضد تلك الأقوام الغريبة ، وتمكن من دحرها وكسر شوكتها برغم أعدادها الكبيرة، وجعل «دماء صرعاها تسيل من ذرى الجبال إلى الوديان.. وجعل من جماجم مقاتليهم كومات تشبه كومات الحبوب خارج المدن ..» ، كما تذكر نصوصه التي تعبر عن قساوة تعامله ، وصرامته الشديدة . ثم توسع في حملاته العسكرية التي قادها في الشمال والشمال الغربي حيث كانت تقوم الدولة الحثية . «وحيث كانت عرباته الحربية لاتستطيع التحرك لوعورة الأرض وكثرة الجبال ، كان مقاتلوه يتابعون السير على الأقدام». وعمد إلى سياسة التهجير التي اتبعها شلمانصر الأول ، وتوكلتي نينورتا لاستئصال نزعة المقاومة عند الشعوب المهزومة ، كما كان يضم إلى صفوف جيشه المقاتلين من القبائل ليزيد من أعداد جنده ، ويعوض بهم خسائره من المحاربين الآشوريين . ولكن حديثه عن الانتصارات الساحقة ، والمعارك المظفرة ، وقضائه على الأعداء ، لم يكن يعني خضوع المناطق خضوعاً دائماً ، وإنما كانت المقاومة تعود في تلك المناطق من جديد ، وكان على الجيش الآشوري أن يحارب في المكان نفسه مرات عدة . ويبدو أن سياسته كانت ترمي إلى الاستيلاء

http://www.al-maktabeh.com

على المناطق البعيدة ، وإرهاب سكان تلك المناطق ، كي يضمن بقاء المناطق القريبة تحت السيطرة .

وانفسخ مجال التوسع الآشوري في سورية أيضاً إذ غاب النفوذ المصري المباشرفيها بعد أن انتهى عصر الدولة الحديثة وملوكها الفاتحين الكبار ، وانشغلت بنفسها بعد ما عانت من تهديد شعوب البحر ، كما زالت الدولة الحثية ،فعبر تيجلات بيليصر نهر الفرات بعد أن هاجم الأخلامو(الآراميين) في أرض سوخي الذين كانوا ينتشرون بين كركميش في الشمال وخانة (عانة اليوم) في الجنوب ؛ وبلغت هجماته عليهم ، كما تقول نصوصه ثماني وعشرين مرة ، وقتل وأسرمنهم الآلاف ، وحرق ودمر مدناً كثيرة ، واحتل ست مدن في منطقة تدمر وجبل البشري . ثم عبر الفرات مرة ثانية في العام نفسه إلى أرض أمورو في سورية ، وتلقى الجزى من المدن الفينيقية جبيل وصيدا وأرواد ، وجلب الأخشاب من لبنان . ولاينسى أن يذكر أنواع الحيوانات الغريبة التي أتى بها إلى بلاده ، من قرود ، وفرس البحر ، وأسماك اصطادها بنفسه ، وقطعان من الماعز الجبلي ، ونباتات جديدة لتزرع في حدائق القصر . ووصل جيشه إلى أرض نابيري الواقعة إلى الشمال من آشور عند بحيرة فان، وتابع الغزو إلى الشمال الغربي حيث حاولت قوات الأعداء التصدي له ، ولكنه فرق شملهم وطاردهم حتى بحيرة فان ، وغنم منهم مائة وعشرين عربة حربية، وأسر قادتهم وعاد بهم إلى العاصمة ، بعد أن فرض على السكان الجزية وأن يسلموه ١٠٠كغ من الرصاص سنوياً ، وأجبر أمراءها الثلاثين على أن يسجدوا لدى قدميه ، واحتجز أبناءهم رهائن لديه .

ويخلص تيجلات بيليصر إلى القول إنه أخضع اثنين وأربعين شعباً ، وحارب ستين ملكاً ، وانتصر عليهم جميعاً . ولاتخلو حولياته من ادعاء واضح في عدد الشعوب التي أخضعها ، ومن مبالغة في عدد الملوك ، إذ يستخلص من ذكره الآراميين وحروبه المتكررة معهم أن معاركه لم تكن حاسمة دائماً ، ولعله كان يقصد بالشعوب وملوكها المدن التي أخضعها ، والقبائل التي هاجمها . ولكن أخباره عن الآراميين تؤكد كذلك أنهم كانوا يخلقون المتاعب للآشوريين في عهده على طول نهر الفرات والمناطق المجاورة ، من كركميش في الشمال إلى بابل في الجنوب .

مكتبة المهتدين الإسلامية

كما توجه بجيشه إلى بابل في عهد ملكها ماردوك نادين أخي ، خليفة نبوخذ نصر الأول ، في العام الثلاثين من حكمه ، واشتبك معه عند جبل حمرين . وكان عليه أن يعيد الكرة في حملة ثانية حتى ينجح في احتلال عدد من مدن بابل الشمالية ، وحرق القصر الملكي في دوركوريجالزو ، ولكن بابل لم تستلم للآشوريين، إلا بعد حملتين أخريين .

القوانين الآشورية

لم يكن تيجلات بيليصر محارباً لايضارع في نشاطه العسكري المتواصل ، بل ارتبط اسمه أيضاً بنشاط ثقافي هام ظهر في عهده ذي صلة بنسخ وتنظيم الأعمال الأدبية والتشريعية الآشورية . فقد تم في عهده جمع عدد من القوانين الآشورية والمراسيم الملكية التي يبدو أنها صدرت في أوقات مختلفة بين القرن الخامس عشر والقرن الثاني عشر ، ودونت على ألواح طينية ، تلقي الضوء على وضع المجتمع الآشوري في العصر الوسيط . وتتناول هذه القوانين موضوعات اقتصادية ، واجتماعية ، وتحدد العقوبات على الجناة والمجرمين ، واللصوص ، والتعويض عن الأضرار المادية والجسدية . كما تبين حقوق المواطنين في استثمار الأرض والماء ، وحق أفراد الأسرة في الميراث ، والزواج ، وحق العبيد وعبودية الدين[٩] .

ومن تجديدات القوانين الآشورية أنها أفادت من العقوبات العامة والخاصة لصالح الدولة، فضمنتها تسخير المذنبين في أعمال الملك (أي في مشاريع الدولة)[١٠] وخصت النساء بعدد كبير من المواد ، وقست على سيئات السلوك منهن : فقضت بأن لزوجها حق تشويه أذنيها إذا سرقته وهو مريض ، أو العفو عنها إذا شاء، وحرية افتدائها إذا سرقت شيئاً ذا قيمة من بيت الجار، أو التخلي عنها ليشوه

---

(٩) أنظر التفصيل في : عيد مرعي، قوانين بلاد ما بين النهرين، ص ١١٣-١٣٧.

(١٠) المادة ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٤٠ من اللوح آ .

http://www.al-maktabeh.com

المسروق أنفها بنفسه . وقضت على من تجهض نفسها بإعدامها على الخازوق .
وجعلت القوانين للزوج ولاية كاملة على زوجته ، وسمحت له أن يعفو عنها إن أخطأت في حقه ، أو يطبق عليها بنفسه العقوبات الجسدية التي فرضها القانون بحسب حالتها . فإذا كانت تلك العقوبات مما يتسبب في عاهات دائمة مثل فقء العين ، أو صلم الأذنين ، نفذها أمام القضاة . وإذا هجرته وآوت إلى بيت رجل آخر، حق له أن يشوه أذنيها أو يعفو عنها . ويجوز له أن يطالب بصلم أذني من آوتها ، وتغريم زوجها . واعتبرت الزوجة متضامنة مع زوجها في ديونه وأخطائه وجرائمه، واعتبرت ثروة أحدهما ثروة للآخر.

وأصرت التشريعات على خروج الحرائر محجبات من الرأس إلى القدم. وأعفت من الحجاب الكاهنات اللاتي وهبن عفافهن للمعبد ولم يتزوجن. وحرمته على الإماء والعاهرات، وإذا استخدمنه جردن من ثيابهن وضربن بالعصا وصب القار على رؤوسهن. وقضت بقطع إصبع من يربت على خد أنثى متزوجة، وقطع شفته السفلى إن قبلها، وبالإعدام على من اغتصب امرأة متزوجة، وبإعدامها معاً إن رضيت بما فعله معها. كما قضت بإعدام القوادة إن دفعت امرأة إلى الفسق رغماً عنها. وحرصت القوانين على سمعة المحصنات، وكافحت اللواط بشدة.

ولم تهمل القوانين جانب الأرباب، فقضت على من تثبت عليه النية بالتجديف وسب المعبد بالضرب أربعين عصا، وعلى من يتهم آخر بالخطيئة ويعجز عن إثباتها عليه، بالعقاب نفسه مع تسخيره في أعمال الملك شهراً.

وأقرت التشريعات جواز رهن أفراد الأسرة في دين، ولكنها حرمت على الدائن أن يزوج ابنة مدينة الرهينة دون موافقة أبيها.

كما عالجت شؤون البيوع العقارية، والمواريث ، والإيجارات والعمل.

ويتبين من القوانين الآشورية أنها فرقت في التعبير عن "الأحرار" بين لفظة "سيد" ولفظة "آشوري" ، وجعلت للسيد مكانة أرفع من "الآشوري" ، وكأنها كانت تميز بين السيد الحاكم والمواطن الآشوري.

مكتبة المهتدين الإسلامية

نهاية العصر الاشوري الوسيط

عادت آشور إلى حالها من الضعف بعد اغتيال تيجلات بيليصر الأول الذي ارتبطت قوة الدولة بشخصيته القوية. ويبدو أن توسع الدولة في عهده الذي وصل إلى سورية بخاصة كان طفرة سابقة لأوانها، ولكنه يوحي لخلفائه في العصر الآشوري الحديث باحتلال سورية في المستقبل وحين تتوافر الظروف والإمكانات المناسبة. أما خلفاؤه الأقربون فلم ينجحوا بالاحتفاظ بالمناطق التي وصل إليها تيجلات بيليصر ، بل بدأت الأقاليم الواقعة على الأطراف تنفصل الواحدة بعد الأخرى.

وظهرت الإمارات الآرامية في سورية، وفي شمال بلاد مابين النهرين، ومنها بيت عديني التي اتخذت مدينة برسيب (تل الأحمر اليوم بين الفرات والبليخ) ، وبيت بحياني ومركزها جوزانا (تل حلف)، وفدان آرام ، ومركزها حران. وبيت زماني عند المجرى العلوي لنهر دجلة. كما قامت إمارات لهم على الفرات الأوسط، وفي بلاد بابل بيت داكوري ، وبيت أموكاني. وما عاد بوسع الآشوريين أن يوقفوا نمو تلك الإمارات، ولامحاربتها بعدما ألم بهم الضعف، بل انكمشوا على أنفسهم وعادوا إلى حدودهم الأولى إلى حين.

٣ - العصر الآشوري الحديث (٩١٢ - ٦١٢ ق.م)

بلغ الآشوريون في هذا العصر من القوة العسكرية مامكّنهم من أن يبسطوا سيطرتهم على منطقة الشرق الأدنى القديم طوال ثلاثة قرون، وأن يشكلوا امبراطورية كبرى لم تشهد اتساعها المنطقة من قبل. وساعد على قيام امبراطوريتهم أن أغلب شعوب الشرق القديم ولاسيما مصر وبابل وعيلام قد بلغت دور شيخوختها ، وأن الجماعات الجديدة ، ومنهاالآراميين ، لم تجتمع كلمتها وتلم شملها ، بل بقيت على تفرقها ، فانفسح السبيل أمام الاشوريين ليصولوا ويجولوا في الشرق القديم من دون أن يخافوا مجابهة قوة توقفهم ، وتحد من طموحات ملوكهم . واستخدم الجيش الآشوري في هذا العصر أسلحة حديدية فتاكة ، وآلات

http://www.al-maktabeh.com

الحصار الضخمة ، والعربات الحربية ، وغيرها من العتاد الحربي الذي لم يعرفه العالم القديم من قبل ، فسهل عليه حسم المعارك لصالحه، والتفوق في القتال، ولم يتخل الملوك الآشوريون عن استخدام القسوة وارتكاب أنواع مختلفة من أعمال التنكيل والإرهاب في صفوف الأعداء ، مماسنذكره لدى الحديث عن أشهر ملوكهم .

شهد العصر الآشوري الحديث ، أو عصر التوسع الآشوري الكبير ، كما يدعى ، دورين من أدوار القوة والازدهار والتوسع توسطتهما فترة ركود .

آ - **الدور الأول** : وبدأ بوصول الملك **أددنراري الثاني**(٩١٢-٨٩١ق . م) إلى الحكم ، فتابع حملات أبيه أشوردان الأولى ضد الآراميين الذين كانوا لايألون جهداً في سبيل توسيع إماراتهم ، وقد لمسوا من ضعف آشور التي كافحتهم من قبل ، ماشجعهم على تثبيت دويلاتهم حول منطقة آشور نفسها . فعمل أددنراري على ترسيخ حكمه ، أولاً ، ثم استرجاع الإشراف الفعلي على المناطق الغربية في الجزيرة العليا حتى نهر الخابور وينابيعه التي تشكل الامتداد الطبيعي لبلاد آشور ، ولردع الآراميين عن متابعة محاولاتهم في إقامة الدويلات . ثم توجه إلى تأمين حدود البلاد في الجنوب ، واشتبك مع الملك البابلي مرتين ، وأجبره على تعديل مسار الحدود بين الطرفين لصالح آشور التي وصلت سيادتها حتى مقربة من بغداد اليوم. فاتسعت مساحة المملكة الآشورية حتى صارت تشتمل على آشور الأصلية مع مايجاورها في الشمال حتى أرمينية ، ومايجاورها في الغرب حتى الخابور ، وعلى المنطقة الوسطى من بلاد مابين النهرين بكاملها . كما هاجم المناطق الجبلية الشرقية ، ووصل حتى أرابخا (كركوك اليوم) وفرض نفوذه عليها ، وسعى إلى قهر سكان ناييري عند مجرى نهري الفرات ودجلة الأعلى أربع مرات متتالية . وفرض الجزية على منطقة سوخي الواقعة على الفرات الأوسط ، ومنها مدينة هيت ، وكان غرضه إيقاف هجمات الآراميين البدو الذين كانوا يتعرضون لطريق التجارة ويقلقون أمن المنطقة . وهاجم أيضاً دويلة للآراميين تقع إلى الشمال من مدينة نصيبين تدعى خوزيرينا وأسر ملكها ، وضم منطقة خاني جالبات كلها إلى ملكه بعد أن حقق نصراً حاسماً على آخر معقل فيها وهو نصيبين ، فأطلق على نفسه لقب«ملك العالم (شركيشاتي)» القديم .

مكتبة المهتدين الإسلامية

وعندما خلفه ابنه توكلتي نينورتا الثاني (٨٩١-٨٨٤) تابع سيرته الحربية ، وبالهمة نفسها ، فقاد حملة عسكرية ضد نايري ليحافظ على سيطرة آشور فيها ، وأخضع دويلة بيت زماني الآرامية فاحتل عاصمتها آمد(دياربكر اليوم) ، وجارتها تيدو(ماردين اليوم) .وأتبعها بهجوم على الجبال الشرقية لتأكيد السيادة الآشورية حتى أربيل ، وعلى الجبال الشمالية حتى غربي بحيرة فان . وشدد قبضة آشور على خاني جالبات والجزيرة العليا بعد حملة عسكرية سلكت طريقاً طويلاً باتجاه الجنوب في بدايتها عبر وادي العظيم على طول نهر دجلة حيث هاجم قبيلة آرامية كانت تحط رحالها ثمة ، ثم تابع السير عبر دوركوريجالزو(عقر قوف) ، ومدينة سيبار . وتلقى الجزية في هيت وعانة في منطقة سوخي الآرامية ، حتى وصل إلى الخابور حيث ضم دويلة حران الآرامية إلى مملكته ، ووصل أخيراً إلى نصيبين وخوزيرينا الآراميتين . وبعد أن اطمأن إلى تثبيت الحكم الآشوري في الجزيرة العليا وخاني جالبات شاد قصراً له في كخت (تل بري اليوم الواقع على رافد الخابور جفجغ) .

وحرص الملوك الآشوريون كلهم في العصر الآشوري الحديث بعد توكلتي نينورتا الثاني على توطيد سلطان الدولة على حدودها الغربية ، وإرهاب بابل من حين إلى آخر ، وإخضاع القبائل الجبلية في الشرق والشمال الشرقي ، وإضعاف الآراميين حيثما قامت دويلاتهم ، ثم السيطرة الكاملة على الطرق التجارية في سورية ، وعلى الإفادة من واردات المدن الساحلية الفينيقية ، حتى غدت هذه السياسة سنة اتبعها الملوك الكبار ونفذوها بكل ما أوتوا من قوة ، وبما أتيح لهم من إمكانات وظروف ملائمة .

كان عهد آشور ناصر بال الثاني(٨٨٣-٨٥٨ق . م) واحداً من العهودالتي وصلت فيها الدولة الآشورية إلى ذروة القوة . وقد وصلنا منه مخلفات مادية ، من

---

(١١) R. Labat, Assyrien und seine Nachbar länder, in : FW, 4, S. 15 ; G. Dossin, Annles arch. de Syrie 11 - 12 (1961 - 62) , S. 197 - 206 ; D. Lcukenbill, ARAB (1927), p. 128 ff.

http://www.al-maktabeh.com

نصوص وتماثيل وصور جدارية ، قدمت لنا معلومات عن عهده الذي اتسم بكثرة الحملات العسكرية ، والمعارك الحربية التي خاضها ، حتى وصل إلى فتوحات جديدة في سورية ، وإلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، حيث غمس أسلحته فيه وتلقى الجزى من الموانئ الفينيقية : صور وصيدا وجبيل ، وأرواد. وجلب أخشاب الأرز والصنوبر من جبال الأمانوس لمعابد سين وشمش ، ولاستخدامها في قصره .

وقد أفاض في التعبير في حولياته عن حيويته ، ونشاطه العسكري ، وعن تفاصيل تحركاته . وكان من وجهة نظر المصالح الآشورية أعظم شخصية ضارية وضاربة . فقد ورث عن أبيه جيشاً قوياً ، ومدرباً ، ومجهزاً بأحداث أسلحة العصر، وأدوات الحصار الناجعة . ومنها مايدعى باسم الكباش أو الثيران التي تقوم مقام الدبابات ، إذ كانت ذات ست عجلات ورأس مدبب ، وكانت تدفع بقوة لتنقب الحصون وتدكها . وأخرى تقوم مقام العربات المصفحة التي كان الجنود يختبئون في داخلها وقد غطيت بالجلود السميكة ، ويقتربون بها من الأسوار وهم في مأمن من سهام العدو وحرابه . وأبراج متنقلة يستقلها المقاتلون، ويقتربون بها أيضاً من الأسوار ليكونوا على مستواها أو أعلى منها بقليل ، وقد زُوِّدت بما يشبه الخراطيم الإطفاء النيران التي قد يصبها العدو على آلات الحصار(١٢) .

ومن الترتيبات الجديدة التي أدخلها آشورناصربال على الجيش اصطحاب التجهيزات اللازمة لنصب خيام مقر القيادة ، ومعسكر الجنود الميداني . فقد تغير أسلوب القتال والحصار في بداية الألف الأول قبل الميلاد . فأسلحة الجيش تطورت، كما رأينا ، ودخلت معدات ثقيلة إلى ساحة المعركة تشبه الدبابات والمصفحات وتؤدي الغرض نفسه ، وأدوات الحصار المتنوعة . وتذكر النصوص للمرة الأولى حصار المدن الذي كان يستغرق مدة طويلة ، ومعنى ذلك أن الجيش المحاصر كان بحاجة إلى معسكر يستريح فيه ، ويجد المؤونة اللازمة ، وإلى إيداع الغنائم مؤقتاً ، أو طالما كانت المعارك مستمرة . وكانت المدن المحتلة المدمرة تقوم مقام المعسكر المتنقل أحياناً . وصار الجيش يعتمد على كتائب خاصة من القوات التي كانت تقوم

---

(١٢) عبدالعزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ٥١٥ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

بمهمة الاستطلاع الضروري ، كي لايقع الجيش الرئيس في كمائن العدو . فغدت مجموعة من الفرسان تسبق الجيش وتتقدمه بمسافات محددة، وأخرى تسير خلفه لتأمين الحماية الضرورية . وغدت أطقم العربات الحربية تتألف من ثلاثة رجال بدلاً واحد أو اثنين على الأغلب ، وتجرها ثلاثة خيول بدلاً من حصانين أيضاً .

واعتمد آشور ناصربال مايدعى اليوم بالحرب النفسية ، فقد شعر الآشوريون بمعنى الإرهاب ، وذاقوا في بلدهم طعم الخوف من الأجانب عندما كان الضعف يستبد بهم ، ويقعون تحت احتلال الغرباء ، فأرادوا الإفادة من هذه التجربة الصعبة ، وتطبيقها على الشعوب التي احتلوا أراضيها . ولكن هذا لايعني أنهم كانوا يدمرون المدن ، ويحرقونها ، حتى وإن استسلم أهلها، أو اقتنعوا بدفع الجزية والاعتراف بسيطرة الآشوريين . بل كانوا يعمدون إلى استخدام الأساليب الوحشية عندما يتمرد قوم ، ويعلنون العصيان المسلح . ففي هذه الحال كان الملك الآشوري الذي يقود الجيش بنفسه يأمر بسلخ جلود زعماء الأعداء الكبار أحياء ، وتثبيتها على أبواب مدنهم ، وبتعذيب بعضهم على الخوازيق ، وبقطع أيديهم ، وبجدع أنوف الآخرين ، أو بصلم آذانهم ، وفقء أعينهم[١٣] . وكان آشور ناصربال ومن خلفه يتباهى بفعله الشنيع ، ويعلن تأييد أربابه ومؤازرتهم له في حروبه وانتصاراته ، ويقدم لهم القرابين في مناسبات كثيرة. ولكن الحقيقة أن الملك الآشوري إنما كان يهدف من هذه الأقاويل إلى إظهار نفسه وجنده أمام شعبه ، وأمام الآخرين بمظهر القوي والقاسي الذي لايرحم العدو والمتمرد والثائر ، وليكون هذا عبرة للآخرين حتى لايفكروا بالتمرد والعصيان ، وإلاعرضوا أنفسهم لتلك العقوبات القظيعة . ففي تلك النصوص مبالغات مقصودة ولاتمت إلى الواقع بصلة ، باستثناء بعض الحالات الاضطرارية .

وينم تمثال له تم العثور عليه في كالخ عن شخصيته الصارمة ، وإرادته القوية ، في وقفته المتصلبة ، ورأسه الشامخ، وملامح وجهه الحادة ، وعينيه البراقتين ، وأنفه الذي يشبه أنف الصقر . وقد كان في الواقع ، كما يعبر في نصوصه رجلاً طموحاً ، يقاتل من دون كلل للوصول إلى تحقيق أهدافه التي كان

---

(١٣) W. von Soden, Herrscher im alten Orient, S. 80 .

http://www.al-maktabeh.com

يخطط لها بدقة ، فكان سياسياً محنكاً ، ويمتلك أفقاً واسعاً ، ورؤية واضحة لما يريد الوصول إليه . وقد مكنته هذه المؤهلات من إحكام السيطرة على ماتم احتلاله في زمن أسلافه القريبين ، وزاد عليه مناطق جديدة ، كما ذكرنا . ولكن كان عليه أن يقهر بعض الحكام الآراميين في منطقة الفرات الأوسط ، حتى يهرع الآخرون إلى العاصمة نينوى لدفع ماعليهم من جزية . كما قاد حملة على بلاد ناييري وجبل طورعبدين ، وخلف فيها حاميات آشورية للمراقبة . وعاد في عام ٨٧٨ إلى الفرات الأوسط، وأخمد تمرداً آرامياً كانت وراءه دويلة بيت عديني ، فاحتل بعض مدنها ، وبنى حصنين له على نهر الفرات بين البليخ والخابور : كارآشور ناصر بال على الضفة الشرقية، ونباتري آشور على الضفة الغربية (ربما مكان حلبية وزلبية اليوم بين الرقة ودير الزور السوريتين)(١٤).

واعتمد آشور ناصربال في سياسته الحربية خطة عملية لتحرك قواته في الوقت المناسب ، بعدما اتسعت المناطق المحتلة ، وبعدت المسافات بين أطراف الدولة وعاصمتها ، بأن أسس قواعد عسكرية في بعض تلك المناطق الحساسة ، فأقام قاعدة في منطقة طور عبدين ونابيري ، كما أنشأ قاعدة أخرى في الجبال الشرقية حيث رمم مدينة أراكدي الخربة في زاجروس وأعطاها اسماً جديداً توكلتي آشور - أصبات، وجعل من مدينة قديمة أخرى تدعى أتليلا مركزاً للجيش ومستودعاً للعتاد والأسلحة، ودعاها باسم دور -آشور.

لم يكن لحملات آشور ناصر بال هدف سياسي فحسب، بل كانت في معظمها ذات أهداف اقتصادية . فقد وفرت حملاته، ولاسيما إلى المناطق البعيدة ، مواد هامة مثل الذهب والفضة، والمواد الأولية ، والمصنعة ، والبقر ، والخيول ، ومختلف الأصناف الغذائية ، والأخشاب . وأمنت اليد العاملة عن طريق الأسرى . وقد ساعدته هذه الموارد الضخمة على تنفيذ مشاريعه العمرانية ، ومنها بناء عاصمة جديدة دعيت باسم كالح (نمرود اليوم) عند مصب نهر الزاب الكبير في دجلة ، حيث احتلت المثلث الواقع بين النهرين ، بعدما أقام السنوات الخمس الأولى

R. Labat, op. cit. p. 26 . (١٤)

مكتبة المهتدين الإسلامية

في نينوى التي جدد فيها معبدي آشور وإشتار. وشاد في كالخ قصراً كبيراً ،هو القصر الاشوري الاول الذي تم التنقيب فيه ، بدأً من عام ١٨٤٥ م ،ويعد أفضل القصور الاشورية التي احتفظت بمعالمها العامة .



تمثال ثورمجنح من قصر أشورناصربال في كالخ

أفاد شلما نصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م) من جهود أبيه آشورناصربال الحربية ، وأثبت أنه كان جديراً بوراثة العرش وتحمل تبعاته الخطيرة . فهو لم

http://www.al-maktabeh.com

يحافظ على الامبراطورية الواسعة التي خلفها أبوه ، بل سعى إلى توسيع حدودها ، حتى أمست تضم جميع المناطق الممتدة من إيران في الشرق إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط في الغرب ، ومن جبال أرمينية في الشمال ومنابع الفرات ودجلة في آسية الصغرى إلى الخليج العربي في الجنوب . ولم يكن اعتزازه بقوته أقل من أبيه ، فقد وصفته نصوصه بالأفعوان الكبير، وهي صفة كانت خاصة بالأرباب ، وانتحلها الملك حمورابي من قبل وبعض الملوك الآشوريين ، كما يقول عن نفسه أنه طحن أعداءه جميعاً كما لو كانوا من صلصال .

كان شلمانصر الثالث محارباً مثل أبيه ، وقاد الجيش الآشوري القوي طوال سبعة وعشرين عاماً بنفسه خارج حدود البلاد . وعندما تقدمت به السن ، وصار شيخاً كبيراً سلّم قيادة الجيش لأكبر ضباطه ديّان آشور ، صاحب لقب«تورتان» وذلك بدءاً من عام ٨٣٢ ، وكان قد عبر نهر الفرات خمساً وعشرين مرة ، وتجاوز جبال الأمانوس سبع مرات ، واجتاح كيليكيا أربع مرات ، وأخضع مناطق وشعوباً في الشمال والشرق لم يسمع بها أسلافه من قبل ، كما تنص حولياته .

كان اهتمام شلما نصر الثالث ينصب منذ السنة الأولى لاعتلائه العرش على الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط وضم سورية إلى الحكم الآشوري ، بعد أن نجح والده آشورناصربال في قهر سكان شمالي سورية ، وغزو الساحل والمدن الفينيقية . فأعاد شلمانصر سيرة أبيه ، واخترق سورية حتى وصل إلى البحر المتوسط«بحر غروب الشمس» كما يدعوه ، وغمس أسلحته في مياهه ثم صعد إلى جبل الأمانوس حيث قطع أشجار الأرز والصنوبر وقفل راجعاً . وهاجم في طريق العودة عدداً من المدن الآرامية ، ومنها بيت آجوشي ، وكركميش ، وبيت عديني . وقرر حينئذ القضاء على مملكة بيت عديني والتخلص من مضايقاتها لحركة الآشوريين ، إذ كانت تتحكم في المنطقة الواقعة على نهر الفرات عند ثنيته بين كركميش (جرابلس اليوم) والرقة ، وتتخذ مدينة برسيب (تل أحمراليوم) عاصمة لها . فعاد في السنة التالية لاحتلالها ، ولكن المدينة صمدت أمام حصاره ، فاحتل عدداً من المدن الصغيرة القريبة ، وعبر الفرات وجمع الجزى من الدويلات الأخرى . ولكن شلمانصرعاد في العام التالي مصمماً على دخول برسيب ، وتم له ذلك إذ

مكتبة المهتدين الإسلامية

هرب ملكها أخوني عندما سمع باقتراب الجيش الآشوري . ثم عاود شلمانصر الكرة ليقضي على مقاومة بيت عديني ويضع حداً لحكم أخوني ، فتمكن منه وأخذه أسيراً، ومعه حوالي اثنين وعشرين ألفاً من أتباعه ، وغيّر اسم المدينة إلى «دورشلمانصر» ، بمعنى «حصن شلمانصر» ، وأسكن فيها جماعات من الآشوريين، وضمها إلى إقليم حران . وغدا بذلك الطريق مفتوحاً إلى كركميش وشمالي سورية، لاتعترضه العوائق .

وكان شلمانصر قد اجتاح منطقة بحيرة فان في الأشهر الأولى لحكمه ليضمن تقدمه إلى سورية . ثم عاد مرة ثانية إلى المنطقة بعد احتلال برسيب ، وتغلغل في قلب أراضي أرمينية ، ثم التفت ثانية إلى بحيرة فان حيث انتصر على ملك أورارتو قبل أن يعود إلى آشور . وفي عام ٨٥٤ قاد حملة عسكرية إلى منطقة طور عبدين للمرة الخامسة ، وسبقتها حملة إلى الشرق من آشور كان الغرض منها ومن سابقاتها تأمين الحدود الشمالية والشرقية قبل أن يصرف جهده الرئيس لاحتلال سورية .

وفي عام ٨٥٣ ق .م خرج شلمانصر الثالث من نينوى متجهاً إلى الغرب . ثم عبر نهر الفرات وتلقى الجزى من الأمراء الحثيين الجدد ، وقدّم القرابين للإله حدد في خالمان (حلب) تعبيراً عن تبعية البلاد لحكمه . ولكن الحكام السوريين كانوا قد تهيأوا للدفاع عن بلادهم ، ولمّوا شملهم في تحالف جمع بين ملوك أكبر المدن ، بزعامة ملك دمشق الآرامي برعذري (برحدد الثاني في كتاب العهد القديم) ، فالتقى الجيشان عند مدينة قرقر الواقعة إلى الشمال من مدينة حماة على نهر العاصي . ويصف شلمانصر الطريق الى المعركة ، وسير المعركة ، إذ يقول في حولياته :«سرت بمحاذاة البليخ ، عبرت الفرات عند فيضانه . تسلمت جزية من ملك خاتي(في كركميش) . سرت من بلاد خاتي ضد مدينة خالمان(حلب) . قد مت القرابين أمام الإله أدد حلب . سرت من حلب واقتربت من قرقر . برعذري من دمشق ، إرخوليني من بلاد أماتو (حماة) ، وإثناعشر ملكاً من شاطئ البحر (الأبيض المتوسط، من فينيقية وفلسطين) ساروا ضدي معتمدين على قواتهم . فاشتبكت معهم ، وأرديت خمسة وعشرين ألفاً من محاربيهم بالسلاح ، وسلبتهم

http://www.al-maktabeh.com

عرباتهم الحربية وخيولهم وعتادهم الحربي . ولكي ينجوا بحياتهم ولّوا هاربين» .
ويقول في تقرير آخر عن المعركة :«قرقر ، عاصمته الملكية ، أنا خربتها ، أنا دمرتها، أنا حرقتها بالنار، ١٢٠٠ مركبة ١٢٠٠ فارس ، ٢٠٠٠٠ جندي لأدد عذري صاحب آرام ... وألف جمل لجندب العربي .. هؤلاء الملوك الاثناعشر الذين استقدمهم لمعونته برزوا إلى المعركة والقتال ، تألبوا علي ..» فأوقعت بهم الهزيمة ، وذبحت ألفاً وأربعمائة من جنودهم بالسيف ، وانحططت عليهم انحطاط أدد حين يرسل عواصفه مدراراً ، وبعثرت جثثهم (في كل مكان) ، وملأت السهل كله بهم ، وأجريت دماءهم ... وضاق السهل عن نزول أرواحهم (إلى العالم السفلي) .. وجعلت جثثهم معبراً لي على نهر العاصي..»

وعلى الرغم من هذه التفصيلات وغيرها مما كتبه رجال شلما نصر وحوروا فيها عن معركة قرقر ، فإن المعركة لم تنته كما صوروها ، ولم يحسم شلمانصر الحرب مع الآراميين في سورية في هذه المعركة التي سجل الآراميون عنها وجهة نظرهم ، وأكدوا فيما سجلوه أنهم أحرزوا فيها نصراً كبيراً . ويبدو أن الحلف الذي قام بين الحكام السوريين لم يكن الحلف الوحيد الذي نجح الآراميون في تكوينه على الرغم من انسلاخ الإسرائيلي أحاب . فقد تحدثت النصوص الآشورية عن تحالف حدد عذري مع أمير حماة واثنى عشر ملكاً نسبتهم إلى ساحل البحر حيناً ، وإلى ساحل البحر الأعلى حيناً آخر ، والبحر الأسفل ، وضمت إليهم ملوك خاتي مرة ثالثة ، ثم جعلتهم خمسة عشر ملكاً مرة رابعة . وبالغ الكتبة في تضخيم خسائر الأعداء . وذكروا أن عرباتهم بلغت ٤٠٠٠ ، و٢٠٠٠ فارس ، وأكثر من ٦٠ ألفاً من الجنود المشاة ، و١٠٠٠ عربي كانوا يقاتلون على الجمال بزعامة جندب ، وهذه أول مرة يرد فيها ذكر العرب في معارك الآشوريين مع الشعوب الأخرى . ثم أضاف الكتبة أن شلما نصر توجه إلى البحر المتوسط بعد المعركة ، وركب سفينة أقلته فوق أمواج البحر . ولكن هذه الرواية وضعت ، كما يبدو ، لتأكيد انتصاره والتغطية على فشله الحقيقي . إذ أنه عاد بعدها إلى آشور ، فأقام فيها ثلاث سنوات متتالية حتى فكر بالعودة إلى سورية مرة أخرى . ففي عام ٨٤٩ هاجم سورية من جديد ، ولكن بر حدد الآرامي استطاع صد الهجوم بالتعاون مع حلفائه. وفي عام ٨٤٨ أعاد شلمنصر الكرة ، ولقي النتيجة نفسها وإن ذكر في نصوصه أنه

مكتبة المهتدين الإسلامية

قتل عشرة آلاف من محاربي خصومه. ثم انشغل الملك الآشوري بحروب في أماكن أخرى . ولكنه عاد في العام ٨٤٥ هو يقود جيشاً بلغ تعداده ١٢٠ ألفاً ، وفي نيته تحقيق نصر حاسم على التحالف السوري ، غير أن مسعاه باء بالفشل أيضاً على الرغم من الخسائر الهائلة التي تكبدها الطرفان . فقرر الانتظار عدة سنوات أخرى، حتى العام الثامن عشر من حكمه في العام ٨٤١ إذ وافته الفرصة الملائمة بموت برحدد ، ملك دمشق وزعيم التحالف الصامد الذي مات اغتيالاً ، وحل محله حزائيل . فهاجم شلمنصر مملكة دمشق ، غير أنه لقي مقاومة عنيفة من الجيش الآرامي الذي تحصن عند جبل حرمون ، وتمكن من صد هجومه ، وصمدت مدينة دمشق أمام حصاره ، فعاث الجيش الآشوري فساداً في بساتينها وضواحيها . وتابع سيره إلى الساحل الفينيقي، حيث نقش فنانو الملك صورة له عند نهر الكلب إلى جانب صورة تيجلات بيليصر الأول. ثم جمع الجزى من مدن صيدا وصور ، ومن ملك إسرائيل ياهو. ولم يتمكن بعد مضي ثلاث سنوات من احتلال دمشق (حوالي عام ٨٣٨) أيضاً ، فتابع طريقه مرة أخرى إلى إسرائيل والمدن الفينيقية لتلقي الجزية منها .

ويستخلص من حولياته أنه فرض سيادة آشور على سورية كلها ، ولكن مملكة دمشق بقيت خارج تلك السيادة . ووصلت فتوحاته إلى كيليكية في الشمال بعد أن أخضع مملكة سمأل الآرامية ، وكوموخي قبل خوضه معركة قرقر المشهورة. ثم ضم إليها بعض مناطق طوروس في حوالي عام ٨٣٧ ق . م . ولم يهمل المناطق الشمالية الغربية من آشور في آسية الصغرى حيث أكد السيادة الآشورية على ناييري، ووصل بجيشه إلى منابع نهر دجلة في الهضبة الأرمينية، ومنابع الفرات، وهاجم أو رارتو مرة أخرى لتشديد قبضته عليها . ولكنه توقف بعدها عن قيادة الجيش بنفسه، فقد تقدمت به السن ، فكلّف قائده ديان آشور بمهاجمة أو رارتو في عام ٨٣٢، وبعدها في عام ٨٢٨ أيضاً . كما توجه قائده على رأس الجيش الآشوري إلى المناطق الجبلية الشرقية لتأكيد السيطرة الآشورية .

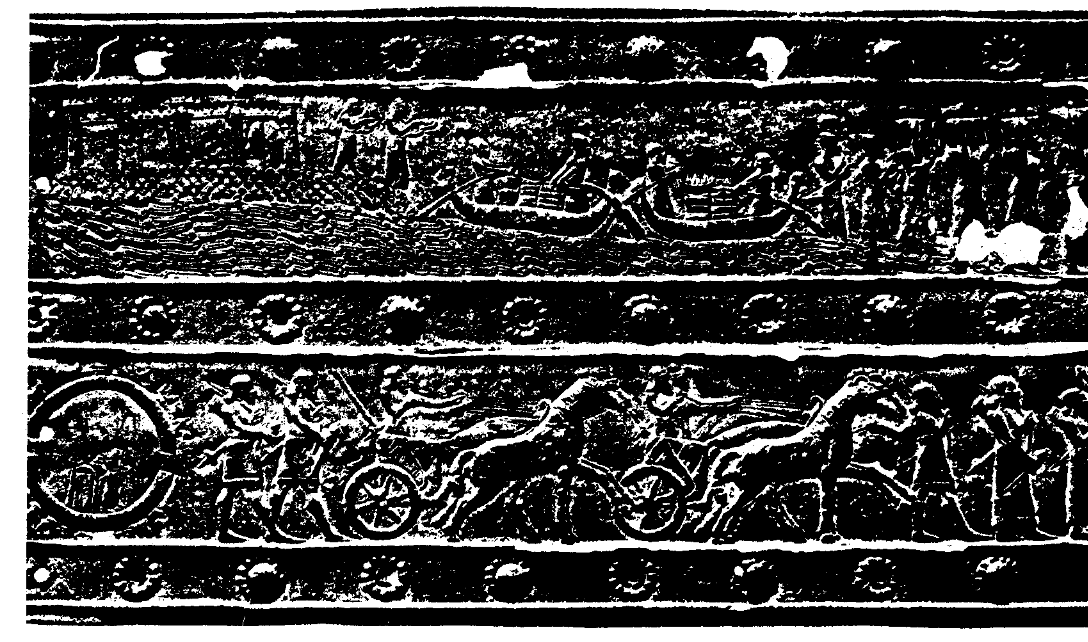
أما بابل فقد لقيت اهتماماً من شلما نصر في العام ٨٥١ وبعده بعام، فتدخل في شؤونها عندما تمرد أخو الملك البابلي مردوك زاكر شومي، فأعاد للملك ما اغتصب أخوه من اراضٍ، ثم تجاوز بابل إلي الجنوب بجيشه وفرض الجزية على

http://www.al-maktabeh.com

السكان الكلدانيين (الآراميين) في أقصى الجنوب حيث كانت تقوم دويلة بيت داكوري الآرامية.

أقام شلمنصر الثالث في بداية حكمه في مدينة نينوى، ثم اهتم بمدينة كالخ التي أكمل بناءها الذي بدأ منذ عهد أبيه، وأنشأ فيها مستودعاً ضخماً للجيش الآشوري بقي فيها حتى آخر أيام الدولة الآشورية. وعثر المنقبون على آثار المدينة على تمثال للملك في هيئة المتعبد، وعلى مسلة سوداء نقشت عليها معارك شلما نصر الكبيرة بالكتابة والصورة، تزودنا بمعلومات وفيرة عن حروبه في الجبهة الغربية بخاصة، وهي محفوظة الآن في المتحف البريطاني* في لندن .

اضطر الملك شلما نصر الثالث في الأعوام الأربعة الأخيرة من حكمه إلى البقاء في عاصمته كالخ لنشوب اضطرابات داخلية تسببت فيها مؤامرة تزعمها أحد أبنائه، لعل شلما نصر كان قد حرمه من وراثة العرش، فوقفت أغلبية المدن الآشورية الرئيسية إلى جانب الابن، وبينها، آشور، ونينوى. وعندما مات الملك المسن



قسم من المشاهد المصورة على باب قصر شلما نصر الثالث المغطّى بالبرونز يمثل جيشه في الماء والبر

مكتبة المهتدين الإسلامية

في عام ٨٢٤ كانت الاضطرابات على أشدّها. فخلفه ابنه شمشي أدد الخامس (٨٢٤-٨١١) الذي توجّب عليه تهدئة الأحوال والقضاء على المؤامرة، واحتاج إلى عامين كاملين للتوصل إلى وضع حد لها، وذلك بالتعاون مع ملك بابل الذي انتهز الفرصة للإفادة من الأوضاع التي ألمت بآشور، فعقد اتفاقية كانت لصالح بابل جملة وتفصيلاً، مقابل مساعدة شمشي أدد أو البقاء محايداً. ولكن الملك الآشوري لم ينس لملك بابل موقفه، فما أن استقرت له الأحوال حتى انتقم من بابل شر انتقام، فقاد حملة عسكرية في العام ٨١٦، وهي الرابعة، إلى الجنوب حيث احتل عدداً من المدن الواقعة في وادي ديالى، والتي كانت تابعة للحكم البابلي، ولم يستطع الملك البابلي الجديد فعل شيء، على الرغم من استنجاده بقوات كلدانية، وعيلامية فخسر المعركة أمامه. وعاد في السنة التالية لاحتلال مدن أخرى حتى وصل إلى مدينة دير التي خضعت له، وغنم منها الكثير، وفي المقدمة ملك بابل الذي سقط أسيراً في يده [١٥]. ثم جاء في العام التالي لأسر الملك البابلي الجديد بابا - أخا - إدّين، وتقديم الشكر والقرابين للآلهة البابلية في كوثا، وبورسيبا، وبابل. وتابع مسيره إلى الجنوب لتلقي الجزى من القبائل الآرامية الكلدانية، ثم عين موقع الحدود من جديد بين آشور وبابل في طريق العودة. ويستخلص من مجريات الأحداث أن الملك شمشي أدد الخامس تمكن من إعادة الأمن والاستقرار إلى آشور التي عاشت، كما رأينا، في السنوات الأربع الأخيرة من حكم والده، وعند جلوسه على العرش، أزمة داخلية خانقة. فحق له اتخاذ لقب "ملك الجميع".

وعندما مات شمشي أدد الخامس كان ابنه أدد نراري الثالث (٨١١-٧٨٣) بعد طفلاً صغيراً، فتولت الوصاية عليه أمه سمّورامات التي دعتها المصادر اليونانية باسم سميراميس [١٦]. وقد قام قائد الجيش بعدد من الحملات العسكرية، كما تذكر

---

(١٥) Afo 9 (1934), S. 102 f; FW, 4, S. 40; A. K., Grayson, in CAH, 1982, P. 266 ff

(١٦) H. Lewy, JNES 11 (1952), S. 264 - 286.

نسج الإغريق روايات أسطورية عن هذه الملكة، ومنهم المؤرخ هيرودوت، ونسبوا إليها بناء مدينة بابل، والجنائن المعلقة، وفتح مصر والهند. وقد تم العثور على مسلة خاصة بها في آشور مع مسلات الملوك والملكات الآشوريين، وتمثال مكرس لحياتها، في مدينة كالخ. أنظر: سامي سعيد الأحمد، سمير اميس بغداد، ١٩٨٨.

http://www.al-maktabeh.com

الحوليات الآشورية، ضد الميديين في الشرق، ومايجاورهم من قبائل . وفي العام الأول من تولي أدد نراري مقاليد الأمور وجه حملة عسكرية إلى دمشق (حوالي عام٨٠٥) التي هاجمها ملك حماه، وكبّدها خسارة فادحة في زمن ملكها بر حدد الثالث، فوجدها أداد نراري فرصة سانحة للنيل من دمشق. فعبر بجيشه نهر الفرات مثل جده شلما نصر الثالث، وجمع الجزى من عدد من المدن السورية والفلسطينية، ومنها دمشق، ثم عاد أدراجه إلى آشور. ثم عمد إلى التفاهم مع ملك بابل على الرغم من انتصاره عليه، وخطط الحدود بين الطرفين من جديد، وأعاد إلى البابليين آلهتهم، وقدّم القرابين إليها بانتظام ، وافتتح عهداً من الود والصداقة بين البلدين الشقيقين.

خلف أدد نراري الثالث ثلاثة من أولاده الذين شهدت البلاد في عهدهم ضعفاً واضحاً يتبدّى من خلال تخليهم شخصياً عن اللقب الملكي "ملك الجميع" ، ومن قدرة أو رارتو على الضغط الشديد والمتواصل على آشور، وتوصلها إلى فرض نفوذها على الطرق التجارية القادمة من إيران والمؤدية إلى الساحل السوري، مما تسبب في أزمات اقتصادية، وحمل آشور على اتخاذ موقف الدفاع من جديد، والانكماش على نفسها ضمن حدودها الأولى. وحدث في أثناء ذلك كسوف للشمس (حزيران / يونيو ٧٦٣ ق . م) ، وانتشار الطاعون وعند ما تفاقمت الأحوال السيئة في البلاد . وتردّت الأوضاع الأمنية والاقتصادية ، ظهرت القلاقل في عدد من المدن، ثم اندلعت ثورة في العاصمة كالخ أودت بحياة الملك ، ونُصِبّ تيجلات بيليصر الثالث ملكاً على آشور. وبدأ بوصوله إلى العرش الدور الثاني من العصر الآشوري الحديث.

ب - الدور الثاني : بلغت آشور في هذا الدور ذروة مجدها العسكري، ووصلت حدود سلطتها أقصى اتساع عرفته، فغدت اكبر امبراطورية عرفها الشرق القديم في ذلك العصر. وتم لها ذلك المجد والشهرة والاتساع الكبير على يد عدد من الملوك الذين يعدون من أشهر ملوك بلاد مابين النهرين ، ومن أكثر ملوكها آثاراً ومادة تاريخية.

مكتبة المهتدين الإسلامية

تسلم تيجلات بيليصر الثالث (٧٤٦-٧٢٧ق.م) الحكم والبلاد في أسوأ أحوالها من الاضطراب والتمزق، والأخطار المحدقة بها تتراكم وتزداد شدة، وسلطة الملك في الدرك الأسفل. ولكنه كان أهلاً لتسنمه سلطة الحكم، وقادراً على تغيير الأحوال، والنهوض بآشور من جديد. فقد حاز الاحترام والهيبة من مواطنيه، وعرف بشخصيته المتميزة أن يحوز من الجميع على الطاعة المطلقة أيضاً، ومكّنته قدراته الذاتية على خلق الشروط الضرورية لإعادة الثقة إلى الشعب والجيش، والشروع في إنجاز المهام الأساسية لتجاوز المحنة التي تردت فيها البلاد منذ موت شلما نصر الثالث.

أعاد تيجلات بنليصر الثالث النظام إلى البلاد بعدد من الإجراءات الإدارية الناجحة، وعالج الأحوال الاقتصادية بسياسته الحكيمة، وإصلاحاته التي طالت الجهاز الإداري والجيش معاً. وتوجه بعدها بشهور في أول حملة عسكرية له لتخليص آشور وبابل معاً من ضغط الكلدانيين الآراميين الذي تنامى إلى درجة خطيرة في السنوات الأخيرة، في الجنوب ، فاجتاح عدداً من مراكز تجمعهم ، ووصل بقواته إلى الخليج العربي، من دون أن يتعرض لبابل وسكانها الأصليين بأذى ، بل قدم القرابين لآلهتها في معابد بابل وسيبار وكوثا، وقوبل بالترحاب والتبجيل من كهنتها المحليين. وقد عبّر بتصرفه الإيجابي عن مسؤوليته عن حماية تلك المعابد ، كما أكد في الوقت نفسه على حمايته للعرش البابلي، ، ولملكه نابو ناصر. ثم عمد في العام الثاني إلى شن حملة عسكرية على الجبال الشرقية لإرهاب سكانها، وحملهم على إعلان الطاعة والتبعية لآشور. أما حملته الثالثة فكانت موجهة إلى سورية التي كانت تمثل عقبة كأداء في وجه التوسع الآشوري دائماً، وتقض مضجع الملوك الآشوريين باضطراباتها وتمردها المتواصل. ففي شمالي سورية قامت مملكة بيت أجوشي الآرامية بفرض نفوذها على المنطقة بكاملها، وحلت محل مملكة حماه الآرامية، ثم تعاهدت مع آشور على الدفاع المشترك وإعلان التبعية لها في زمن الملك الأخير آشور نيراري. ولكنها عادت إلى التنكر للمعاهدة عندما تأكد لها ضعف الملك الآشوري . بل وقامت بتكتيل عدد من الحكام السوريين بزعامتها، وتشجعت بدعم من مملكة أورارتو التي وصل نفوذها إلى شمالي سورية على إنشاء حلف ضم كل الدويلات الآرامية في سورية وثلاث من الدويلات التابعة لمملكة أورارتو

http://www.al-maktabeh.com

المجاورة لها في كيليكيا. وقد كتب نص الاتفاق باللغة الآرامية تم العثور عليه في السفيرة قرب مدينة حلب (١٧)، وكان موجهاً ضد آشور. فجهز الملك الآشوري جيشه الضخم ، وسار مخترقاً الجزيرة العليا إلى أن وصل إلى نهر الفرات في عام ٧٤٣، وإذا بملك أورارتو ساردور الثالث يتعرض للجيش الآشوري بهجوم مفاجئ دفاعاً عن مناطق نفوذه في شمالي سورية. ولكن دارت الدائرة عليه في المعركة التي حقق الآشوريون فيها نصراً مؤزراً اضطره إلى الفرار إلى بلاده. ثم تابع تيجلات بيليصر المنتصر زحفه على شمالي سورية قاصداً أرباد، عاصمة مملكة أجوشي زعيمة التحالف السوري، وضرب الحصار حولها، في الوقت الذي احتلت قواته كل المنطقة الواقعة بين الأمانوس وحماه. وعندما سقطت أرباد بعدسنتين من الحصار الآشوري، أسرع حكام المناطق الأخرى من كيليكية ودمشق وكركميش وصور إلى أرباد التي صارت عاصمة إقليمية آشورية ليقدموا الجزية للملك الآشوري. ولكن هذا الانتصار الكبير لم يحل مشكلة الآشوريين مع آراميي سورية. ففي العام التالي قام تحالف جديد بزعامة ملك سمأل (يأودي) الواقعة على أطراف خليج الاسكندرونة الشمالية، بينما كان الجيش الآشوري مشغولاً بحرب على أطراف جبال طوروس القريبة من أرمينية. فاضطر الآشوريون إلى الزحف ثانية بقيادة ملكهم تيجلات بيليصر للقضاء على المتحالفين الجدد في العام ٧٣٨ق.م، وأعاد إلى عرش سمأل ملكها الشرعي باناموا الثاني بعد أن ضم إلى ملكه بعض الأراضي من مملكة جرجم المجاورة، واحتل أراضي جديدة، وأنشأ أقاليم آشورية منها ضمها إلى مملكته. ونعرف من خلال نصوصه مبلغ الجزى التي جمعها من جديد من المدن السورية، ومنها : دمشق، السامرة (عاصمة إسرائيل)، صيدا، صور ، كركميش ، سمأل. كما يذكر مدناً بعيدة كانت تدفع له الجزية ، ومن بينها يذكر اسم ملكة عربية تدعى زبيبة (١٨).

وانصرف بين عام ٧٣٧ والعام ٧٣٥ إلى محاربة أورارتو، والميديين في إيران، ونابيري. فوصل في حملته الأولى إلى مناطق في قلب إيران لم يصل إليها

---

(١٧) A. Dupont - Sommer, Les Inscriptions arameénes de Sfiré, paris 1958.

(١٨) R. Labat, in FW, 4, S. 53 .

مكتبة المهتدين الإسلامية

ملك آشوري قبله، وهو يطارد فلول القبائل الميدية (الإيرانية) حتى موقع مدينة طهران اليوم. وقد غنم الكثير من المواشي التي لاتُعَدّ ولاتحصى ، و ٥٠٠٠حصان ، ووقع ٦٥٠٠٠ من الأسرى الذين أسكنهم في وادي ديالى في وقت لاحق . ثم ألحق هذه الحملة بحملة أخرى إلى بحيرة فان وأعالي الفرات، قبل أن يشرع بالهجوم الساحق على أورارتو التي كانت تضايق آشور، وكان الآشوريون ينتظرون الفرصة المناسبة للثأر منها. وقد حانت الفرصة في عام ٧٣٥، فاجتاح عدداً من مدنها، حتى وصل إلى العاصمة التي لم يستطع اقتحامها على الرغم من الاشتباكات الدموية والمعارك الضارية . ولكنه أقام قبل انسحابه عدداً من الحصون الآشورية في جنوبها، أسكن فيها جماعات من سمأل، هجّرهم من بلادهم إليها. فضرب بذلك طوقاً آمناً حول حدوده الشمالية. وجعل تلك المنطقة إقليماً آشورياً يخضع لحكم قائد عسكري مهمته المراقبة الدائمة، وربط أطرافها بالأقاليم المجاورة .

ثم أزف وقت العودة من جديد إلى سورية، حيث امتنعت دمشق والسامرة وعسقلان وغزة عن دفع الجزية المقررة، واحتجت صيدا وصور على تقييد حرية التجارة مع مصر. وأسرع بعد إخضاع المتمردين والمناوئين إلى مساعدة ملك يهوذا أهاس الذي كانت دمشق والسامرة تضغطان عليه بشدة وتضايقانه. فاجتاح تيجلات بيليصر إسرائيل، وهجّر سكانها، وعين حوالي عام ٧٣٤ هوشع ملكاً عليها، ثم انقض على دمشق، ولكنه لم يستطع دخولها آنئذ، بل كان عليه الانتظار سنتين بعدها، فاستسلم ملكها الآرامي الذي لقي الموت جزاء تمرده، وهجّر تيجلات بيليصر جماعات من السكان. وعمد الملك الآشوري إلى إجراءات جديدة لمعالجة الأوضاع في سورية، فرفع الجزية وضاعفها على المتمردين، وكافأ الذين وقفوا إلى جانبه في الصراع مع المناوئين للحكم الآشوري، ومنهم ولي العهد في سمأل الذي سقط والده باناموا في معركة دمشق، وهو يقاتل إلى جانب الملك الآشوري، فأجلسه على عرش أبيه المخلص. أما ملكة العرب شمس التي يرد ذكرها في سياق النص فكان عليها أن تقبل وجود مفتش آشوري إلى جانبها، وتقديم ١٠ آلاف مقاتل للخدمة في الجيش الآشوري زيادة على الجزية، وذلك لأنها نكثت بالعهد الذي أقسمت أمام الإله شمش بأن تحافظ عليه، ولكنها نقضته. فساعدت أعداء الملك الآراميين، وتركت

http://www.al-maktabeh.com

رجالها يتعرضون لقوافله . فحاربها الآشوريون حتى أجبروها على الفرار، وضيقوا عليها الخناق حتى أهلكها وشعبها الجوع، فاضطرت إلى الإذعان. ولم يكتف الملك الآشوري بتسجيل نصره على الملكة شمس بالكتابة وحدها، بل سجله تصويراً ورمزاً. وأدرك تيجلات بيليصر أن أعراب الصحراء لن يتمكن منهم غير واحد منهم، فاستمال إليه بعض شيوخهم، وعين واحداً منهم يدعى إدبئيل مشرفاً على المناطق القريبة من حدود الآشوريين الجنوبية مع أطراف شبه الجزيرة العربية الشمالية الغربية. وتذكر النصوص أسماء من مدن سورية جديدة أضيفت إلى قائمة دافعي الجزية ، ومنها : أرواد ، عمان، مؤاب، عسقلان ، يهوذا ، أدوم، غزة.

ركن تيجلات بيليصر بعد حملته الأخيرة على سورية، والإجراءات التي اتخذها لضمان سيادة آشور عليها، إلى الهدوء. واستقرت الأحوال فيها فعلاً. ولكن بابل شغلته بعد موت ملكها المخلص له. فقد حل محله ابنه لعامين ، ثم اغتصب الحكم منه رجل يُدعى نبوشوم أوكين. ولكن هذا مالبث أن اغتصب العرش منه آرامي من قبيلة أموكاني القوية، يدعى نبو أوكين زير. وقد أقلقت هذه التغييرات الملك الآشوري فقرر التدخل بنفسه، ومعاقبة الآراميين في الجنوب، بعد أن حاول تحريض جماعات بابلية للإطاحة بالملك الآرامي الجديد من دون جدوى. فقاد حملة ضد الكلدانيين والقبائل الآرامية الأخرى لتأديبهم وتأكيد سيادته على الجنوب. وعمد إلى أسلوب التهجير الذي رأيناه يطبقه في مناطق أخرى، فهجّر ١٢٠ ألفاً من السكان الجنوبيين، فأسرع شيوخ القبائل إلى دفع الجزية، وإعلان الخضوع للعاهل الآشوري، ومنهم بيت داكوري، وبلاد البحر، وبيت ياقين. ثم أعلن نفسه ملكاً على بابل، حتى لاتقع ثانية تحت طمع المغتصبين، وأطلق على نفسه اسماً خاصاً هو بُولُو . وحتى يؤكد صدق نواياه ، والاحتفاظ لبابل بشخصيتها وبملكها الخاص، جاء في العامين ٦٢٩، ٦٢٨ ليرأس بنفسه بصفته "ملك بابل" الطقوس الدينية الخاصة بالإله البابلي مردوك [١٩] .

---

(١٩) المصدر السابق ، ص ٥٤ . Luckenbill, op;. cit I, 777 f. , ANET, 283 , 284.

مكتبة المهتدين الإسلامية

أصبح الجيش الآشوري جيشاً نظامياً ، قوي العدد والعتاد، جاهزاً للقتال في كل وقت ومكان. وقد تطور نظام قتاله، ومعداته الحربية. وغدت عرباته الحربية أكبر، وعدد الخيول التي تجرها أكثر. وسلاح الفرسان الذي دخل الجيش الآشوري قبل قرن ونصف غدا القوة الضاربة للجيش على الرغم من استخدامه على شكل فصائل صغيرة. أما سلاح المشاة فهو عماد الجيش وقوته الحقيقية والفعالة، فعلى عاتقه يقع عبء القتال الرئيسي، وعبء الحصار الذي قد يستغرق وقتاً طويلاً، ويتطلب حمل العتاد الكثير، وعبء الاحتلال أيضاً الذي قد يمتد مدة زمنية طويلة. وصار للجيش هيئة أركان ، وقيادة عامة يرأسها الملك بذاته.

فكانت الدولة في أحسن حالاتها من الاستقرار ، وكان الجيش في أقوى وضع بحيث غدا أقوى وأكفأ جيش في عصره. وكانت القوات المعادية تحسب ألف حساب لدى مقارعتها للجيش الآشورى، ولعل سمعته كانت تسبقه إلى ميدان المعركة، أو إلى المدن التي يمر بها، فكان بعضها يستسلم ويدفع الجزية خوفاً من بطشه إن امتنعت، أو تأخذ حذرها منه وتحاول الصمود، ولكن كان عليها أن تدفع الثمن باهظاً من بعد.

اعتلى العرش الآشوري بعد تيجلات بيليصر ابنه شلما نصر الخامس عام ٧٢٦ق.م ولم يبق في الحكم سوى أربع سنوات، ولم يخلف غير القليل من أخباره، ولكنه سار على سيرة والده في بابل، فاتخذ اسماً خاصاً بصفته ملكاً على بابل. وقد عمد إلى تجريد حملة عسكرية لإرغام إسرائيل التي امتنع ملكها هوشع عن دفع الجزية على الانصياع للحكم الآشوري. فحاصرت قواته عاصمتها السامرة ثلاث سنوات متتالية، ولم تنبئ النصوص عن سقوطها في عهده أم في عهد خليفته سرجون الثاني. وتذكر النصوص أنه ألغى المرسوم القاضي بإعفاء مدينة آشور، ومدينة حران من الضرائب ومنحهم الحصانة السياسية، أو تحديده. ولعل هذا الإجراء أساء إلى سمعة الملك، وأعان سرجون الثاني على اغتصاب العرش.

السرجونيون

وصل إلى العرش الآشوري في عام ٧٢١ ق.م رجل يدعى سرجون لم تذكر

http://www.al-maktabeh.com

المصادر صلته بالملك السابق، ولا بالأسرة الحاكمة، ويبدو أن ظهوره المفاجئ في الحكم سببه انقلاب قام به على الملك شلما نصر الخامس، إذ ينّوه بتصرف سلفه السيء في نص له يقول : «طالما كان مواطنو آشور (المدينة) لايعرفون دفع الضرائب ولا عمل السخرة، ولكن [شلما نصر] فرض عليهم ضرائب مرتفعة وسخرة قاسية، وعاملهم معاملة المدينين بالفائدة، وقد انتوى الشر للمدينة..» ولهذا وضع الإنليل بين الآلهة (= الإله آشور) وقد غضب كثيراً في أعماقه نهاية عنيفة لحكمه، وسمّاني، أنا سرجون، ملكاً على بلاد آشور، ومنحني الصولجان، والعرش والتاج الملكي». وهذا يعني أنه كان معارضاً لشلما نصر الخامس، ومستنكراً لأفعاله، وقد قرر سلوك طريق جديد، مغاير لطريق سلفه. ويبدو تنصله من الماضي من خلال السكوت عن ذكر الملوك السابقين، وإغفال أسمائهم في نصوصه التي تتحدث عن أعماله وإنجازاته إغفالاً تاماً. وقد رأى رعاياه في موته غيلة تكفيراً عن جريمة اغتصابه الحكم، على عادة الأولين في رد الكوارث المروعة إلى ارتكاب الملوك والمسؤولين الكبار خطايا لاتغتفر، وكبائر جسيمة في حق الآلهة والشعب.

ويبدو أن اسمه سرجون، في الأكدية شرّوكين ، ويعني «الملك الشرعي، أو الصادق» ، إنما اتخذه بعد توليه الحكم ليؤكد شرعية حكمه، كما فعل سميّه القديم سرجون الأكدّي قبل اكثر من ١٥٠٠ عام. ويعد سرجون الثاني، كما دعاه المؤرخون، إذ سبقه ملك يدعى أيضاً سرجون (الأول) إلى الجلوس على العرش الآشوري في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، يعد مؤسساً لأسرة حاكمة جديدة في آشور دعاها المؤرخون نسبة إليه باسم السرجونيين، وهم سنحاريب، أسرحدون، وآشو ربانيبال.

تعاظمت التحديات التي تعرضت لها آشور في بداية حكم سرجون الثاني. ففي بلاد بابل انتهز مردوك إبلا إدّين، زعيم ياقين الكلداني، فترة البلبلة والقلاقل التي ألمت بالدولة الآشورية التي صحبت تغيير الأسرة الحاكمة وقبلها، واستعان بقوات عيلامية لاسترداد سلطانه الذي كان قد فقده أيام تيجلات بيليصر الثالث، وأعلن نفسه ملكا على بابل في العام نفسه الذي اعتلى فيه سرجون عرش اشور. فلم يجد سرجون بداً من توقيع اتفاق مع الملك البابلي (الكلداني) مؤقتاً، ريثما ينتهي من المشاكل الأخرى، ولاسيما الداخلية منها. فأسكت المعارضة، وأعاد

مكتبة المهتدين الإسلامية

لمواطني مدينتي آشور وحران امتيازاتهم المتصلة بإعفائهم من الضرائب، ومن أعمال السخرة، كما أعفى المعابد في آشور من التزاماتها تجاه الدولة.

وفي سورية قام تحالف جديد بزعامة ملك حماه الآرامي، وملك غزة المسمى حانونا، ضد الآشوريين، وبدعم من المصريين الذين كانوا يقفون وراء كل من يناوئ الحكم الآشوري في سورية، وفي فلسطين بخاصة . ولكنه آثر تأمين الحدود مع عيلام قبل أن يتفرغ للمسألة السورية، فخاض معركة مع العيلاميين عند مدينة دير، ولم تأت نتيجتها لصالحه على الرغم من احتفاظ بقواته بالمدينة تحت الحكم الآشوري. بعدها التفت إلى التحالف السوري في ربيع عام ٧٢٠، وأحرز نصراً عليه في مدينة قرقر ، فخضعت أرباد عاصمة بيت أجوشي، وسيميّرا ، ودمشق للسيادة الآشورية، ومعها أقاليمها كاملة. ثم تابع زحفه إلى غزة، فاحتلها، واشتبك مع قائد الجيش المصري عند رفح على الحدود المصرية ، وكبّده خسارة فادحة ، ودمّر المدينة.

وفي نهاية العام نفسه عاد إلى السامرة ، عاصمة إسرائيل، حيث أعاد بناءها وجعلها حاضرة إقليم سامرينا، بعد أن اجتاحها في بداية حكمه، كما يقول في نص له : "في بداية حكمي، وفي السنة الأولى احتلت سامريا...، ٢٧٢٩٠ من سكانها سقتهم من هناك. وغنمت منها ٥٠ عربة لقواتي الملكية. وأسكنت فيها أناساً من أسراي من البلاد الأخرى ، وعينت عليها حاكماً من أتباعي الشخصيين، وفرضت عليها الجزية والضرائب». وثمة نص عبري، يذكر الواقعة المفجعة التي وضعت نهاية لدويلة إسرائيل، يقول (سفر الملوك الثاني، ٤،١٧) «عندما علم ملك آشور (شلما نصر الخامس) بتآمر هوشع الذي ارسل مبعوثين له إلى ملك مصر سو [٢٠]، ولم يدفع لاشور الجزية السنوية المعتادة، أمر بالقبض عليه وزجّه في السجن». ثم يتابع النص (٦،١٧) «في العام السادس من حكم هوشع احتل ملك آشور (سرجون الثاني) السامرة، وأسر الاسرائيليين ، وساقهم إلى آشور، وأسكنهم في هاله وعلى الخابور... وفي مدن (بلاد) الميديين (في إيران) ».

---

(٢٠) المقصود هوالملك المصري تاف نخت، مؤسس الأسرة ٢٤، في سايس (صا الحجر). انظر : كتابنا ك تاريخ الشرق القديم (٣) ، مصر ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ ؛ FW, 4, S. 183, Fussnote 49 .

http://www.al-maktabeh.com

ضمن سرجون بعد حملاته تلك الاستقرار الداخلي في آشور نفسها، كما أخضع المتمردين في المناطق الحدودية للأقاليم المحتلة في الجنوب ، وفي الغرب. وهما المنطقتان اللتان كان لمصر ولعيلام يد في إثارة أهلهما ضد الآشوريين ، كلما سنحت الفرصة. فمصر كانت تكيد للآشوريين الذين منعوا عنها خيرات الشام، وحدّوا من تجارتها معها. وعيلام قامت فيها أسرة حاكمة جديدة أخذت تتطلع إلى إعادة النفوذ العيلامي في بابل. فاستراح سرجون في الأعوام الثلاثة التالية وجيشه من القيام بعمليات عسكرية على هاتين الجبهتين، وانصرف بكليته لإنهاء المشكلة الثالثة وهي : أورارتو. ولم تكن أورارتو وحدها ، بل كانت تقود تحالفاً جمع بينها وبين جيرانها الميديين، ودولة ناشئة شرقي بحيرة أورمية تدعى زيكيرتو. وكانت أورارتو قد مدت نفوذها إلى الأناضول في آسية الصغرى. فبدأ سرجون الثاني تحركاته العسكرية في عام ٧١٩، وأرسل حملة تأديبية إلى أطراف أورارتو، ثم ألحقها بحملة كبيرة في العام التالي إلى الأناضول لإعادتها إلى حظيرة الدولة، وتم لجيشه احتلال كركميش عام ٧١٧ من جديد، وأسكن فيها جماعات آشورية، ولاسيما بعد اطلاعه على صلاتها مع الفريجيين في اسية الصغرى وزودها بحامية عسكرية قوية لأهمية موقعها الاستراتيجي على الفرات الأعلى. وفي عام ٧١٤ زحف بجيشه إلى أورارتو، فدمّر المدن المتحالفة معها في البداية شرقي بحيرة أورمية. وقاد من ثمة حرسه الخاص ، وقواته الخاصة في مهمة لإرباك الجيش الأورارتي، فحقق غايته، وولّى العدو الأدبار هارباً من هول المفاجأة التي حطمت معنوياته، ولقي الكثير من جنوده الموت بسبب ظروف المناخ القاسية، والتيه في الجبال العاتية. فواصل الجيش الآشوري اجتياحه للمنطقة، وتوغل في أعماق أورارتو، فنهب مدنها، ووصل إلى شمالي بحيرة فان بعد أن زالت مقاومة الأورارتيين وانهارت دفاعاتهم، وغنم الكثير من الكنوز، وعاد إلى آشور وقد حقق انتصاراً ساحقاً على أورارتو وحلفائها. فلم تعد أورارتو بعد هذه الحرب الخاسرة إلى إثارة المشاكل لآشور مدة تزيد على العشرين عاماً [٢١].

كان سرجون يعتمد كثيراً على معلومات استخباراته قبل اتخاذ القرار بتحرك قواته لمجابهة الأعداء ، والهجوم عليهم في الوقت المناسب. وقد جعل ابنه

---

(٢١) هاري ساكز، عظمة بابل، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

سنحاريب يشرف على هذا الجهاز الحساس الذي أداره بكفاءة ، فأفاد منه الملك الآشوري، وعرف من خلاله أن ثمة خطراً جديداً يهدد البلاد من الشمال بوصول هجرة شعوبية من القوقاز تتمثل بالكيميريين الذي سيكون لهم شأن في المستقبل، ولاسيما بعد أن اجتاحوا بعض الجهات الشرقية من بحيرة أورمية، ولعل هذه المعلومات هي التي حملت أباه على القيام بغزو أورارتو في العام ٧١٤. وقد خلّد انتصاره في خطاب وجّهه إلى إلهه آشور، بيّن فيه تفاصيل المعارك التي خاضها لإركاع أورارتو وقهرها، وقدّم فيه تقريراً دقيقاً عن مجريات الأحداث. وهي عادة درج عليها بعض الملوك الآشوريين، ومنهم شمشي أدد الخامس من قبل، وأسرحدون من بعد [٢٢].

وأرسل سرجون عدداً من الحملات التأديبية إلى المناطق الجبلية الشرقية، وإلى القبائل الميدية في غربي إيران لتأكيد سيطرته عليها، على الرغم من تفرق شمل الميديين هناك، وتلقيه المعلومات من جواسيسه الذين بثهم في تلك الجهات بأن "الميديين في المنطقة يلتزمون الهدوء".

ويبدو أن المصريين عادوا إلى إثارة أصدقائهم في فلسطين للتمرد على السيادة الآشورية من جديد، فتحرك القائد الآشوري في فلسطين لإخماد الفتنة في أشدود التي كانت تقف من ورائها دويلة يهوذا العبرية، وأدوم ، ومؤاب أيضاً. وكان سرجون قد اتخذ إجراءات كفيلة بتهدئة الأحوال في فلسطين، ومنها القضاء على دويلة اسرائيل، كما ذكرنا، وتوطين جماعات غريبة، ومنهم العرب بخاصة فيها. كما أسكن في منطقة العريش أقواماً غرباء عنها. ولم تعد الاضطرابات بعد إخماد تمرد أشدود تقلق سرجون حتى نهاية حكمه.

وبعد أن استقرت الأمور في الجبهات كافة وجد سرجون أخيراً الوقت ملائماً لمحاسبة مردوك أبلا إدّين الكلداني وحلفائه العيلاميين. فجهز جيشين في عام ٧١٠، جعل أحدهما تحت قيادة حاكم دير الآشوري، وكلفه بمهمة تعطيل الجيش العيلامي عن الحركة، ومراقبته بصرامة. وقاد الجيش الثاني بنفسه وأحاط ببابل من الشمال، فانسحب خصمه بهدوء، متراجعاً خطوة فخطوة على أمل أن تصله النجدة والعون

---

(٢٢) FW, 4, S. 63, Fussnote 46.

http://www.al-maktabeh.com

من عيلام، من دون طائل. وانفرد الملك الآشوري به، فلم يجد بداً من النجاة بنفسه إلى السبخات الجنوبية في بلاد البحر، حيث كان من قبل. وتم لسرجون دخول مدينة بابل من دون مقاومة، بل وجد أبوابها مفتوحة ولقي فيها ترحيباً من الأهالي الذين عقدوا تاجها على رأسه بأنفسهم، فأعاد ملكيتها إلى الملك الآشوري من جديد، ولكنه لم يتخذ لنفسه اسماً آخر بصفته "ملك بابل" . وترأس في العام ٧٠٩ الطقوس الدينية الخاصة بإله المدينة مردوك كالعادة . ولبث مدة في بابل حتى يضمن خضوع القبائل الكلدانية، ثم توج انتصاره النهائي على الجنوب بتزويج ابنه سنحاريب من أميرة آرامية، أراد منه الإفصاح عن مكنون نفسه، ورغبته في المصالحة الجدية.

وصلت آشور في أواخر عهد سرجون الثاني إلى مرحلة من القوة لم تعهدها من قبل. فقد انتهى أمر أورارتو، وزال خطرها نهائياً، وهدأت الأحوال في كل الجبهات. وعرف الملك الآشوري أن الخطر القادم من الشمال يحتاج إلى الحيطة والحذر، وهو خطر الكيميريين القوقازيين الذي دمّروا أورارتو. كما شعر الفريجيون في آسية الصغرى بخطر هؤلاء ، فأرسلوا إلى آشور بعثة للتفاهم مع الملك الآشوري على أسلوب الوقوف في وجه الخطر المشترك. كما عبر ملك تلمون (البحرين) ، وملك قبرص عن تقديرهم للملك الآشوري وخضوعهم له.

وعاد سرجون في العام ٧٠٧ أخيراً إلى نينوى من بابل، وشرع على الفور في بناء مدينته دورشرّوكين (أي حصن سرجون، في موقع خورسآباد اليوم ، إلى الشمال من مدينة الموصل) التي كان قد انتوى تشييدها قبل عشر سنوات، وذلك لأنه كان يكره الإقامة في مدينة آشور التي كان يتوجس من أحزابها الشر، ومن أهلها القلاقل بين الحين والآخر، وكان قد جعل من كالخ قاعدة عسكرية. ولم يهنأ بالإقامة في عاصمته الجديدة سوى عام واحد [٢٣]، إذ مات عام ٧٠٥ ، وكان بناؤها قد أنجز عام ٧٠٦ ولكنها لم تكن مكتملة، وقد اختار لإسكانها مجموعات من

---

(٢٣) يبدو أن نهاية الملك كانت في معركة خاضها مع قواته الخاصة في جبال إيران الغربية، حيث وقع ورجاله في كمين لم ينجُ منه، إذ انقض عليه جماعة من المقاتلين الشرسين الذين عانوا طويلاً من استبداد الغزاة الآشوريين وقهرهم، فلقي حتفه على أيديهم. وبقيت جثته في العراء فريسة للطيور الجارحة، ولم يجرؤ جنوده على إعادتها إلى الوطن.

Von Soden, Herrscher im alten Orient 103 .

مكتبة المهتدين الإسلامية

الأسرى والمهجّرين تحت إشراف مفتشين من كبار موظفيه الآشوريين. وكان سرجون قد اتبع سياسة تيجلات بيليصر في معاملة المدن المغلوبة، وهي تهجير أهلها، وإحلال غيرهم محلهم. وكان يتخير المهجرين الجدد من مناطق متباعدة حتى لا تتحد كلمتهم. ويختار منهم رجالاً يلحقهم بحرسه الخاص. وقد ذكرنا تهجيره لسكان السامرة ، وإسكانه جماعات من العرب والبابليين المتمردين فيها بعد إعادة إعمارها، وثابر على إرسال المشاغبين إليها من المناطق الأخرى. وفعل مثل ذلك بحماة، فهجّر إليها ٦٣٠٠ آشوري ، وتخير من أسراها ٦٠٠ فارس ليكونوا في عداد حرسه الخاص. كما أسكن جماعات آشورية في كركميش. وكان لايتورع عن ارتكاب الفظائع مع أعدائه اللدودين، والمتمردين العنيدين، من مثل ملك حماه لأنه تزعم حلفاً من عدد من حكام المدن السورية يشبه حلف قرقر في عهد شلما نصر الثالث، فأمر بسلخ جلده بعد أن تم أسره.

واصطدمت قوات سرجون الثاني مع عدد من القبائل العربية التي كانت تجاور مناطق السيادة الآشورية في شمالي شبه الجزيرة العربية، فتذكر نصوصه أنه فتك بأربع قبائل عربية بربرية، لم تخضع في حياتها، كانت تقيم في أعماق الصحراء، فاستأصل شأفتها، وأسكن من وقع بيده أسيراً منها منطقة السامرة، ومن بينها قبيلة ثمود [٢٤].

تتابع بعد سرجون الثاني ثلاثة ملوك عظام من أسرته، كان أولهم سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١ق.م). وواجهت الثلاثة مشكلات كبيرة متعددة، ظهرت بوادرها منذ عهد أبيهم، وكانت لها جذور امتدت إلى ماقبل عهده. وكان على كل واحد منهم أن يتصدى لها ويعالجها بما يتفق وأسلوبه الخاص. وكانت أهم تلك المشاكل :

١ - دولة بابل التي ظلت تأنف من الخضوع للآشوريين، وكانت محلاً لطمع الآراميين الكلدانيين الذين ما انفكوا يسعون إلى السيادة عليها.

---

(٢٤) المرجع السابق، ص ٢٠٦ .

http://www.al-maktabeh.com

٢ – استمر العداء مع العيلاميين الذين كانوا يدعمون الآراميين، ويحرضون البابليين على الآشوريين.

٣ – تمادي المصريين في تحريض السوريين للوقوف في وجه الحكم الآشوري، ونفور السوريين المتواصل من العنف الآشوري .

٤ – رغبة آشور في إخضاع عرب الصحراء المجاورين لهم في الجنوب، وتمرد هؤلاء وإباؤهم .

٥ – اضطراب الأحوال في الأطراف الشمالية لآشور، وفي آسية الصغرى نتيجة للنزعات الاستقلالية عند أهلها، ووصول هجرات هندو – أوربية جديدة إليها.

أما سنحاريب فقد بادر منذ اعتلائه العرش، وهو المجرّب، والخبير في شؤون الحرب والسياسة، إلى معالجة الشأن البابلي الذي استدعى تدخله المباشر. فقد عاد الكلداني مردوك أبلا إدّين إلى اغتصاب العرش في بابل بعد موت سرجون بعد أن غادر مخبأه في الجنوب، ووقف الأهالي، حضرهم وبدوهم ، إلى جانبه. وآزره العيلاميون، وشجعوه على التصدي للآشوريين، فأرسلوا إليه قوات عيلامية بقيادة قائد الجيش الأعلى، وعدداً من القادة العيلاميين الكبار، لأنهم وجدوها فرصة مناسبة للانتقام من الآشوريين. فلم ينتظر سنحاريب طويلاً لسحق التحالف الكلدائي– العيلامي، فاضطر مردوك أبلا إدّين إلى النجاة بجلده مرة أخرى، وعيّن الملك الآشوري رجلاً من صنائعه ملكاً على بابل. وعمد بعد ذلك إلى الانتقام من الكلدانيين ، ولكنه لم يعثر على أثر للهارب.

كما تسبب موت سرجون في الغرب بقلاقل كثيرة عبرت عنها عسقلان، وصيدا، وعدد من مدن فلسطين، بحركات انفصالية. وكانت مصر من ورائها تشجع المتمردين، وتنمي شعور الكراهية ضد الآشوريين مااستطاعت إلى ذلك سبيلاً. فزحف سنحاريب بقواته في العام ٧٠١، فما كان من ملك صيدا وقد أحس بالخطر الداهم إلا أن نجا بنفسه إلى قبرصَ وأزاح الملك الآشوري عدداً من أمراء المدن،

مكتبة المهتدين الإسلامية

وعين رجالاً من أتباعه مكانهم، وتلقى جزى المدن الفينيقية، ومنها أرواد، وجبيل وصيدا،«والمدن الفلسطينية والسورية الأخرى. وقبل أن يعود أدراجه إلى آشور واجهته عقرون بتحالفها مع مصر التي أرسلت إلى أهلها عربات حربية، وفرساناً، ورماة من قواتها. فلما سمع بذلك زحف إلى عقرون، فاحتلها وأسر جماعات كثيرة من مقاتليها وأهلها، وأمسك بعدد من الضباط المصريين الذين قاتلوا إلى جانب حاكمها، ثم تحرك إلى أورشليم فحاصرها، ولكن ملكها حزقيا بادر إلى دفع الجزية بعد أن رأى أن لامهرب أمامه، وبعد أن جرده سنحاريب من المناطق القريبة فألحقها بالأقاليم المجاورة [٢٥]. ولكن سنحاريب يروي في نصوصه أنه هاجم مملكة يهوذا التي استنجدت بالمصريين، فأعانوها بقوات لرد الغزو الآشوري. فاجتاح المنطقة، وضرب الحصار على أورشليم، وقد صور فنانوه في نينوى أسوار المدينة، وقد وجه إليها رماته وعلى المحاصرين سهامهم، واتخذوا وضعية القتال، وأمام كل منهم ترس كبير. وروت النصوص أن ملكها حزقيا اضطر تحت وطأة الحصار، وإزاء ما أصاب النجدة المصرية من هلاك على يد الآشوريين، إلى أداء الجزية مضاعفة إلى الملك الآشوري، وأهداه معها بناته وحظاياه وموسيقيه [٢٦]. ويروى نص في سفر الملوك الثاني ١٩ ، ٣٥ أن الجيش الآشوري حل به الموت الإلهي، وحام ملك الرب فوقه ليلاً، وفي بكرة الصباح أصبحوا جثثاً هامدة. فارتد الملك الآشوري مخزياً إلى أرضه (أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٣٢). ويقول هيرودوت [٢٧] إن المصريين أطلقوا بوحي ربهم جرذاناً على معسكرات الآشوريين فقطعت أوتار قسيهم، وأتلفت جعاب سهامهم، وأفسدت سيور دروعهم مما سهل تمزيقها إرباً. فتفشى وباء الطاعون بين الآشوريين، فهلك كثير منهم، وأجبر الآخرين على التراجع والانسحاب الكلي .

---

(٢٥) المرجع السابق ٧٠ .

(٢٦) Lucken bill, The Annals of Sennacherib 1924; Arcient Records II, 233 f. ; ANET 287 - 288 .

(٢٧) Herodotus II 141. cf. L. Honor, Sennacheribs' in vasion of Palestine, 1926; J. Lewy, OLZ 1928, 150 f.; U. Ungnad, ZAW. LIX 199f. ; Von Soden, Herrscher im alten Orient 107 - 108 .

http://www.al-maktabeh.com

وفي أثناء انشغال الجيش الآشوري في الغرب، أعاد الكلداني مردوك أبلا إدين الكرّة في بلاد بابل، وحاول استعادة عرش بابل من جديد. فأرسل إليه الملك الآشوري في عام ٧٠٠ قوات كثيفة إلى قلب بيت ياقين، حيث كان معقله. ولكنه فر ثانية، فطاردته القوات الآشورية إلى عيلام ، حيث وجد فيها ملجأ آواه ورجاله، وقد حمل معه هذه المرة كل مايملك. ثم أجلس سنحاريب ابنه وولي عرشه آشور نادين شومي على عرش بابل ونحّى صنيعته الذي لم يكن تصرفه ينبئ عن إخلاصه لمولاه.

ثم وجه سنحاريب بعض الحملات التأديبية إلى سكان جبال زاجروس، وإلى كيليكية وطوروس في عام ٦٩٦. أما هو فقد بقي في نينوي، ولم يكمل بناء مدينة أبيه دور شرّوكين، وجعلها مقراً لحاكم الإقليم. وصرف جل اهتمامه، وقد استقرت الأوضاع في المملكة ، إلى تجميل نينوى وجعلها أجمل مدن مملكته المترامية الأطراف، فبنى فيها قصراً جديداً لنفسه ، جلب حجارته والمواد اللازمة لتشييده وتزيينه من أماكن بعيدة، وقريبة، وتفوق على أبيه في ذوقه المعماري المتميز. ووسّع المدينة، وساحاتها وشوارعها. وأكثر من الحدائق والمنتزهات حول المدينة، وأمر بزرع الأشجار المثمرة في الضواحي، وأشجار الزيتون والكرمة، وشق قناة من نهر دجلة لتأمين السقاية الدائمة لها، وجلب الطيور الجميلة، والحيوانات الغريبة لتعيش في بساتينها القريبة (٢٨).

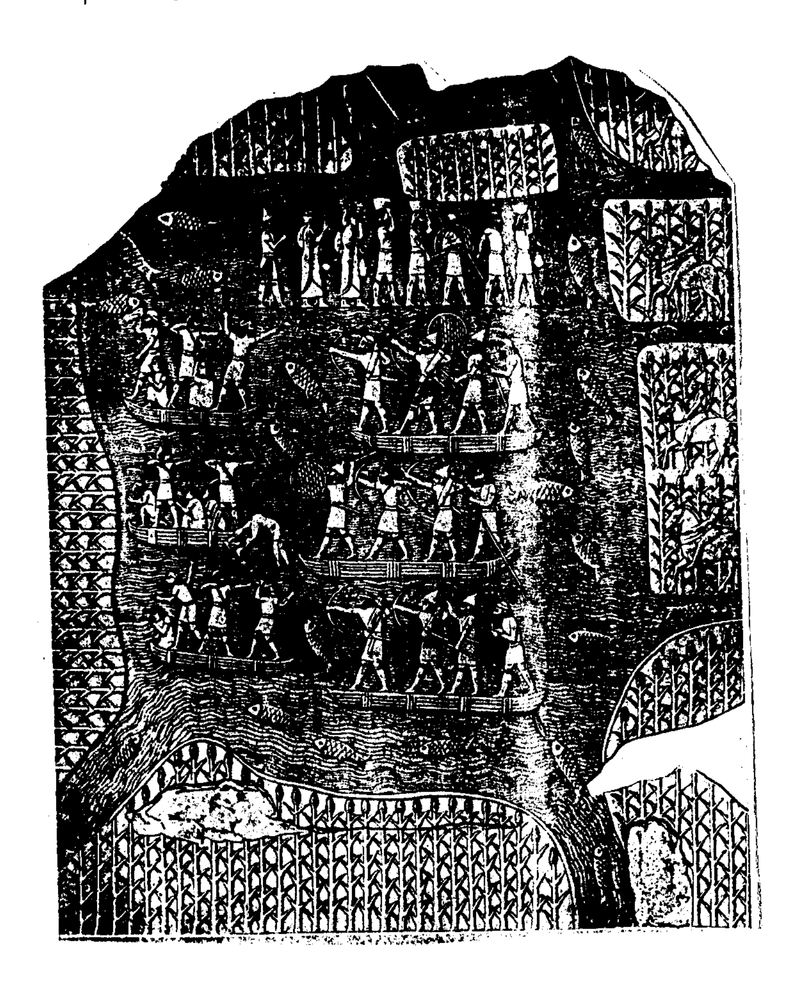
ولم ينسَ سنحاريب خصمه العنيد مردوك أبلا إدين الذي التجأ إلى عيلام . فقرر إنهاء مشكلته، ومهاجمة عيلام التي تدعمه في عقر دارها. فكلف عمالاً سوريين ببناء أسطول من السفن النهرية في نينوى، وحمل عليها مقاتلين من أسرى صور وصيدا وقبرص، ثم أكمل عدة جيشه وقواته في بابل، ودفع فصائل من خيرة قواته لعبور الخليج إلى عيلام، حيث دمرت وأحرقت عدداً من المدن، وعادة محملة بالغنائم الوفيرة وبالأسرى العيلاميين. ولكن الملك العيلامي كال له الصاع صاعين. فقد هاجم بابل فجأة في العام نفسه، ووصل إلى سيبار، فأحرقها وقتل أعداداً كبيرة من سكانها، واقتاد ابن الملك الآشوري أسيراً إلى عيلام، بعد أن أجلس مكانه صنيعة له

---

(٢٨) المرجع الأخير، ص ١١١ - ١١٣.

مكتبة المهتدين الإسلامية

على عرش بابل. فما كان من سنحاريب إلا أن عاد في السنة التالية (٦٩٣) للأخذ بثأره من الملك العيلامي وصنيعته في بابل. فهاجم تجمعاً لقوات الأعداء في مدينة نيبور ، فرّ على أثره الملك العيلامي على رأس قواته، ووقع صنيعته بيد الآشوريين أسيراً. ثم طارد سنحاريب العيلاميين، ولكنه توقف بعد ذلك لدخول فصل الشتاء، وعاد إلى آشور. أما البابليون فدعوا زعيماً كلدانياً للجلوس على عرشهم.



جنود سنحاريب يقاتلون في الخليج العربي

فاتفق هذا مع الملك العيلامي، وكوّن حلفاً قوياً مع سكان الجبال الجنوبية الشرقية من آشور والقبائل الآرامية. وشكّل جيشاً جراراً تجمع حول القوات

http://www.al-maktabeh.com

العيلامية الرئيسة بعرباتها الحربية، وفرسانها، ومشاتها المسلحين بأحسن الأسلحة، والتقى قرب سامراء على نهر دجلة الجيش الآشوري. فكانت معركة رهيبة بين الفريقين، تكبد فيها الطرفان خسائر لاتعد ولاتحصى، ولكنها لم تسفر عن نتيجة حاسمة. وقد احتاج بعدها سنحاريب إلى سنتين لإعادة التوازن إلى قواته. ثم زحف إلى بابل للانتقام منها هذه المرة في عام ٦٨٩. فقتل من أهلها الكثير، وأُسر منهم أعداداً كبيرة، وباع الكثيرين منهم في أسواق النخاسة، ولم يتورع عن تحطيم عدد من تماثيل آلهتهم أو أسرها أيضاً، وتدمير المعابد والبيوت، ثم أمر بتوجيه مياه النهر إلى المدينة لإغراق ماتبقى فيها من بيوت. فعبّر بتصرفاته هذه القاسية تجاه بابل عن غضبه الشديد، وعن حقده على أهلها الذين عدّهم مقصرين في إنقاذ ابنه وولي عرشه، بل ومذنبين ويستحقون العقاب الصارم لوقوفهم مع الزعيم الكلداني الذي عينوه ملكاً عليهم، ووافقوه على بيع ممتلكات معبد الإله مردوك لشراء الحلفاء الجبليين، ومحاربة الآشوريين قبل عامين مع العيلاميين في معركة كادت توقع به كارثة فظيعة، وتكبّد فيها الخسائر الجسيمة. وتعد هذه الصرامة والقسوة مع أهالي بابل، ولاسيما بالانتقام والثأر منهم ومن معبوداتهم، سابقة لم يقدم عليها أي من ملوك آشور من قبل ، لأنهم كانوا يقدسون الآلهة نفسها، وأقاموا لها المعابد في آشور نفسها. ولكنه الشعور القومي الذي أطاح بعقلانية الملك الآشوري، والذي عبر عن حقد دفين لدى الملوك الآشوريين على البابليين ذوى الحضارة العريقة، والذين كانوا يأنفون من التبعية للآشوريين بعزة وتعالٍ وكبرياء.

انتهت حياة سنحاريب في عام ٦٨١ على يد أحد أبنائه، كما تذكر المصادر البابلية، أو على يدي اثنين من أبنائه، بحسب الرواية التوراتية ، حيث سقط قتيلاً في المعبد، بعد انتفاضة قامت في العاصمة ضده لأسباب مجهولة، ولعل أحد أسبابها كانت مسألة ولاية العهد وخلافته على العرش. وقد رأى البابليون في نهايته المحزنة انتقاماً من إلههم مردوك على مافعله بمدينته ومعبده. كما رأى فيه اليهود انتقاماً من الرب الذي أهانه الملك الآشوري في أورشليم قبل عشرين سنة [٢٩] .

---

(٢٩) المرجع السابق، ص ١١٧ - ١١٨ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

اعتلى العرش أسرحدّون (٦٨١ - ٦٦٩ ق.م) أصغر أبناء سنحاريب بعد أن كان قد عينه والده ولياً للعهد، فبادر باديء ذي بدء إلى القضاء على القلاقل والبلبلة التي أدت إلى مقتل أبيه، ثم انصرف إلى تطبيق سياسة جديدة تجمع بين اللين وإقامة الصلات مع جيرانه، والشدة والقوة الصارمة مع المشاكسين والمتمردين.

فارتأى أن يعالج المسألة البابلية، وقد خلفت في نفوس البابليين تصرفات سنحاريب القاسية آثاراً سلبية عميقة، بطريقة اتصفت باللين واسترضاء الأهالي، فأمر بإعادة بناء بابل ومعابدها من دون إبطاء، كما وجّه بإعادة بناء معابد المدن الأخرى، وسمّى نفسه حاكماً على بابل حفاظاً على شعود البابليين، فتهيأت له أسباب المصالحة مع السكان الذين ذاقوا العذاب، وعانوا من انتقام أبيه المروع، ولاسيما بادعائه أن مردوك هو الذي أمره بإصلاح ذات البين، وقرر إنهاء معاناة البابليين الذين كانوا مقصرين في طاعته، فحق عليهم ما أقدم عليه سنحاريب من قصاص. وأعاد لبابل وسيبار ونيبور امتيازاتها القديمة. ثم عقد اتفاقية صلح مع العيلاميين الذين عرفوا أن لاطاقة لهم على محاربة الآشوريين، بعد الهزائم التي لحقت بهم، وتم توقيعها في عام ٦٧٥. كما مال إلى التسامح مع القبائل الآرامية في الجنوب البابلي بعد أن تغلبت عليهم قواته، وأكدت سيادة آشور عليهم، فمال إلى الاستغناء عن معاقبة زعمائهم، فعاد الهدوء والسلام ليخيم علي بلاد بابل، وعلى علاقة آشور بعيلام.

أما في سورية فكانت أوضاعها قلقة منذ عهد أبيه، ولم تكف مصر عن إثارة القلاقل فيها، وتحريض حكامها على الوثوب في وجه الحكم الآشوري. فأوعز باحتلال حصن حدودي في جنوبي فلسطين، وقام بإخضاع تمرد قامت به صيدا، وسحق الثائرين بالقسوة الآشورية المعهودة، مما حمل مدينة صور علي عقد تفاهم مع آشور، وقبرص على إرسال الهدايا إلى الملك الآشوري حتى لايقدم على احتلالها. كما سارعت المدن السورية الأخرى إلى إرسال الجزى.

ولكن مصر كانت تشكل هاجس أسرحدون الأول، وكان والده يعتزم من قبل القضاء على مصدر المشاكل الآشورية الذي يتمثل في الملك المصري، ووضع حد

http://www.al-maktabeh.com

لتدخل المصريين في سورية ومساعدة أهلها في تمردهم، وتصديهم للقوات الآشورية على الدوام. فتوصل إلى قناعة مفادها احتلال مصر نفسها، وبسط السيادة على أراضيها وقهرها في عقر دارها. فاشتبكت قوات الآشوريين مع قوات الملك المصري طاهرقا (ذي الأصل النوبي ٦٩٠ - ٦٦٤ ق.م) في عام ٦٧٤ بعد اجتيازها الحدود المصرية، ولكن الحملة منيت بالفشل الذريع، فعاد الآشوريون من حيث أتوا. فانشغل الجيش الآشوري حينئذ بتهدئة الأوضاع في الشمال حيث حلت أقوام آرية جديدة من الاسكيثيين والكيميريين، وبالشرق حيث كانت القبائل الميدية الإيرانية المسالمة لاتثير المشاكل المقلقة بعد. وكان الآشوريون قد أقاموا سلسلة من الحصون بين عيلام في الجنوب وأورارتو في الشمال لمراقبة تحركات الجيران، وإنذار الدولة في الوقت المناسب. وربطوا تلك المناطق بقيادة الجيش عن طريق جهاز الاستخبارات العسكرية الفعال. وقد علم أسرحدون بواسطة هذا الجهاز عن محاولة قام بها زعماء القبائل الميدية في إيران لتوحيد قواهم وإنشاء اتحاد يضم الميديين جميعهم، كما تذكر نصوصه.

وقاد أسرحدون في عام ٦٧٥ حملة تأديبية ضد القبائل العربية في منطقة تقع في شمال شرقي شبه الجزيرة العربية ، تدعوها المصادر الآشورية باسم بازو، وتصفها بأنها تقع بعيداً في الصحراء، وغير معروفة، مالحة الأراضي، وموطن للعطش، صحراء مترامية الأطراف تعج بالثعابين والعقارب كالنمل الذي يغطي وجهها (٣٠). وكان أسرحدون قد وجه حملة تأديبية أخرى من قبل ضد زعيم عربي اغتصب الحكم من ابن الزعيم العربي المخلص للآشوريين حزائيل في سورية أيضاً.

ثم عاد أسرحدون في عام ٦٧١ إلى مصر ليحقق غايته في القضاء على مصدر الفتنة ليقطع معونتها عن حلفائها في سورية، وتحطيم قوتها العسكرية. واستعان بعرب الصحراء ليدلوه على الطريق السالك عبر شبه جزيرة سيناء. واشتبك مع المصريين في معارك ضارية في طريقه إلى مدينة ممفيس، وعند المدينة نفسها، ثم اقتحم المدينة واحتلها، وترك حاكمها في منصبه، وخرج منها بكنوز

---

(٣٠) R. Borger, Die Inschriften Asarhaddons, in : Afo Beiheft 9 (1959), S. 56 f.

مكتبة المهتدين الإسلامية



أسرحدّون يمسك أنفي عدويه طاهرقا وملك صور بالحبل

http://www.al-maktabeh.com

طائلة وأعداد كبيرة من الفنيين والمهنيين للإفادة من خبرتهم في أعماله المعمارية في نينوى. أما الملك طاهرقا فقد هرب إلى أقصى الجنوب. وبعد أن رجع الجيش الآشوري إلى موطنه، ثار المصريون وأعادوا طاهرقا إلى عرش مصر. فاعتزم أسرحدون الزحف إلى مصر من جديد، ولكنه انشغل بمشكلة وراثة العرش عاماً كاملاً، ثم خرج على رأس جيشه قاصداً مصر لتأديب الثوار، ولكن الموت فاجأه وهو في الطريق، وحال دون التوصل إلى بغيته التي نفذها ابنه من بعده.

قرر أسرحدون تعيين ابنه آشور بانيبال ولياً للعهد بعد موت أخيه الأكبر متجاوزاً الابن الثاني شمش شوم أوكين الذي كان ميالاً إلى البابليين ومناصراً لهم. وثبت وراثة العرش لآشور بانيبال في اجتماع ضم كبار رجال الدولة والقادة العسكريين، وحمل هؤلاء على القسم بولائهم لولي العهد الجديد [٣١]. كما أعلن تولية ابنه الثاني ملكاً على بابل حتى لايثير أنصاره، ويشعر بالظلم. ولكن المشكلة لم تجد حلها بهذه الطريقة، بل أثارت الرفض عند بعض القادة العسكريين ورجال الدولة فرفعوا رايه العصيان، وأعلنوا معارضتهم لولاية آشوربانيبال في عام ٦٧٠، فاضطر أسرحدون إلى إخماد الفتنة بالقوة، فأعدم عدداً من كبار المتمردين.

تسلم آشوربانيبال الحكم بعد وفاة أبيه وهو في الطريق إلى مصر لإخماد ثورتها، في عام ٦٦٩، وبقي على العرش الآشوري مدة من الزمن تتراوح بين اثنتين وأربعين سنة وثماني وثلاثين، أي حتى حوالي عام ٦٢٧ ، أو ٦٣٠ ق.م. أما أخوه فقد اعتلى عرش بابل بعد بضعة شهور تنفيذاً للاتفاق الذي تم في عهد الوالد.

كان آشوربانيبال آخر الملوك الآشوريين العظام من الأسرة السرجونية، وآخر ملوك آشور الأقوياء. فقد جمع بين شخصية الملك القائد الشجاع، والمحارب العنيد، والسياسي المحنك، وبين شخصية الملك المثقف المحب للعلم والمعرفة، والشغوف بالثقافات القديمة وتراثها الأدبي والعلمي، إذ كان يرسل إلى ولاته على

---

(٣١) كان لجدته السورية (أو أمه) نقيئة زاكوتو، دور أساسي في تعيينه ولياً للعهد، وفي جلوسه على العرش. فقد كانت قوية الشخصية، وتتمتع بذكاء وحنكة سياسية لاتُضاهى فتمكنت من تعيين أسرحدون ملكاً، ثم آشوربانيبال ولياً للعهد، ثم ملكاً على آشور. أنظر :

W. von Soden, Herrscher, S. 118, 127 ; FW, 4, S. 84 .

مكتبة المهتدين الإسلامية .

الأقاليم يأمرهم بالتحري عن الألواح المسمارية القديمة ، حيثما وجدوها، لإرسالها إليه، وإذا تعذر عليهم إرسالها أن ينسخوها، وأنشأ مكتبة في نينوى ضمت أكثر من خمسة وعشرين ألف رقيم، تعد من أثمن ما تم الكشف عنه من تراث رافدي قديم. وقد وصف نفسه في نص قال فيه : «لقد تعلمت (في مقتبل عمري) اكتشاف أسرار الكنوز الدفينة (المتمثلة في) كل فنون الكتابة على الألواح الطينية. وأستطيع تفسير علامات السماء والأرض وإشاراتها وأتنبأ معانيها. وقادر على المناقشة في مجالس العلماء ... وعلى حل المسائل الحسابية المعقدة الغامضة والعويصة التي تحتاج إلى عمليات تقسيم وضرب. وقد قرأت رقماً كثيرة عسيرة الفهم كُتِبَت باللغة السومرية الرفيعة، وباللغة الأكدية التي كان من الصعب فك طلاسمها. واطلعت علي الكتابات الحجرية التي يتعذر استيعابها، والتي يعود تاريخها إلى ماقبل الطوفان. وكنت أقوم يومياً بجملة من الأعمال : أمتطي دائماً الخيول، وأركب الأصيلة والمطهمة من الأفراس، وأتناول الأقواس وأجعل النبال تتطاير، كما يليق بالمحاربين الأشداء، وأقذف الحراب الثقيلة كالسهام .. وأركب مختلف أنواع المركبات، وأصنع بنفسي مثل الحدادين البارعين الأسلحة والدروع، وأفهم في علوم العلماء المتنوعة(٣٢) . ويؤكد حديثه عن نفسه، على ما فيه من مبالغة واعتداد بالنفس، أنه تلقى تربية بدنية وعلمية متنوعة الجوانب، لم يظفر بمثلها أمير من قبل، وقد دللت عليها تصرفاته، ورسائله، ومواقفه المختلفة في حياته السياسية والعسكرية.

ما أن استقر آشوربانيبال على العرش حتى بادر إلى تأديب المصريين الذين أعلنوا العصيان على الحكم الآشوري في السنة الأخيرة من حكم والده. وقد لقي هذاحتفه في سورية وهو يزحف بجيشه إلى مصر، كما ذكرنا. فاستعان آشوربانيبال بقوات من سورية لفرض السيادة الآشورية، وسار أربعة وعشرون ملكاً، «من ملوك شاطئ البحر، والجزر، ومن سورية الداخلية» تحت قيادة القائد الأعلى للجيش الآشوري الذي اصطدم بالجيش المصري في عام ٦٦٦ بقيادة طاهرقا في ممفيس، فانهزم الملك المصري ثانية، ونجا بنفسه في سفينة أقلته إلى

---

(٣٢) . W. von Soden, op. cit. p. 127 FW, 4, S. 91

http://www.al-maktabeh.com

الجنوب. وتابع الجيش الآشوري زحفه إلى طيبة، العاصمة القديمة، فاستولى عليها، وقام الجنود الآشوريون بنهبها، ولكنهم لم يستطيعوا الإمساك بطاهرقا الذي أفلت منهم، والتجأ إلى موطنه في النوبة العليا. وما أن انسحب الجيش الآشوري من مصر بعد أن عاد الهدوء إلى الدلتا بإعادة أمرائها إلى مراكزهم، وبينهم نيكاو الأول وابنه بسماتيك، حتى سعى أمراء الدلتا إلى الاتفاق مع طاهرقا للعودة من جديد. ولكن القادة الآشوريين سارعوا إلى إخماد الفتنة، فقبضوا على زعمائها وأرسلوهم إلى نينوى لينالوا جزاءهم. وعندما مات طاهرقا، قام خليفته باسترجاع ممفيس من الآشوريين، ودحر الحاميات الآشورية في مواقع أخرى. ولكن آشوربانيبال سارع إلى الزحف إلى مصر بنفسه، وقد انتوى الانتقام هذه المرة، فوصل إلى طيبة، ودمّرها، ونهبها ومفيس من جديد في عام ٦٦٤. وبقي الآشوريون في مصر من دون أن يلقوا المتاعب حتي خرجوا منها على يد صنيعتهم بسماتيك نفسه في عام ٦٥٥ق.م. وفي هذه الأثناء كان آشوربانيبال يراقب بحذر شديد الأقاليم الشمالية من الامبراطورية التي بلغت أقصى أتساع لها بعد احتلال طيبة. فقد استقر الكيميريون في شمال شرقي شبه آسية الصغرى، وباتوا يهددون أطراف الامبراطورية الشمالية، والأقاليم المجاورة، ويفرضون الجزية علي جيرانهم، فسعى ملك ليديا (في غرب آسية الصغرى) إلى التقرب من آشوربانيبال، ثم مال إلى أعدائه في مصر، ولكن الكيميريين قضوا عليه وعلى دولته قبل أن يحقق الأمان لنفسه ولبلده.

أما المشكلة الحقيقية فكانت تنتظر آشوربانيبال في بابل حيث كان أخوه الأكبر يجلس على عرشها، ولم يكن قانعاً بمنصبه الذي تنقصه صلاحيات الملك الآشوري العليا. فجهز نفسه للصراع، وعمد إلى تحصين المدن الخاضعة له، وسعى إلى إيجاد الحلفاء الذي يقفون إلى جانبه إذا ماقام بالتمرد وإعلان العصيان على أخيه ملك آشور وسيد البلاد الحقيقي. وقد وجد الحلفاء المناسبين الذين تمثلوا بأغلبية البابليين والآراميين في بلاد بابل، والقبائل العربية في شمال شرقي شبه الجزيرة العربية، وبعض الأقاليم في سورية، وغربي إيران، وعيلام في المقدمة، وكلهم كانوا يحقدون على الآشوريين ويتمنون الخلاص من جبروتهم وأساليبهم القمعية

مكتبة المهتدين الإسلامية

القاسية. ولكن آشوربانيبال كان لهم بالمرصاد، وقد شعر بما يُدَبّر له في السر. فبادر إلى الحيلولة دون اتفاقهم، وإلى ضرب كل منهم على حدة، في الوقت الذي انشغلت عيلام بمشاكلها الداخلية. ثم زحف على بابل في عام ٦٥٠، فحاصرها ولم يستطيع اقتحام أسوارها المنيعة، واكتفى بالانتظار حولها سنتين حتى هدّ الجوع قوى المدافعين عنها. وعندما حاولت القبائل العربية فك الحصار عن المدينة، وهاجمت الآشوريين على ظهور الجمال، رُدّت على أعقابها، ومن نجا من القتل التجأ إلى المدينة، وشكّل عبئاً على أهل المدينة وتموييناتهم القليلة. وعندما حانت الفرصة لدخول بابل في عام ٦٤٨، اقتحمها الآشوريون من دون قتال، وآثر ملكها شمش شوم أوكين، أخو آشوربانيبال الانتحار حرقاً في قصره. أما حلفاء بابل في الجنوب فقد لقوا جزاءهم، وعادوا صاغرين إلى الخضوع للحكم الآشوري.

ثم جاء دور عيلام التي مزقتها الخلافات الداخلية، ولكنها كانت تصحو بين الحين والآخر، ولاتزال تكن العداء للآشوريين، وتحرض الآراميين ضدهم، وتمدهم بالعتاد والمقاتلين كلما تهيأت الفرصة لذلك. فاتخذ آشوربانيبال قراره بالقضاء على عيلام، ومهاجمتها في عقر دارها، وشرع في دخول أراضيها في عام ٦٤٧ق.م. عن طريق محورين، أحدهما كان يمر في الجنوب بمحاذاة أطراف الخليج، والثاني عبر مدينة دير في الشمال، فغدت عيلام بين طرفي كماشة لاحول لها ولاقوة. ثم مالبثت العاصمة سوسة أن وقعت بيد الفاتحين الآشوريين الذين دمّروها، ولم يتركوا فيها حجراً فيها فوق حجر. وانتهى بذلك حوالي عام ٦٤٦ق.م دور عيلام التاريخي، ولم يعد لها مكان في مسرح السياسة في الشرق القديم، وصارت إقليماً آشورياً، وسقطت معها البلاد المجاورة من دون مقاومة، ومنها أرض الفرس برسومس التي أرسل ملكها قورش الأول الجزية إلى نينوى، ومعها ابنه رهينة لدى الملك الآشوري (٣٣).

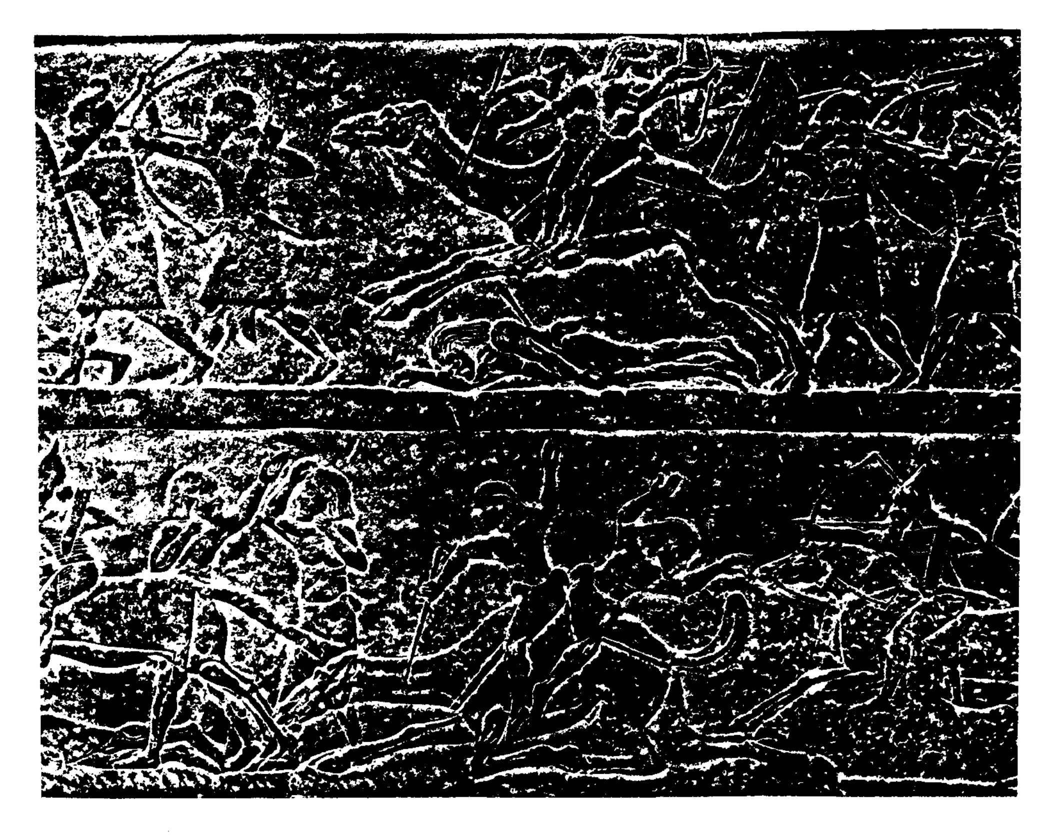
أما القبائل العربية التي تحالفت مع الأخ المتمرد، فقد حاولت جماعات منها فك الحصار عن مدينته، كما ذكرنا وأثار الآخرون القلاقل والاضطرابات في البادية السورية وعلى أطرافها، وهاجموا الحاميات الآشورية في سورية وبعض المدن

---

(٣٣) E. F. Weidner, Afo 7 (1931) S. 3.

http://www.al-maktabeh.com

الفلسطينية. فقرر آشوربانيبال إلقاء مسؤولية القصاص منهم على عاتق الحاكم الآشوري في دمشق. فشرعت القوات الآشورية بحرق مخيماتهم في أنحاء شتى من البادية، ونهبت جمالهم ومواشيهم [٣٤]. أما زعيمهم يواثع فهرب إلى بلاد الأنباط، فسلمه ملكها للآشوريين خوفاً من بطشهم، وقبض الجنود على زوجته أديّة، وتمكنوا من الإمساك بزعيم القبيلة العربية قيدار، وأكملوا بذلك معاقبة المتآمرين، ولم يتسطع واحد منهم الإفلات من عقاب آشوربانيبال. ثم عمد إلى تهجير جماعات من عيلام وإرسالهم للاستطيان في السامرة وفلسطين.



قوات آشوربا نيبال تقاتل البدو العرب وهم على الجمال

---

(٣٤) T. W. Rosmarin, Aribi und Arabien in den babylonisch- assyrischen Quellen, in : JSOR 16 (1932), S. 1 ff; FW, 4, S. 207 - 208 .

مكتبة المهتدين الإسلامية

إن المعلومات عن آشوربانيبال التي كانت متوافرة طوال سنوات حكمه بغزارة، ولاسيما من خلال حولياته التي لم تنقطع سلسلتها، ومن خلال نصوصه وآثاره المنقوشة والمصورة المتواصلة، انقطعت من بعد إنهاء عيلام السياسي، والإجهاز عليها، وإعادة الأمور إلى نصابها في بلاد بابل، وفي كل المناطق التابعة للامبراطورية. وبدت الأحوال وكأنها استتبت لآشوربانيبال وفقاً لما كان يروم. فقد توقفت الحوليات الملكية لأسباب مبهمة عن الحديث عن أعمال الملك ونشاطاته الداخلية والخارجية منذ عام ٦٣٩ق.م. وكانت المعلومة الأخيرة فيها تتصل بمحاولة قام بها قورش الأول، ملك الفرس، للتقرب من آشور بغية تمكنه من الوقوف في وجه طمع الميديين في بلده. ثم تسكت المصادر عن تزويدنا بأي خبر يفيدنا في التعرف على مجريات الأحداث التي تطورت بسرعة مذهلة أدت إلى تقويض دعائم الامبراطورية من بعد آشوربا نيبال، أو ربما في السنوات الأخيرة من عهده . كما لانعرف إن كانت نهايته طبيعية، ولا في أي عام مات، إذ إن العام ٦٢٧ ، أو ٦٣٠ ماهو إلا من قبيل الاحتمال. وثمة احتمال أيضاً بأن الحكم انتقل إلى أحد أبنائه بسبب شيخوخته وهو بعد على قيد الحياة، أو بسبب ظهور الاضطرابات الداخلية. ونرى نتيجة للمعطيات التاريخية أن نهاية عهد آشوربا نيبال غامضة، وهو العهد الذي كانت فيه السنوات الثلاثون الأولى مثالاً لقوة الامبراطورية وثرائها، ومجدها المتألق، على الرغم من الإحساس بوجود عوامل عدة كانت تنخر في جسم الدولة من الداخل.

فمن الصعب استيعاب ماحدث فجأة من انهيار ذلك البناء الشامخ الضخم الذي كانت تمثله امبراطورية عظمى بحالها. ولكن المتتبع للتاريخ الآشوري في العصر الحديث، ولاسيما في دوره الثاني، وهو الدور الذي ظهر فيه السرجونيون : سرجون الثاني ، وسنحاريب ، وأسرحدون، وآشوربانيبال، يتنبه إلى ظواهر بادية للعيان ، وهي :

١ - لقد بالغ الملوك في الحروب التي قاموا بها، ولم يركنوا إلى الراحة إلا لماماً. ومدّوا فتوحاتهم إلى جهات بعيدة عن مركز الدولة، بل نائية جداً،

http://www.al-maktabeh.com

ومصر مثال واضح على ماننذهب إليه. وهذا الإغراق في سياسة الفتح والغزو، والإغراق في النواحي العسكرية ، وتفشي الروح الحربية في نفوسهم قادهم إلى تكليف الدولة ومواطنيها المحدودة العدد في الأصل، وإلى تحميل الدولة والمواطنين ما لاطاقة لهم به، وتكليفهم أعباء مادية وبشرية لاقبل لشعب بها مهما بلغ عدده وعدته.

٢ - ومد الفتوحات إلى جهات بعيدة زاد في الأعباء المذكورة أضعافاً مضاعفة، إذ لاسبيل للاحتفاظ بتلك المناطق البعيدة، مهما كانت أسباب القوة متوافرة، إلا بتوافر القوات والبشر الذين يقيمون فيها إقامة دائمة، وهذا أمر يتعذر تحقيقه لأن عدد الآشوريين في وطنهم الأصلي ذاته قليل. فأنهك الملوك شعبهم بهذه السياسة التي وفرت من جهة الموارد الضخمة عن طريق الجزى، ونهب خيرات البلاد المفتوحة، ولكنها أرهقت الشعب والدولة، واستهلكت تلك الموارد بسرعة. وحوّلت الجيش الآشوري إلى أداة، بل عصابة منظمة، تمتلك آلة حربية جبارة للنهب والسلب وجمع الأموال فحسب. وقراءة سريعة للحوليات الآشورية تؤكد ماقلنا، فلم تهدأ الحروب، وكان على الجيش أن يكون في حالة استنفار دائم، ومستعداً للتحرك إلى مناطق بعيدة في كل وقت يطلب إليه قمع تمرد، أو احتلال بلد جديد لحماية المناطق المتاخمة، فأي جهد يبذله، وأية مشقة يتكبّدها ؟

٣ - اتبع الملوك وقادتهم العسكريون سياسة القسوة والتدمير، والقتل الجماعي والتمثيل بالأسرى. فاتسمت سياستهم بالشدة التي مازتهم من الممالك السابقة واللاحقة، وهي سياسة طبقوها على شعبهم، كما مارسوها مع الشعوب المغلوبة، وكأن طباعهم الشخصية كانت فيها هذه الصفة الطاغية. وقد ظنوا أنهم يستطيعون بسياستهم الإرهابية، وبالبطش بالأعداء أن يضمنوا خضوع المغلوبين، وولاءهم. ولكن النتيجة انعكست عليهم ، إذ استفزوا الشعوب والمدن المغلوبة، وولّدوا في

مكتبة المهتدين الإسلامية

النفوس نقمة وحقداً على الآشوريين، جعلهم يحاولون التخلص من استبداد الآشوريين مرات كثيرة. وهم وإن دفعوا الجزية وتلقوا العقاب الصارم والفظيع، من سلخ للجلد، أو تشويه في الجسم، وعاهة دائمة، وموت على الخازوق، فإنهم كانوا يعاودون الكرة، محاولة منهم لنيل الحرية، والتخلص من نير الظلم والطغيان الآشوري. فكانوا يعلنون الخضوع للآشوريين، ويدفعون الجزية، ولكن ما أن ينسحب الجيش الآشوري، وتزول أداة الضغط الغليظة عن كاهلهم، حتى يتمردوا ويعلنوا العصيان والسخط على الغزاة القساة. فيرجع الجيش الآشوري لإخماد التمرد ومعاقبة المتمردين.

ومهما تكن الأسباب والعوامل التي أدت إلى انهيار الدولة بعد آشوربانيبال، فإن ابنين له حكما آشور من بعده، فحاول أولهما الحفاظ على الدولة مااستطاع إلى ذلك سبيلاً في خلال السنوات الأربع التي جلس فيها على العرش. ثم جاء أخوه الذي ماعاد بإمكانه إيقاف التدهور الذي حل بالبلاد، وواجه هجوماً من ملك بابل الكلداني نبوبولاصر الذي تجرأ على غزو آشور، وكاد أن ينجح في دخول العاصمة، غير أن الملك الآشوري طلب النجدة من ملك مصر بسماتيك، فوصلت قواته متأخرة. وكان الملك الميدي قد وصل هو الآخر بزحفه إلى منطقة أرابخا (كركوك) فاحتلها في عام ٦١٥ق.م، فنهب قصورها ومعابدها. والتقى حينئذ بالملك الكلداني عند أسوارها بعد أن تم للميديين احتلالها، مما اضطره إلى توقيع معاهدة مع الملك الميدي تنص على علاقة حسن الجوار والصداقة، ثم تُوِجّت بزواج ولي العهد الكلداني نبوخذ نصر (الثاني) بابنة ملك الميديين.

ثم شدد الميديون والبابليون (الكلدانيون) هجومهم المشترك على العاصمة نينوى، ودخلتها القوات الميدية في عام ٦١٢ ق.م، فدمرتها تدميراً عنيفاً، وقتلوا ملكها الأخير سين شر إشكون. ويبدو أن البابليين لم يسهموا في تدمير نينوى والمدن الآشورية الأخرى، كما تذكر نصوصهم، بل اكتفوا بالمشاهدة، لأن الميديين كانوا بحسب وصفهم «كالإعصار ، يكتسحون مافوقهم وما تحتهم، وما على يمينهم

http://www.al-maktabeh.com

ويسارهم»، ولم يأبهوا للمقدسات الآشورية وللمعبودات ، فدمّروا وحرقوا المعابد ومافيها ، فلم يجد الملك البابلي أمامه إلا أن يرسل شعره مهوشاً من دون تمشيط، ويؤثر النوم على الأرض من دون الأسِرّة، تدليلاً على براءته من انتهاك حرمة المعابد على أيدي حلفائه الميديين. وأعمل الميديون الحاقدون على الآشوريين يد القتل في السكان، ولم يذروا منهم إلا القليل، كما تذكر المصادر اليونانية، ولم تنجح مدينة من مدنهم من الخراب والتدمير الكامل.

استطاع قائد آشوري يدعي آشور أوبلط (الثاني) أن يفلت مع عدد من الفرق العسكرية من الميديين والكلدانيين، فوصل إلى مدينة حران واتخذها مركزاً لسلطته التي اعتبرها امتداداً لسلطة الملوك الآشوريين. ولكن المدينة سقطت في عام ٦٠٨ بيد الكلدانيين، فانسحب آشوأوبلط بقواته إلى كركميش حيث وصلته النجدة المصرية التي أرسلها الملك نيكاو الثاني. وفي عام ٦٠٥ تقابل الجيش البابلي بقيادة ولي العهد نبوخذ نصر الثاني والقوات المصرية ومعها البقية الباقية من الجيش الآشوري في معركة ضارية عند كركميش، حسمت لصالح الجيش البابلي، فانسحب المصريون من ميدان المعركة إلى بلادهم مولين الأدبار.

وتم الاتفاق بين المتحالفين من الجانب الميدي والجانب البابلي على اقتسام تركة الامبراطورية الآشورية بينهما . فكانت المناطق الشمالية والشرقية من نصيب الميديين، والمناطق الجنوبية والغربية من نصيب البابليين، وتشتمل المناطق الغربية على أجزاء من بلاد الرافدين، وعلى سورية بكاملها . ولكن كان على البابليين أن يحتلوا سورية وأن يستخلصوا جنوبيها ، ومنها فلسطين، من المصريين الذين كانوا يتمتعون بنفوذ سياسي فيها نتيجة لتعاونهم المتواصل من قبل مع مواطنيها وحكامها .

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

الفصل السابع

الدولة البابلية الحديثة (الكلدانية)

(٦٢٦- ٥٣٩ ق .م)

أقام الكلدانيون ، وهم فرع من الآرميين ، في جنوب العراق منذ أواخر العصر الكاشي ، وكونوا إمارات عدة، كانت أكبرها بيت داكوري ، وبيت ياقين ، وبيت اموكاني ، في المنطقة الواقعة إلى الشمال من الخليج العربي وسيطرت قبائل آرامية أخرى على المنطقة الممتدة بين مدينة بابل وبورسيبا. وقد سعى ملوك الدولة الأشورية الحديثة منذ أواخر القرن العاشر قبل الميلاد ، كما مر بنا ، إلى بسط السيادة الأشورية على القبائل الآرامية ، وإلى إضعافهم وسحق قواتهم التي كانت تتمرد على الآشوريين ، كلما سنحت الفرصة ، وتتحالف مع ملوك بابل الذين كانوا يتطلعون إلى الانفصال عن أشور ، والاستقلال عن نفوذها، في عهد خلفاء شلمانصر الثالث ، وفي عهد أددنراري الثالث ، وعهد تيجلات بيليصر الثالث ، وعصر السرجونيين ، إذ ظهر في هذا العصر من بيت ياقين مردوك أبلا إدين الذي جلس على عرش بابل أكثر من مرة ، فجر عليه وعلى أهله عداوة البيت السرجوني حتى عهد الملك آشوربانيبال .

ثم أسس الحكم البابلي الجديد كلداني يدعى نبوبولاصر (٦٢٦ - ٦٠٥ق.م) الذي جلس على العرش البابلي، واتخذ لقب «ملك أكد» برضى الملك الآشوري نفسه، إذ استغل الأوضاع المضطربة في آشور والضعف الذي جعل الآشوريين لايقوون على مجابهة أعدائهم، والحد من أطماعهم في دولتهم التي كانت تعيش سنواتها الأخيرة. وكان نبوبولاصر حاكماً عينه الملك الآشوري على منطقة القطر البحري

مكتبة المهتدين الإسلامية

المتاخمة للخليج العربي، ثم وسّع منطقة نفوذه بعد موت آشوربانيبال باتجاه الشمال حتى وصل إلى نيبور. وعندما لمس ضعف آشور تجرأ على دخول مدينة بابل وإعلان نفسه ملكاً عليها، ولم تمض عشر سنوات على حكمه حتى قاد قواته إلى آشور نفسها طمعاً في احتلالها وضمّها إلى سيادته. فقد اشتبك مع الجيش الآشوري عند نهر الزاب الأسفل، واستطاع دحره. وفي حملته الثانية في العام ٦١٦ نفسه حاصر مدينة آشور، العاصمة القديمة. ولكن الآشوريين قاموا بهجوم معاكس تمكنوا بوساطته من دفع المهاجمين إلى التراجع، ثم توقفوا عن متابعة زحفهم إلى بابل لأن الميديين وصلوا إلى أرابخا (كركوك) وباتوا يهددون آشور أيضاً. وفي عام٦١٤ اقتحم الميديون مدينة آشور، ونهبوها، وعندما وصل نبوبولاصر إلى آشور لم يجد غير الدخان المتصاعد من المدينة المدمّرة، فتقابل مع ملك الميديين وعقد معه معاهدة صداقة، وتزوج ولي العهد البابلي نبوخذ نصرالثاني ابنة الملك الميدي تأكيداً لأواصر الصداقة بين الطرفين.

وفي عام ٦١٢ توجه نبوبولاصر على رأس الجيش البابلي إلى مدينة نينوى حيث التقى الميديين ، فحاصروا المدينة ثلاثة أشهر حتى تم فتحها واقتحامها . ثم تعقب فلول الجيش الآشوري إلى حرّان التي انسحب إليها قسم من الجيش الآشوري بقيادة آشور أو بلّط (الثاني)، بينما اكتفى الميديون بنهب مدينة نينوى ، والحصول على كنوزها، بعدما دمّروها وأحرقوها. ووصل البابليون حتى نصيبين ، وفي نيته الوصول إلى حران، ولحق به جيش الميديين. فانسحب آشور أو بلّطَ بقواته وبعض القوات المصرية التي أرسلها الملك المصري لمؤازرته إلى الجهة الغربية من الفرات، ودخل البابليون مدينة حران، فنهبوها وتركوا فيها حامية عسكرية. وعندما حاول آشور أو بلّط في عام ٦٠٩ استرجاع حران بمؤازرة القوات المصرية الجديدة التي زوده بها الملك نيكاو الثاني، وحاصرها لمدة شهرين، من دون جدوى، انسحب بقواته من جديد. ومنذ ذلك التاريخ لم يرد ذكر آشور أو بلّط، واختفى اسمه من وثائق العصر كلية. وغدت مصر منذئذ خصم بابل الرئيسي في سورية بخاصة، لأن مصر كانت تعتبر سورية تابعة لها منذ القديم. أما الميديون فقد اكتفوا بفرض سيادتهم على آشور الأصلية، واعتبروا نهر دجلة بمثابة حدودهم الغربية، كما سيطروا على المناطق الشمالية من الامبراطورية الآشورية التي غابت عن الوجود.

http://www.al-maktabeh.com

بينما احتل البابليون بلاد مابين النهرين بكاملها، ومناطـق الفـرات الشـمالية حتـى ثنيته العليا، وصولاً إلى كركميش ، ومعها سورية بكـاملها حيث كانت آشـور من قبل.

{ ولما كان نبوبولاصر قد تقدمت به السن فإنه بدأ بالاتكال على ابنه وولي عهده نبوخذ نصر (نَبوكودرّي أوصُر) في تصريف أمور الدولة، وفي قيادة الجيش بدءاً من عام ٦٠٧.} وكان يوكل إليه مهمة الإدارة إذا خرج بنفسه قائداً للجيش، ويبقى في العاصمة إذا خرج ابنه بمهمة عسكرية.

شرع نبوبولاصر في احتلال سورية بمحاولة التخلص من الحاميات المصرية التي كانت كركميش أكبر مركز لها. فحاول إنشاء مركز قريب منها حيث وضع فيه حامية بابلية. ولكن المصريين أسرعوا إلى مهاجمة البابليين وتدمير مركزهم. وعندما أخفقت محاولة بابلية ثانية في التمركز في المنطقة ذاتها، اتخذ نبوبولاصر القرار بالاستيلاء على كركميش نفسها في عام ٦٠٥، وكلف نبوخذ نصر بقيادة العملية الحاسمة. واستطاع هذا بحنكته العسكرية أن يقتحم المدينة بعد معارك ضارية خارج المدينة، وداخلها ، كلفته الكثير من القتلى ، ولكن المصريين دفعوا ثمناً أكبر، إذ لم ينج منهم غير عدد من الجنود، فطاردهم حتى أبادهم عن بكرة أبيهم عند مدينة حماة، وسقطت بعدها سورية كلها حتى الحدود المصرية بيد البابليين من غير قتال .

وفي هذه الأثناء بلغ نبوخذ نصر نبأ وفاة أبيه، فأسرع مع قواته بالعودة إلى بابل حيث توج ملكاً في العام نفسه ٦٠٥. ولما كانت الأوضاع مستقرة فإن نبوخذ نصر الثاني وجد الظروف مناسبة لقيادة حملة عسكرية إلى سورية ليؤكد سيادة بابل عليها. فطاف فيها شمالاً وجنوباً، ولم يلق فيها أية معارضة، فرجع محملاً بالغنائم إلى بابل بعد حوالي خمسة أشهر. ثم عاد بعدها مرات عدة إلى سورية حتى عام ٥٩٥ ، ليتأكد بنفسه من استقرار أحوالها بعيداً عن التدخل المصري الذي كان يترقب حدوثه. وعندما شعر باتصال أمير عسقلان بملك مصر سارع في عام ٦٠٤ إلى فلسطين لمعاقبته ونهب المدينة. وبعدها بثلاث سنوات قرر مهاجمة مصر نفسها . ولكن قواته تكبّدت خسائر فادحة لاتقل عن خسائر المصريين في المعركة الضارية التي لم تسفر عن نتيجة حاسمة لأحد الطرفين، واحتاج نبوخذ نصر سنتين

مكتبة المهتدين الإسلامية

كاملتين ليعيد تنظيم قواته وتعويض الخسارة الفادحة التي حلت بها، ولاسيما في فرقة العربات الحربية، وفي سلاح الفرسان. ثم عاود مهاجمة بعض القبائل البدوية في جنوبي فلسطين، فأرسل فصائل مقاتلة من قواته لتأديبها عندما نُمِي إليه أنها كانت تتجاوب مع طلبات الفرعون، وزاد شكه في نوايا فرعون مصر نيكاو عندما تيقن من تفاهم جرى بينه وبين ملك يهوذا يهوياكين. فحاصره نبوخذ نصر في أورشليم، حتى سقطت بيده في عام ٥٩٧ ، واقتاد معه إلى بابل ٣٠٠٠يهودي أسرى، وعين على أورشليم صدقيا والياً تحت إشرافه. ودعا اليهود هذا النفي باسم السبي البابلي الأول.

ثم عاد نبوخذ نصر إلى سورية في عام ٥٩٤ لجباية الجزى من أمرائها حتى أمست عادة يكررها الملك سنوياً. ولكن ملك مصر الجديد أبريس (٥٨٩ - ٥٧٠) أراد أن يحيى نفوذ مصر على سورية، فغزا غزة وضمها إلى مصر، ثم هاجم مدينتي صور وصيدا عن طريق البحر ، وحرّض ملك أورشليم على العصيان. فأسرع نبوخذ نصر إلى فلسطين ، فطرد المصريين منها ولاحق فلول قواتهم، ثم التفت إلى اليهود في أورشليم، وحاصرها للمرة الثانية، ولكن حصارها استغرق هذه المرة الأخيرة ثمانية عشر شهراً [١] ، حتى اقتحمها بجنوده في عام ٥٨٧ق.م (أو ٥٨٦) ودمّرها، وأحرق هيكل سليمان ونقل خزائنه، ونفى أربعين أو خمسين ألفاً من أهلها إلى بابل «لينوحوا عند مياه الفرات» بحسب قول التوراة. وأطلق اليهود على هذا النفي اسم «السبي البابلي الثاني» وتم للبابليين أسر صدقيا عند مدينة أريحا، فقتلوا أولاده أمامه، ثم فقؤوا عينيه . وكان اليهود انقسموا إلى شيعتين : شيعة تزعمها صدقيا وتكلم باسمها نبيهم حنانيا فدعا إلى كسر نير بابل والثورة عليها باسم الرب. وشيعة ثانية مضادة تزعمها النبي إرمياء ودعامعها إلى وضع أعناق الأمة تحت نير ملك بابل بأمر الرب أيضاً[٢]. وقد أدى هذا التعارض بين النبيين اليهوديين إلى إنكار الواحد منهما لنبوة الثاني [٣]. واعتبرت التوراة ماحلّ

---

(١) R. Labat, Arryrien u. seine Nachbarlan der. Das neubabylonische Reich, in FW, 4, S. 100.

(٢) سفر الملوك الثاني ٢٤ ، ١٥ - ١٦ .

(٣) إرميا ٢٨ ، ١٢ - ١٤ ، ١٥ - ١٧ ؛ ٣٧ ، ١ - ٥ .

http://www.al-maktabeh.com

باليهود حينذاك عقاباً لهم على «تماديهم في عصيان الرب حتى ثار غضبه على شعبه فأصعد عليهم الكلدانيين[٤]». وبقي الأسرى اليهود في بابل إلى أن سمح لهم الملك الفارسي قورش الثاني (٥٩٩-٥٢٩ ق.م) بالعودة إلى أورشليم. ثم تابع الجيش البابلي زحفه إلى الساحل الفينيقي ، واحتل مدنه الرئيسة بعد محاولة منها للتنصل من الحكم البابلي على عادتها في الأوقات المضطربة، واستعصت عليه مدينة صور المنيعة التي أبدت من المقاومة مايشهد لأهلها بقوة الإرادة وحسن التصرف حوالي ١٣ سنة . ثم جنحت إلى المسالمة بعد أن تفاوضت مع نبوخذ نصر على أن تعترف بالنفوذ البابلي، وتتعهد بمساعدتهم بغزو مصر إذا ابتغوا ذلك، فتكون قاعدة لهجومهم على مصر عن طريق البحر [٥]. ويذكر أحد النصوص أن بنوخذنصر قام بهجوم على مصر في العام ٥٦٨ق.م مستغلاً موت الملك المصري وتعيين ملك جديد، ليثني عزيمة المصريين عن العودة للتدخل في الشأن السوري. ولكن النص المذكور مشوه، ولايقدم معلومات واضحة عن الموضوع [٦]. كما لاتشير النصوص المصرية إلى أي هجوم وقع عليها من جانب البابليين. ولكن نبوخذ نصر استطاع أن يهنأ في بابل بالراحة حتى أواخر أيام حكمه بعد حملته الأخيرة على سورية التي آتت ثمارها. وتذكر نصوصه أنه شق طريقاً مباشرة بين جبال لبنان وبابل لتيسير تحركات جيشه ، ولتسهيل نقل أشجار الأرز أيضاً.

كان الملك الكلداني نبوخذ نصر الثاني من الملوك القلائل الذي عرفوا بحنكتهم السياسية وقدراتهم العسكرية، والذين جمعوا بين الكفاءة الإدارية والبراعة في قيادة الجيش وخوض المعارك منذ كان ولياً للعهد، كما كان يتمتع بحس فني ومعماري رفيع. ويشهد على ذلك إعادته مدينة بابل إلى مكانتها الرائدة في العالم القديم التي كانت قد وصلت إليها في عهد سميّه حمورابي قبل ماينوف على اثني

(٤) سفر الأيام الثاني ، الإصحاح ٣٦ .

(٥) وقد خلف نبوخذ نصر نقشاً باسمه عند نهر الكلب .

(٦). Herodotus, II 161

Wisman, Babylonian Chronicles 30, 94 - 5 .

مكتبة المهتدين الإسلامية

عشر قرناً. فأمست بابل أشهر مدن العالم القديم نتيجة إنجازات ملكها نبوخذ نصر الثاني الذي خلّف فيها من المعالم الحضارية ماخلّد اسمها، ورفع من شأنها، فمعظم ماتم الكشف عنه فيها منذ مطلع القرن الحالي يرقى بتاريخه إلى عهد هذا الملك. وقد قال عنها المؤرخ اليوناني هيرودوت : إنها لاتضاهيها في عظمتها وسعتها مدينة أخرى[٧]. وبلغت مدينة بابل من الشهرة بحيث صارت عنوان حضارة بلاد مابين النهرين. وعدت أسوارها، وجنائنها المعلقة التي أقيمت في عهد بنوخذ نصر من عجائب الدنيا السبع. كما نسبت إليها بلاد بابل جميعها Babylonia لمنزلتها الحضارية الرفيعة في تاريخ الشرق القديم. ومن بقايا آثارها الشهيرة : قصر نبوخذ نصر، والزقورة أو برج بابل المشهور، والجنائن المعلقة، وبوابة عشتار، والأسوار الضخمة.

أما برج بابل (أو الزقورة) فقد بدأ تجديده في عهد نبوبولاصر مؤسس الأسرة الحاكمة الحادية عشرة، والد نبوخذنصر. وكان بناؤه لخدمة معبدا الإله مردوك ، إله مدينة بابل الرئيس. وقد وصفه المؤرخ هيرودوت في القرن الخامس وصفاً شائقاً، واحتفظت له أجيال الرواة العبرانيين والمسلمين بصورة أسطورية . وكان البرج يتألف من عدة مسطحات ، لعلها سبعة ، بني الواحد منها فوق الآخر، وكان ضلع المسطح الأكبر السفلي يبلغ طوله حوالي ١٨٣ متراً، وضلع المسطح الثاني نحو ١٠٦ من الأمتار، وتضمن عدة مقاصير لكبار أرباب المدينة والمدن المجاورة لها، مثل : مردوك ، ونبو، وإيا، وسين... ثم قام في وسط المسطح بناء مدرج تألف من خمسة مسطحات تصغر مساحة كل مسطح منها عما تحته، ويصل بينها درج جانبي صاعد يدور حولها حتى يؤدي إلى أعلاها، حيث يتوسط المسطح العلوي منها ويتوّجه قدس الأقداس الكبير. ولعل كل مسطح منها كان بلون مختلف، كما يقول هيرودوت. وعندما جاء الفرس في عهد الملك أخشويرش دمروها [٨].

وكان ثمة طريق للمواكب يصل بين برج بابل وبين معبد مردوك إساجيل . ويخترق الطريق بوابة عشتار التي تعد من معالمه الرئيسة.

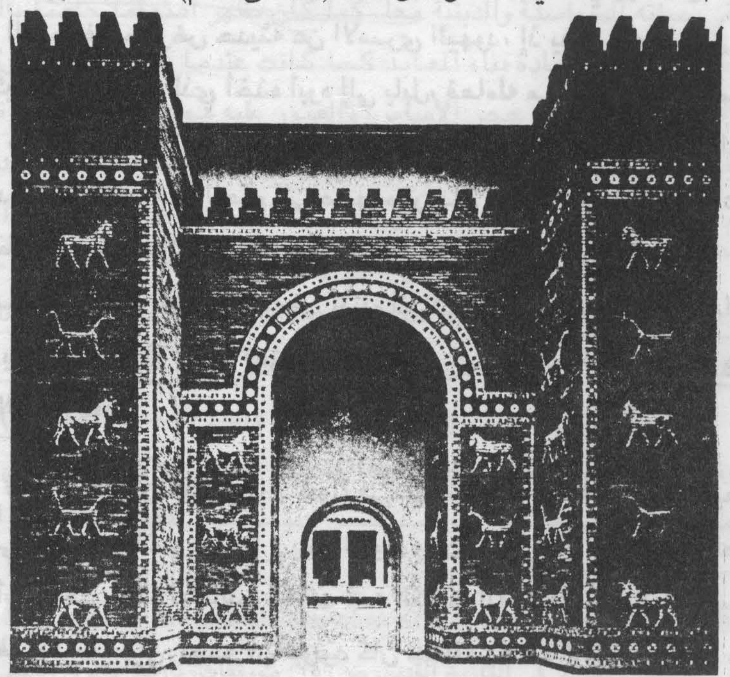
---

(٧) يذكر هيرودوت أن محيط عمرانها حينذاك بلغ نحو ١٨كم ، وأن أسوارها كانت دائرية عظيمة، وأنه أحاطت بها أربعة خطوط دفاعية.

(٨) Herodotus, I, 181; Mémoires de L'Académie des Inrcsiptions, XXXIX, 1913.
عبدالعزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم، ص ٥٥٩.

http://www.al-maktabeh.com

مجسم لمعبد مردوك في بابل مع برج بابل (بارتفاع ٩١م) من عهد نبوخذ نصر



واجهة بوابة عشار بعد إعادة تركيبها في متحف برلين

مكتبة المهتدين الإسلامية

وصاحب اهتمام نبوخذ نصر بمعابد العاصمة بابل وعمرانها اهتمام مماثل بمعابد المدن الأخرى ذات الشهرة الدينية، كما امتاز عهده بالاتجاه إلى إحياء تراث الماضي. ونشطت الحياة الدينية التي اقترنت بنشاط كبير في تجديد المعابد، وبروز نظام المعبد بصفته مركزاً للنشاط الاقتصادي والاجتماعي، كما كانت الحال في عصر الأسرات السومرية الأولى [٩]. وظهر أيضاً في هذا العصر تأثير اللغة الآرامية في لغة الدولة المتداولة وهي اللغة البابلية الحديثة، إذ مر زمن طويل منذ دخول الآراميين إلى جنوبي العراق، ولاننسى أن الأسرة الحاكمة نفسها آرامية. ويستخلص من أعمال نبوخذ نصر، وإنجازاته العمرانية أن بابل عاشت في عهده بحق أزهى عصورها التاريخية.

مات نبوخذ نصرالثاني بعد حكم طال حوالي ثلاثة وأربعين سنة في العام ٥٦٢ ق.م، وقد استغرقت مدة جلوسه على العرش قرابة نصف حكم الأسرة الحاكمة. وخلفه على العرش ابنه أويل مردوك (٥٦٢-٥٦٠) الذي ورد ذكره في كتاب العهد القديم في معرض حديثه عن الأسرى اليهود، إذ يذكر أنه أحسن معاملة يهوياكين، ملك يهوذا الذي أخذه أبوه إلى بابل، فعامله معاملة الأمير، كما سمح لليهود بممارسة طقوسهم الدينية بحرية. ولعل هذه المعاملة أدت إلى قيام انتفاضة ضده دبرها الكهنة. فآل الحكم إلى صهره نرجال شر أوصر (٥٦٠-٥٥٦) ، فلم يعمر طويلاً، وينسب إليه القيام ببعض النشاط العمراني. ثم أعقبه ابنه الذي لم يحكم سوى بضعة أشهر لمقتله في أثناء انقلاب داخلي. ونصب الثوار ملكاً على البلاد يدعى نبونيد (٥٥٦-٥٣٩ق.م) الذي يمثل خاتمة المطاف لسيادة بابل في تاريخ الشرق القديم.

كان نبونيد من كبار رجال الدولة في عهد نبوخذنصر، فقد أرسله مبعوثاً من عنده في عام ٥٨٥ لتسوية النزاع بين الميديين وبين مملكة ليديا (في آسية الصغرى) وكان أبوه أحد حكام الأقاليم، وكانت أمه الكاهنة العليا في معبد الإله سين، إله القمر في مدينة حرّان. ويبدو أن نبونيد كان متعلقاً بأمه، وكان لهذه تأثير بالغ في

---

(٩) طه باقر، المقدمة، ص ٥٥٦.

http://www.al-maktabeh.com

حياته وتصرفاته منذ اللحظة التي التجأت وإياه إلى بابل بعد احتلال الميديين لحران. فحاز نبونيد مكانة مرموقة في القصر الملكي لدى نبوخذ نصر، ومن بعده لدى نرجال شرأوصر (نريجليسار) أيضاً وقد صرّح في نص له عن علاقته بهما إذ قال مدافعاً عن شرعية حكمه : «لباشي مردوك بن نريجليسار الذي كان مايزال صغيراً اعتلى العرش دون إرادة الآلهة ... (أما أنا فقد) صرت حاكماً على البلاد بتكليف من مردوك، سيدي... إنني المنفذ الشرعي لسياسة نبوخذ نصر ونريجليسار، سلَفيَّ، بينما كان أويل مردوك بن نبوخذ نصر، ولباشي مردوك...»(١٠)، وربما كان يريد أن يقول إنهما اغتصبا الحكم ولم يكونا جديرين به لعدم رضى الآلهة عنهما، فلقيا حتفهما سريعاً، إذ أن النص المذكور غير كامل. أما هو فكان حريصاً على عبادة مردوك ومتابعة السير على خطى الأسلاف والتشبه بهم، كما يتشبه بالملوك الآشوريين الكبار ويعتبرهم أسلافه، مما يؤكد تأثير والدته التي كانت تتفاخر بأنها شهدت مجد آشور بعينها في عهد آشوربانيبال وأنها كانت كاهنة سين في حران، عاصمة الآشوريين الأخيرة. وقد كان لميله إلى حران وإلهها سين تأثير واضح في حياته السياسية والدينية معاً. كما كان يظهر اهتماماً خاصاً بالتقاليد القديمة، ويصر على إعادة بناء المعابد كما كانت عندما شادها الملوك والحكام الأوائل فيطلب البحث عن حجر الأساس، والعثور عليه مهما كلف ذلك من تنقيب، لوضعه باحتفال مهيب في مكانه من المعبد إلى جانب وثيقته الخاصة. وقد فسر بعضهم عمله هذا بأنه كان هاوياً للآثار وأعمال التنقيب وأطلق عليه لقب «الآثاري الأول»(١١)، مع أنه كان يرمي إلى وضع اسمه إلى جانب أسماء الملوك القدماء، فيعدّ نفسه وعهده استمراراً لهم ولعهود حكمهم البعيدة وعلى الرغم من إظهار تقديسه للآلهة البابلية: مردوك، نبو، نرجال، إلا أنه كان لايخفي تقديم آلهة الكواكب: سين، شمش، عشتار، الذين يمثلون : القمر، والشمس، ونجم الصباح (ڤينوس)، على أولئك، وفي الوقت نفسه كان يكن تعظيماً خاصاً للإله سين، إله القمر في حران بخاصة، كما ذكرنا. وقد جر عليه هذا الموقف سخط الكهنة

---

(١٠) Sr. Langdon, Die neubabylonischen Königs inschriften, S. 276 - 278.

(١١) عامر سليمان، العراق في التاريخ القديم، ص٢٥٢؛ مورتغات، تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص٣٦٣.

مكتبة المهتدين الإسلامية

في بابل ، ولاسيما كهنة مردوك عظيم آلهتها. ولكن عداءهم للملك لم يبرز في بداية حكمه ، وإنما بدا واضحاً من بعد.

بدأ نبونيد حياته السياسية بالسير على خطى أسلافه ، فقاد حملة عسكرية في عام ٥٥٣/٥٥٤ إلى حماة ، وفي السنوات التالية ظهر على رأس جيشه في مناطق أخرى من سورية، ومنها منطقة أدوم، وأطراف مدين القريبة من خليج العقبة وشمال غربي شبه الجزيرة العربية. ولعل أوضاع إيران التي تغيرت بانتصار قورش (الثاني) الفارسي على خصمه ملك الميديين شجعه أيضاً على احتلال حران وانتزاعها من الميديين بين عام ٥٥٦ و ٥٥٠ ق.م، حيث بدأ العمل في تجديد بناء معبد إله القمر سين فيها. أما في الداخل فكانت الأوضاع في البلاد هادئة، ولم تتغير عما كانت عليه من قبل. وعمد إلى تكليف ابنه بيل شرأوصر منذ العام الرابع لتوليه الحكم بتصريف الشؤون الإدارية في أثناء غيابه عن العاصمة بابل، تشبها بنبوبولاصر ، مع احتفاظه بسلطته الملكية الكاملة واعتبار ابنه نائباً له. وكان دور الكهنة، ولاسيما كهنة مردوك، قد تعاظم في الدولة، بعدما صارت المعابد غنية بأوقافها، وممتلكاتها من الأراضي الزراعية التي كانت تؤجرها، وتحصل على ريعها، وبما كانت تمتلك من عبيد وأجراء وموظفين، وما فيها من كهنة. فتدخل نبونيد في الإشراف على واردات المعابد، ولم يكتف كما كان سائداً بتحصيل العشر فحسب، بل سعى موظفو الدولة المسؤولون إلى تنمية المبالغ التي تخص الدولة عن طريق تنظيم زراعة الأراضي وتأجيرها ليزيدوا من حاصلاتها ومردودها المادي. وقد أصدر ابن نبونيد في عام ٥٤٩ مرسوماً باسم الملك في هذا الشأن. فلم يَرُق تدخل الدولة في شؤون المعابد الاقتصادية لكهنتها، وزاد من التوتر بينهم وبين الملك، وبدأت تظهر بوادر السخط في العام السابع من حكمه. ومن الواضح أن سياسته المتحفظة مع الكهنة هذه، وحماسته الشديدة لعبادة الإله سين، كانت من العوامل الرئيسة التي قادت البلاد إلى اضطرابات خطيرة، لم يعبأ بها نبونيد، فقال في نص له يصف الكهنة الساخطين : «أبناء بابل ، بورسيبا ، نيبور، أور، أوروك، لارسا ، كهنة ومواطنو الأماكن المقدسة في أكدّ ارتكبوا الخطايا ، والآثام... فنطقوا كذباً وافتراء، وافترسوا بعضهم مثل الكلاب. وتركوا الحمّى والمجاعة تنشأ في وسطهم،

http://www.al-maktabeh.com

حتى تناقص عدد المواطنين. أما أنا فقد غادرت مدينتي بابل وابتعدت عنها ، وقصدت تيماء، وددان.. خيبر، ووصلت حتى يثرب، وبقيت عشر سنوات طوالاً أتجول بين هذه المدن. أما مدينتي بابل فإنني لم أرجع إليها »[١٢] وقد أقام نبونيد عدداً من السنوات في مدينة تيماء، شمال غربي شبه الجزيرة العربية ، بعد أن هاجم ملكها وقتله. فبنى فيها قصراً، وترك ابنه في بابل يقوم بتصريف الأمور بمساندة الجيش، وقد حلت المجاعة في بابل، وزاد سخط المواطنين عليه بتحريض من الكهنة الذين صوروا الملك للعامة في شكل الإنسان الكافر، المرتد عن دين الآباء والأجداد.

ولعل لإقامة نبونيد في تيماء أسباباً تتصل بالوضع السياسي والاقتصادي في الشرق القديم آنئذ. فالفرس في الشرق أمسوا قوة عظمى، تتنامى يوماً بعد الآخر، ومصر في الغرب لم تتخل عن لعب دورها في إثارة السوريين ضد البابليين، والعرب لايكفون في الجنوب عن إزعاج البابليين وقطع الطرق على تجارهم، وإثارة القلاقل في المدن السورية القريبة. ولكن الخطر الداهم مصدره من جانب الفرس، فسعى نبونيد، كمايبدو، إلى استراتيجية دفاعية تكفل لملكته الأمان، فترك ابنه في بابل ومعه الجيش بإمرته، بينما وسّع المجال الدفاعي المحتمل في العمق وأعطاه وزناً أكبر بقواته التي تمركز بها في أقصى الغرب، وسيطر على القبائل العربية في الوقت ذاته التي دانت بالطاعة له.

وثمة فائدة اقتصادية توخّى نبونيد الحصول عليها باحتلاله شمال غربي شبه الجزيرة العربية. فقد خسرت مدينة أور دورها كمرفأ تجاري على الخليج العربي بعد أن غدت بعيدة عن الشاطئ بسبب الطمي الذي كان الفرات قد ملأ به الساحل القريب بمرور الزمن، وصارت السفن المحملة بالبضائع ترسو على الجهة الشرقية للخليج التابعة للسيادة الفارسية. وتعاظم نتيجة لذلك دور الطريق التجاري الغربي الذي يمر في غربي شبه الجزيرة العربية قرب تيماء، ومنها إلى الشمال وإلى مصر. فلعله كان يفكر بمكوثه في تيماء الإفادة من موقعها الاستراتيجي قرب طريق

---

(١٢) C. J. Gadd, in : Anatolian Studies 8 (1958), S. 56 - 59 .

مكتبة المهتدين الإسلامية

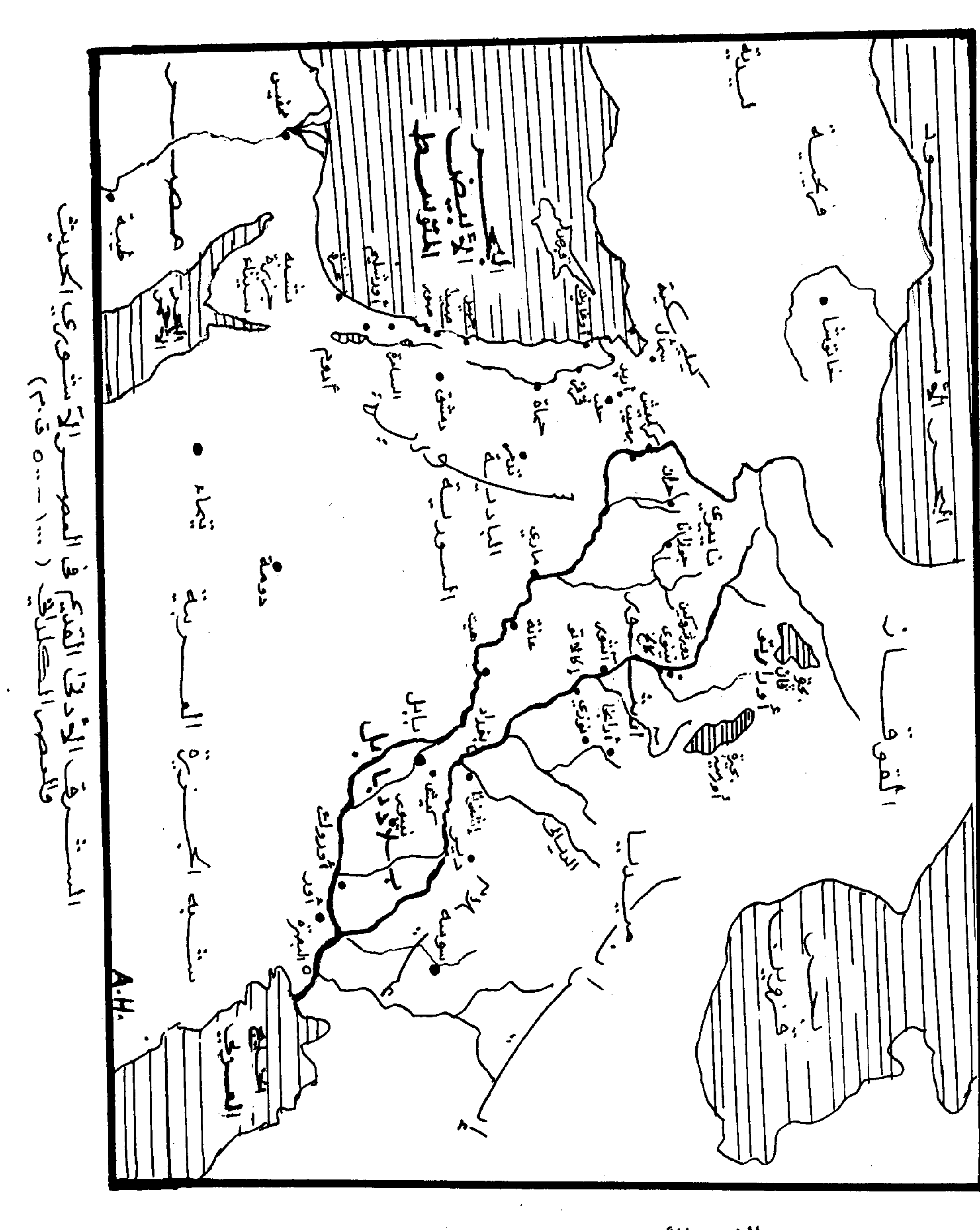
التجارة الرئيسي، والسيطرة عليه، وعلى السوق المركزي الذي تمثله في المنطقة، وتأمين احتياجات بلاده التي تعاني من الجوع . ويصبح وجوده في تلك البقاع القريبة من مصر عامل ضغط اقتصادي عليها في الوقت نفسه، يحمل الملك المصري على تغيير سلوكه مع البابليين.

ولكن قورش كان يخطط هو الآخر للاستيلاء على بابل وعلى المناطق التي كانت تسيطر عليها بعد أن استقرت أوضاعه في إيران التي وحّدها تحت حكمه. فسعى هو الآخر إلى الاتصال بالعرب عن طريق الدخول إلى سورية ليحصر بابل من أطرافها الثلاثة. ولكن الظروف الداخلية المضطربة، وتفاقم الأوضاع الاقتصادية السيئة في بابل، وحقد الكهنة على نبونيد وعلى اهتمامه المتزايد بالإله سين، وفّر على قورش المغامرة باحتلال سورية، ولاسيما بعد أن كسب كهنة بابل إلى جانبه، فمدوا أيديهم إليه طالبين تخليصهم من حكم نبونيد. ولم يحرك هذا ساكناً لتحسين صورته أمام مواطنيه عندما عاد إلى مدينته في عام ٥٤٢ق.م، بل أمر بنقل تماثيل الإله سين، ونوسكو مع تماثيل زوجتيهما إلى حران في مهرجان مهيب، بعد أن انتهى بناء المعبد أهلُهُل الخاص بإلهه القمر، ونصبها في احتفال لم تشهد له البلاد مثيلاً . أما قورش فإنه اتخذ قراره بالقضاء على المملكة البابلية في عام ٥٣٩ق.م، فزحف إلى بلاد بابل بجيوشه التي وجهها على محورين اثنين، الأول يؤدى إلى سيبار، فسقطت بأيدي قواته من دون قتال. وتحركت قوات المحور الثاني بقيادة حاكم جوتيوم إلى مدينة بابل، ودخلتها هي الأخرى من دون إراقة دماء. فلقي ابن نبونيد حتفه، أما نبونيد فقد وقع أسيراً بيد الفرس الأخمينيين، واختلفت الآراء حول نهايته: فمنهم من يقول إنه نفي إلى جهة إيرانية، تدعى كرمان، استناداً إلى ماذكر المؤرخ البابلي برعوثا (بروسّوس)، ومنهم من يقول إنه قتل استناداً إلى ماكتب المؤرخ اكسينوفون. وعندما دخل قورش العاصمة هلل الناس له، وفي مقدمتهم كهنة مردوك، واتخذ لقب "ملك البلاد كلها"، أما ابنه قمبيز فإنه اتخذ لقب «ملك بابل».

http://www.al-maktabeh.com

لقد كانت الدولة البابلية الحديثة آخر دول بلاد مابين النهرين الوطنية في تاريخ الشرق القديم، وكان عصرها على قصره (٦٢٦ - ٥٣٩ق.م) ، من أزهى عصورها السياسية والحضارية . وإن انتهى دور بابل في التاريخ القديم في عام ٥٣٩ق.م دولة مستقلة، وانتهى قبلها دور آشور في عام ٦١٢ ق.م، فإن زوال دورهما السياسي لم يستتبعه زوال تأثيرهما الحضاري في الشرق والغرب معاً ولكن الحديث عن ذلك التأثير الحضاري، بل وعن حضارة بلاد مابين النهرين يحتاج إلى مجلد خاص ليس مجاله هنا .

مكتبة المهتدين الإسلامية



الشرق الأدنى القديم في العصر الآشوري الحديث
والعصر الكلداني (١٠٠٠ – ٥٠٠ ق . م)

http://www.al-maktabeh.com

المصادر والمراجع

أ - باللغة العربية :

- باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. الجزء الأول : الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين، بغداد وبيروت ١٩٧٣.
- الجديد حول الشرق القديم ، مجموعة من المؤلفين بإشراف بونغاردليفين. ترجمة جابر أبي جابر وخيري الضامن، موسكو ١٩٨٨.
- رشيد ، فوزي ، الشرائع العراقية القديمة، بغداد ١٩٧٩.
- ساكز ، هاري ، عظمة بابل . ترجمة عامر سليمان . الطبعة الثانية ، لندن ١٩٦٦ (الترجمة العربية ١٩٧٩).
- سليمان ، توفيق ، دراسات في حضارات غرب آسية القديمة من أقدم العصور إلى عام ١١٩٠ ق . م . دمشق ١٩٨٥.
- سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ القديم . موجز التاريخ السياسي، الموصل ١٩٩٢، الجزء الثاني : موجز التاريخ الحضاري ١٩٩٣.
- صالح ، عبدالعزيز ، الشرق الأدنى القديم ، مصر والعراق، القاهرة ١٩٩٠.
- عبدالواحد علي ، فاضل ، من ألواح سومر إلى التوراة، بغداد ١٩٨٩.
- غولايف ، ب، المدن الأولى ، ترجمة طارق معصراني ، موسكو ١٩٨٩.
- فرانكفورت ، هنري ، فجر الحضارة في الشرق الأدنى، ترجمة ميخائيل خوري، بيروت ١٩٥٠.
- فرزات، محمد حرب - عيد مرعي، دول وحضارات في الشرق العربي والقديم، دمشق ١٩٩٠.
- كرامر ، صموئيل ، من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، القاهرة ١٩٥٧.
- محمد عبداللطيف محمد علي، تاريخ الشرق القديم حتى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، الاسكندرية ١٩٧٧.
- محيسن ، سلطان ، عصور ماقبل التاريخ ، دمشق ١٩٨٧-١٩٨٩.

مكتبة المهتدين الإسلامية

- مرعي، عيد، قوانين بلاد مابين النهرين ، دمشق ١٩٩٥.
- مورتكات ، أنطون ، تاريخ الشرق الأدنى القديم. تعريب توفيق سليمان، علي أبوعساف، قاسم طوير، دمشق.
- هبو ، أحمد ارحيم ، المدخل إلى اللغة السريانية وآدابها، حلب ١٩٧٥.
- الأبجدية ، نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب، اللاذقية ١٩٨٤.
- تاريخ الشرق القديم (١) سورية ، صنعاء وبيروت ١٩٩٣.
- تاريخ الشرق القديم (٣) مصر، صنعاء وبيروت ١٩٩٥.
- ولفنسون ، إسرائيل ، تاريخ اللغات السامية، بيروت ١٩٨٠.

ب - باللغات الأجنبية :

Anati, E. , Palestine before the Hebrews, New York, 1963.

Bottéro, J., Das erste semitische Grossreich, in : FW, 2, S. 91 - 129.

Braidwood, R., The World's first Farming-villages, Illustrated Londons News 1956.

Cassin, E., Babylonien unter den Kassiten und das mittlere assyrische Reich, in : FW, 3, S. 9-101.

Chicago Assyrian Dictionary = CAD

Edzard, D.O., Die zweite Zwischenzeit Babyloniens, Wiesbaden 1975.

Falkenstein, A., Archaische Texte aus Uruk, Leipzig 1936.

- Geschichte des alten Vorderasiens, in : FW, 2, S. 57 -90.

Gelb, I, Sumerians and Akkadians in their Ethno - Linguistic Relationship, in : Aspects du contact sumero - akkadien (Genéve 1960).

Grayon, A.K., Assyrian and Babylonian Chronicles, Texts from Cuneiform Sources. Vol. V, New York 1975.

Jacobson, Th., The Sumerian Kinglists, Chicago 1973.

Kenyon, Digging up Jericho, New York 1957.

King, L.W., Chronicles concerning Early Babylonian Kings. London 1907.

Klengel, H, Geschichte and Kultur Altsyriens, Wien 1980.

- Hammurapi von Babylon and seine Zeit, Berlin 1980.

Kramer, S.N., History Begins at Sumer, London 1958.

http://www.al-maktabeh.com

- The Sumerians. Chicago 1963.

Mallowan, M.E., Twenty Five Years of Mesopatamian Discovery, London 1956.

Moortgat, A., The Art of Ancien Mesopatamia, London 1969.

Schmokel, H. , Das Land Sumer.

- Geschichte des alten Vorderasien, Leiden 1957.

Von Soden, W., Grundriss der akkadischen Grammatik, Roma 1952.

- Herrscher im alten Orient, Berlin 1954.
- Akkadisches Handworterbuch = AHW, Wiesbaden I - III, 1972-1981.

Wiseman, D.J., Chronicles of Chaldean Kings, London 1967.

جـ - قائمة الاختصارات :

ANET = Pritchard : Ancient Near East Texts Relating to the Old Testament, Princeton.

ARAB = Ancient Records of Assyria and Babylonia, Chicago.

C.A.H. = The Cambridge Ancient History, Cambridge.

FW = Ficher Weltgeschichte. Bde 2 - 4 Frankfurt 1965 - 1967.

JNES = Journal of Near Eastern Studies.

JSS = Journal of Semitic Studies.

مكتبة المهتدين الإسلامية



http://www.al-maktabeh.com

المحتوى

al-maktabeh www. .com مكتبة المهتدين

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥ - ٩
الباب الأول : المدخل إلى تاريخ بلاد مابين النهرين	١٣ - ٨٤
الفصل الأول : بلاد مابين النهرين ، المفهوم الجغرافي والحضاري والزمني.	١٣ - ٢٠
الفصل الثاني : فجر الحضارة	٢١ - ٤٩
- حضارة جرمو ٢٢ - حضارة حسونة ٢٦ - حضارة سامراء ٢٧	
- حضارة حلف ٢٨ - حضارة العبيد ٣٠ - حضارة أوروك ٣٥	
- حضارة جمدة نصر ٣٧	
الفصل الثالث : مصادر تاريخ بلاد مابين النهرين	٣٩ - ٤٩
الفصل الرابع : السكان القدماء	٥١ - ٨٥
- السومريون ولغاتهم ٥٢ - الساميون ولغاتهم ٥٨	
- الموطن الأصلي للساميين ٧٠ - الهجرات السامية ٧١	
- السوباريون والحوريون ٧٥ - فجر التاريخ واختراع الكتابة ٧٧	

مكتبة المهتدين الإسلامية

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني : دول بلاد مابين النهرين والعصور التاريخية ٨٩ - ٢٦٢

الفصل الأول : دول المدن السومرية الأولى ٨٩ - ١١٠

- دول المدن السومرية ٩٤ - ميساليم ملك كيش ١٠١
- أسرة لجش الأولى ١٠٣ - لوجال زاجيزي ١٠٧

الفصل الثاني : الدولة الأكدية ١١١ - ١٢٦

- سرجون ١١٢ - خلفاء سرجون ١٢٠ - نرامسين ١٢٢ - الجوتيون ١٢٧

الفصل الثالث : العصر السومري الحديث ١٣١ - ١٤٦

- جوديا حاكم لجش ١٣٢ - أسرة أور الثالثة ١٣٥ - أورنمو ١٣٥ - شولجي ١٣٨

الفصل الرابع : العصر البابلي القديم ١٤٧ - ١٧٥

- أسرة إيسين ١٤٧ - أسرة لارسا ١٤٩ - إشنونا ١٥٠ - ماري١٥٢
- الدولة البابلية القديمة ١٥٤ - حمورابي ١٥٦ - قانون حمورابي ١٦١
- خلفاء حمورابي ١٧٢

الفصل الخامس : عصر الكاشيين ١٧٧ - ١٨٩

العلاقات الدولية ١٨٠ - نهاية العصر الكاشي ١٨٥

- بلاد بابل بعد زوال الكاشيين - نبوخذ نصر الأول ١٨٧

http://www.al-maktabeh.com

الموضوع	الصفحة

الفصل السادس : الآشوريون ١٩١ - ٢٤٧

- العصر الآشوري القديم ١٩٢ - العصر الآشوري الوسيط ١٩٦
- القوانين الآشورية ٢٠٤ - العصر الآشوري الحديث ٢٠٦
- آشور ناصر بال الثاني ٢٠٨ - شلما نصر الثالث ٢١٢
- تيجلات بيليصر الثالث ٢٢٠ - السرجونيون ٢٢٤

الفصل السابع : الدولة البابلية الحديثة (الكلدانية) ٢٤٩ - ٢٦٢

- نبوبولاصر ٢٤٩ - نبوخذ نصر ٢٥١ - نبونيذ٢٥٦ .

المصادر والمراجع ٢٦٣

قائمة الأختصارات ٢٦٥

المحتوى ٢٦٧

مكتبة المهتدين الإسلامية